التربية الإسلامية

أصولها وتطورها في البلاد العربية

تأليف

الدكتور محمد منير مرسي

دكتوراه الفلسفة في التربية من جامعة لندن

أستاذ التربية بجامعة قطر

طبعة منقحة

١٩٨٧

دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

« انما بعثت لأتمم مكارم الأخــلاق »

« حديث شريف »

٧

محتويات الكتاب

الفصل الأول
التربية الاسلامية أصولها واساليبها

الفصل الثانى
تربية الطفل فى الاسلام

صفحة

الفصل الثالث
تعليم المرأة فى الاسلام

الفصل الرابع
المعلم فى التربية الاسلامية

صفحة

مقدمة

على الرغم من الأهمية الحيوية لموضوع التربية الاسلامية فان المكتبة العربية تعانى من فقر شديد فى الكتابات الحديثة عن هذا الموضوع • ومازالت الحاجة ماسة وقائمة لكتابات أصيلة عن التربية الاسلامية تسبر أغوارها وتكشف جوانبها لتعمق فهمنا لما ينبغى أن يكون عليه طريقنا فى تنشئة الأجيال الصاعدة تنشئة صحيحة •

وهذا الكتاب يتناول التربية الاسلامية من حيث أصولها ومبادؤها واتجاهاتها وتطورها فى البلاد العربية عبر تاريخها الطويل منذ ظهور الاسلام حتى العصور الحديثة •

والكتاب خطوة متواضعة بيد أنه يسد حاجة قائمة وهو يهم بالدرجة الأولى كل المشتغلين بالتربية والمعنيين بشئونها بصفة عامة والتربية الاسلامية بصفة خاصة • ويهم كل المربين والمعلمين •

والكتاب أيضا يهم كل مسلم لأنه بحكم اسلامه راع وهو مسئول عن رعيته ومن هنا فان هذا الكتاب يمثل اهتماما مشتركا أيضا •

ونرجو أن يجد فيه كل هؤلاء ما قصدنا اليه من النفع والفائدة •

والله ولى التوفيق ••

د• محمد منير مرسى

الفصل الأول

التربية الإسلامية : أصولها وأساليبها

مقـــدمة :

قد يعجب دارس تاريخ التربية من اغفال مراجع تاريخ التربيـة المؤلفة فى الغرب لموضوع التربية الاسلامية على الرغم من أن التربية الاسلامية قد عاشت أزهى فتراتها فى وقت خيم فيه ظلام العصـور الوسطى على الغرب • واذا كانت هذه الفترة من الظـلام قد ميزت القرون الخمسة الأولى من العصور الوسطى فى الغرب فان شـمس الحضارة كانت تشرق عالية فى الشرق بل ان النهضة الأوربية التى بدأت فى النصف الثانى من القرون الوسطى قد اعتمدت فى غذائها الثقـافى والفكرى على نتاج الثقافة العربية الاسلامية ابان عصرها الذهبى •

ولعل العذر فى هذا الاغفال من جانب المؤلفين الغربيين يرجع الى عدم اهتمامهم بالموضوع رغم أهميته أو لجهلهم به أو ربما لتحيـزهم وتعصبهم فى بعض الأحيان • ويذكر كاتب هذه السطور أنه عندما قام مع زميلين له بترجمة كتاب التاريخ الاجتماعى للتربية لمؤلفه روبرت بك من الانجليزية الى العربية ، تم الاتصال بالمؤلف الأمريكى لاستئذانه فى الترجمة العربية مع طلب مقدمة منه لهـذه الترجمة • وقد عبـر عن احساسه بهذا النقص فى الكتاب وعلل ذلك بعدم معرفته بهذا الجانب الهام من التربية فى الشرق وقد نشرت الترجمة ولم تنشر معها المقدمة لأنها وردت متأخرة •

وقد تكون دهشة دارس تاريخ التربية أشد عندما يرى أن المؤلفات العربية تعالج موضوع التربية الاسلامية عند الكلام عن التربية فى العصور الوسطى وكأن دراسة الموضوع تقف عند هذه الفترة الزمنية • صحيح أن التربية الاسلامية كما قلنا عاشت أزهى عصورها فى هذه الفترة التى أعقبتها فترة تدهور وانحطاط لكن هذا لا يقلل من دراسة التربية الاسلامية خلال تلك الفترة لمتابعة تطورها ونمو اتجاهاتها حتى نأتى الى العصور الحديثة لتكتمل الصورة •

وللأسف الشديد أن الفجوة فى تتبع دراسة تطور التربية الاسلامية حتى العصور الحديثة مازالت قائمة ولا توجد حتى الآن محاولة جادة فى هذا الاتجاه • وليس من قبيل التواضع القول بأن ما يقدمه المؤلف فى هذا الكتاب ليس الا خطوة على الطريق أو هى جهد المقل ان صح هذا التعبير •

مشكلات منهجية فى الكتابة عن التربية الاسلامية :

على الرغم من وجود محاولات متزايدة للكتابة عن التربية الاسلامية فى السنوات الأخيرة ، فان هذه المحاولات تقصر فى الأغلب والأعم عن اشباع حاجات وتطلعات المهتمين بهذا النوع من الدراسات • وتبقى الكتابة عن التربية الاسلامية كالصخرة التى تتحدى ناطحها ، وقد أردنا من هذه السطور أن نعرض لأهم المشكلات والصعوبات التى تكتنف الكتابة عن هذا الموضوع الحيوى الهام ونحب أن نوضح منذ البداية أن ما نعنيه بالتربية الاسلامية هنا هو ليس مفهومها العام وانما مفهومها الاصطلاحى الذى يخص المربين وأساتذة التربية والذى يتصل بالمفاهيم والأسس والمبادىء التى تحكم النظرية التربوية فى الاسلام بأبعادها المختلفة وسنحاول فى السطور التالية أن نعرض لأهم هذه المشكلات المنهجية فى الكتابة عن التربية الاسلامية :

أولا : أن الكتابة عن التربية الاسلامية تحتم على الباحث أو الكاتب الخوض فى التراث ، وهى عملية ليست سهلة وتكتنفها صعوبات كثيرة

سنشير الى بعضها فيما بعد ــ نحن ــ يمس بكلامنا هنا من هـــذه الصعوبات ما يتعلق بتناثر الكتابات عن التربية الاسلامية فى التراث بصورة تحول دون الالمام بشتاتها ، وتحتاج هذه الكتابات الى محاولات منسقة لحصرها وتصنيفها وتبويبها بحيث تقدم فى صورة متكاملة يمكن للمربين والمشتغلين بالعلوم التربوية أن يستفيدوا منها •

ومع أن هناك بعض الدراسات والمحاولات الجادة التى عملــت فى هذا السبيل فانها تعتبر محاولات مرحلية لعبت دورها فى تمهيــد الطريق لدراسات أخرى تالية تستفيد منها وتضيف اليها •

ان احدى الملاحظات التى يمكن أن تؤخذ على هذه الدراسات هو منهجها فى البحث والتحليل الذى قد يفتقر أحيانا الى النظرة الشمولية والاستقصائية والربط والتفسير والوصول الى الاتجاهات أو المبادىء العامة • مثلا احدى هذه الدراسات عن التربية الاسلامية استعرضت آراء مختلفة عن أغراض أو أهداف التربية الاسلامية ووصلت بعد هذا الاستعراض الى أن الصواب فى نظر صاحب الدراسة هو ذكر صاحب المذهب ثم ذكر الغرض من التعليم الذى يلائم هذا المذهب • فهل هذا الاستنتاج صحيح ؟ • وهل هذا هو نوع الاستنتاج العام الذى نريد الوصول اليه ؟ •

ثانيا : أن الكتابة عن التربية الاسلامية فى معظمها تأخذ المنظور التاريخى الجزئى • بمعنى أنها تنظر الى التربية الاسلامية على أنهــا فترة تاريخية معينة وعادة ما تكون هذه الفترة هى فترة العصـــور الوسطى التى تشمل فترة مجد الاسلام وازدهاره وبرز فيها علمـــاء كثيرون كتبوا عن التربية والتعليم • ولذلك تهتم هذه الكتابات عـــادة بعرض الآراء التربوية لهؤلاء العلماء كل على حدة وحتى بدون اتبـــاع خطة موحدة لعرض آرائهم ومن الطبيعى أن يأتى عرض هـــذه الآراء حسبما اتفق دون نظام فكرى معين وغالبا ما تتكرر الآراء دون تمييز للسابق على اللاحق وكثيرا ما يصعب على القارىء أن يخرج بصـــورة متكاملة مترابطة •

كما يصعب على القارىء أيضا أن يربط بين ما قرأه وبين الوضع الراهن للتربية والتعليم بحيث يمكن أن يستفيد منه كمعلم أو كمرب أو كمتخصص فى علوم التربية .

ثالثا : أن الكتابة فى التربية الاسلامية قد يغلب عليها الأسلوب الانشائى أو الخطابى أو أسلوب الوعظ والارشاد . وهو أسلوب ان كانت له استخداماته فانه لا يصلح للمعالجة الموضوعية والدراسة العلمية للتربية الاسلامية بمفهومها المهنى الذى يفهمه المربون وأساتذة التربية وليس بمعناها العام كما أسلفنا . ويتصل بذلك الخلط الذى يحدث كثيرا بين مفهوم التربية ومفهوم التعليم . فالتربية أعم من التعليم وصلة التعليم بالتربية هى صلة الخاص بالعام . وهذا يعنى أن التربية كعملية ليست مسئولية المدرسة وحدها وانما تشترك معها كل القوى الأخرى المربية فى المجتمع . كما أن المدرسة وان كانت معظم وظائفها تعليمية فان لها أيضا وظيفة تربوية . وبالمثل يمكن الكلام عن المعلم فهو معلم بالمعنى الخاص ومرب أيضا بالمعنى العام . فالمعلم فى علاقته بالتلميذ لا يمكن أن يقتصر تأثيره على المادة العلمية أو التخصصية التى يدرسها وانما يتعدى تأثيره الى ما هو أبعد من ذلك من حيث القيم أو المثل أو السلوك وغيرها من المجالات التى يؤثر فيها المعلم على التلميذ . وعلى هذا ونظرا لهذا التداخل بين مفهومى التربية والتعليم نجد على سبيل المثال أن بعض المشتغلين بالتربية الاسلامية قد يرفض على غير حق اعتبار أسلوب الوعظ والارشاد كأحد أساليب التربية الاسلامية . وينظر الى أن أساليب التربية الاسلامية انما تقتصر على الالقاء أو الحفظ أو التلقين أو التسميع أو المحاورة أو الاملاء وغيرها من الأساليب التى تكون ألصق ما يكون بمفهوم التعليم .

رابعا : أن الكتابة فى التربية الاسلامية قد تصطدم بمشكلة وضوح الرؤية فى تتبع مسار الأصالة والتجديد للفكر الاسلامى عبر

العصور المختلفة • فمن المعروف أن الفكر الاسلامى وان كان يرجع فى اصوله المتفق عليها الى أصول واحدة هى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة • فانه تعرض لتأثير عناصر فكرية غريبة عنه حتى منذ العصور الأولى للاسلام •

فبعض المسلمين دخلوا الاسلام ليهدموه ويروجوا البدع فيه وهم فى حمايته وتحت رايته • وقصة عبد الله بن سبأ مع على بن أبى طالب معروفة • فعبد الله بن سبأ مجوسى أسلم ورأى مرة سيدنا عليا يرفع بيده ثقلا كبيرا ويصعب على انسان واحد أن يرفعه ولعله غطاء بئر على ما أذكر ، فقال له عبد الله بن سبأ : والله ما رفعته بقوة جسمانية وانما بقوة ملكوتية مرددا بذلك نظرية الفيض الالهى عند المجوس والتى هى غريبة عن روح الاسلام • وعندها نجد أن الامام عليا يدرك المغزى وينكر على ابن سبأ هذا القول ويهدده بقوله : والله لو عدت الى هذا القول لرجمتك • وهذا مجرد مثال واحد أردنا أن نورده للتدليل على دخول أفكار غريبة عن الاسلام على يد أناس أسلموا ليكونوا معاول هدم للاسلام • وكم فى الاسلام من أمثال عبد الله بن سبأ ! ••

ان مثل هذه الأفكار الغريبة سواء كان دخول بعضها مغلفا أو مكشوفا أصبح جزءا من التراث ويحتاج منا الى جهود جادة لغربلة هذه الشوائب وتنقيتها وهى عملية ليست سهلة كما يبدو وانما تحتاج الى تضافر جهود مخلصة واعية قادرة • وبدون ذلك يظل طريق الكتابة عن التربية الاسلامية محوطا بالأشواك •

يضاف الى ذلك أيضا عناصر الفكر اليونانى التى شقت طريقها بسلطان الى الفكر الاسلامى من خلال التراجم العربية لفلسفة الاغريق وقيام الفلاسفة المسلمين أنفسهم بترويج هذه الآراء على ألسنتهم وبعضها أشعار نرددها دون وعى أحيانا • فنحن قد نردد قصيدة ابن سينا فى النفس والتى يقول فيها « هبطت اليك من المحل الأرفع » دون أن نعرف أنها ترديد لأساطير أفلاطون • وهذا أبو حامد الغزالى حجة

الاسلام وأكثر المدافعين فيه يردد على لسانه آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما ومن قبله ابن مسكويه فى كتابه « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » نجده متأثرا بفلاسفة الاغريق • بل اننى تعجبت جدا عندما قرأت كتاب ابن قيم الجوزيه« تحفة المودود بأحكام المولود » ووجدت أنه يورد آراء علماء الاغريق فى هذا الكتاب الذى يحمل عنوانا لا نتصور معه وجود مكان فيه لمثل هذه الآراء •

وعلى هذا تواجه الكتابة عن التربية الاسلامية مشكلة التمييز فيما يورده علماء المسلمين من آراء بين ما هو أصيل ودخيل • هناك بالطبع أشياء يمكن لنا تحديدها ومعرفتها فنحن نعرف مثلا أن كتابات كل من ابن سحنون عالم القرن الثالث الهجرى والقابسى عالم القرن الرابع الهجرى عن التربية والتعليم هى كتابات اسلامية أصيلة خالصة• وهما من أوائل من كتبوا عن التربية الاسلامية كتابة متخصصة • ونعلم أيضا أن القرن الرابع الهجرى يعتبر نقطة تحول واضحة بالنسبة للفكر الاسلامى عندما بدأت روافد الفكر الاغريقى تأخذ طريقها مع حركة الترجمة التى شهدها العصر العباسى الزاهر • ولهذا نجد أن الكتابات التى تلت ابن سحنون والقابسى بدأت تختلط بالعناصر الاغريقية وهذا يصدق على ابن مسكويه عالم القرن الرابع الهجرى والغزالى عالم القرن الخامس الهجرى ومن بعدهما •

واحدى المشكلات التى تثيرها الكتابة عن التربية الاسلامية فى محاولة تتبع تطور الفكر التربوى فى الاسلام تتمثل فى جانبين رئيسيين :

الجانب الأول : تحديد الآراء المتميزة لكل عالم اسلامى على حدة :

فمن المعروف أن الخلف ينقل عادة عن السلف فالقابسى نقل عن ابن سحنون والغزالى نقل عن ابن مسكويه وابن خلدون والطهطاوى نقلا عن سابقيهما وهكذا •

وقد يكون لكل منهما اجتهاده الخاص الى جانب الآراء الأخرى التى نقلها ، ومن المفيد معرفة آرائه الخاصة التى أضافها بحيث نميزها عن الآراء الأخرى التى نقلها عن غيره • فليس كل ما يرد على لسان عالم من العلماء يمثل آراءه هو وانما قد يكون كثير منها قد تردد لدى سابقيه ونقله عنهم • اننا نجد رسائل علمية للماجستير أو الدكتوراه تبحث فى الآراء التربوية لعالم من علماء المسلمين ولا ننتبه الى هذه النقطة ونورد الآراء التى يذكرها هذا العالم على لسانه فى مؤلفاته على أنها آراؤه هو بصرف النظر عن مدى التحقق من كون هذه الآراء هى له حقيقة أم أنه مجرد ناقل لها •

الجانب الثانى : تحديد الأصيل والدخيل على الفكر الاسلامى فيما يرد على لسان العلماء من آراء •

وهذه نقطة على جانب كبير من الأهمية سواء بالنسبة لموضوع التربية الاسلامية أو غيرها من جوانب الفكر الاسلامى عامة • ان كثيرا من الآراء الغربية قد دخلت الى الفكر الاسلامى على ألسنة العلماء المسلمين أنفسهم وفى ظل قوة سلطانهم • خذ كلام فلاسفة المسلمين عن النفس والعقل وهو موضوع ألصق ما يمكن بفلسفة التربية الاسلامية تجد أن معظم ما يوردونه يمثل آراء فلاسفة الاغريق • وبعض علماء المسلمين يقسمون المنهج المدرسى الى علوم اسلامية هى العلوم النقلية واللسانية وعلوم غير اسلامية هى العلوم العقلية • فهل هذا تقسيم مقبول • أليست كل العلوم علوما اسلامية طالما أنها فى الحدود التى رسمها لنا الله ؟

وقد يصل الخلط أحيانا الى تشويه ما هو اسلامى خالص بخلطه عن غير وعى وادراك بمتشابهات غير اسلامية • مثلا نردد كثيرا أن الاسلام هو دين التوسط والاعتدال وهذا الكلام اسلامى خالص ثم قد نتبع ذلك بالقول فالفضيلة توسط بين رذيلتين فالشجاعة فضيلة تتوسط

الجبن والتهور وأن علاج الرذيلة يكون بالمبالغة فى ضدها حتى يحصل التوسط فعلاج الجبن الاسراف فى الشجاعة وعلاج البخل الاسراف فى الكرم . هذا الكلام غير اسلامى لأنه تردد على ألسنة فلاسفة الاغريق من قبل وعلى رأسهم أفلاطون وأرسطو .

وقد نردد أيضا عبارات مثل أن الانسان حيوان عاقل أو مفكر ناطق أو غيرها .. ووصف الانسان بالحيوان جاء أول ما جاء على لسان أرسطو . ومثل هذا الوصف غريب على الفكر الاسلامى والمصدران الرئيسيان للاسلام لم يصفا الانسان بهذا الوصف . ألم يصف الغزالى الانسان بأنه أشرف مخلوق على الأرض ؟

ان الانسانية ضد الحيوانية والبهيمية ولا يجوز فى الفكر الاسلامى الصحيح أن نجرى وراء أرسطو أو داروين أو سبنسر أو غيرهم لنعتبر الانسان من صنف الحيوان ثم نضفى عليه بعد ذلك الصفات الأخرى من العقلانية أو الاجتماعية أو غيرها . ان الانسان جنس من صنف الأجناس التى خلقها الله . وهو متميز بذاته وكرمه الله على كثير من خلقه وجعله خليفته على الأرض . قد يقال مثلا ان الحيوانية من الحياة ، ومن ثم فوصف الانسان بأنه حيوان يعنى أن به حياة . وأنا أعتقد أن هذا المعنى هو آخر ما يتوارد على عقولنا عندما نصف الانسان بذلك ! ان ما أقصده هنا هو وضع الأمور فى اطارها الصحيح وفى منظورها الاسلامى السليم دون تمحك أو تكلف فى التخريج .

خامسا : ان محاولات تجديد الفكر الاسلامى فى العصور الحديثة لم تصل الى غاياتها ولم تستطع أن تصل حاضر المسلمين المتخلف المؤسف بماضيهم التليد الزاهر . فقد خيم على العالم الاسلامى فترة ركود فكرى وثقافى امتدت عبر قرون طويلة ، وبدأت بخطوات سريعة منذ تدمير المغول لحضارة الاسلام ودار السلام فى بغداد ثم ما تلا ذلك من فترة الحكم التركى العثمانى للبلاد العربية . ومع أن العرب أنفسهم يختلفون فى تقويم فترة الحكم العثمانى فالذى لاشك فيه أن السياسة

التركية العثمانية قد أدت الى ظهور تيارات ثقافية وفكرية متباينة فى العالم العربى والاسلامى وخلقت أوضاعا غريبة .

ففى ظل الحكم التركى العثمانى ظهرت الدعوات الشعوبية كالدعوى الطورانية أو الجامعة التركية التى كانت ترمى الى سلخ تركيا عن الاسلام والبعد عن الجامعة الاسلامية التى دعا اليها جمال الدين الافغانى ومحمد عبده . وظهرت أيضا الدعوة الى احياء القومية الفارسية فى الزرادشتية أو المانوية أو المزدكية — كما ظهرت أيضا الدعوة الى الفرعونية فى مصر والفينيقية فى الشام والآشورية فى العراق والبربرية فى المغرب وهكذا .

وفى ظل هذه البلبلة الفكرية كان هناك أيضا الدعوى الى القومية العربية فى مقابل القومية الاسلامية ان صح هذا التعبير . فمن المعروف أنه لا شعوبية فى الاسلام والاسلام للناس كافة ولكل شعوب الأرض على اختلاف شاكلتهم وألوانهم وأجناسهم . وقد حسمت هذه الدعوى الشعوبية منذ فجر الاسلام فلا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى وصالح العمل . والناس كأسنان المشط فى المساواة ، والمسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة . ومع أن دعوى القومية العربية غريبة عن روح الاسلام فانها دخلت فى العصور الحديثة الى العالم العربى تحت تأثير عاملين رئيسيين :

العامل الأول : هو سياسة التمييز الدينى الذى سارت عليه السياسة التركية العثمانية وعاملت المسيحيين العرب واليهود العرب معاملة الأقليات الأجانب وعلى هذا كان من حقهم انشاء المدارس الخاصة بهم لتعليم أبنائهم باللغة العربية فى حين عومل المسلمون العرب معاملة باقى أرجاء الخلافة . فكان تعليمهم يسير على نظام المدارس التركية وكانت اللغة التركية هى اللغة الرسمية للاتصال والتعليم معا . فاستعجمت العربية فى عقر دارها وعاشت كلغة هامشية . وكان تأثير كل هذا أن ظهر من بين المسيحيين واليهود من العرب من قاد الحركة الثقافية الفكرية

العربية خلال القرنين ١٩ ، ٢٠ ، كما أن المسيحيين العرب كان عليهم أن يجدوا لأنفسهم ما يربطهم بهذا الوطن العربى الذى عاش عليه أجدادهم فى حين أن تركيا تنظر اليهم كأغراب فيه • ووجد هؤلاء المسيحيون فى الدعوى الى القومية العربية ما يحقق انتماءهم الى وطنهم العربى ويربطهم به •

العامل الثانى : نمو الحركة القومية فى أوروبا بصورة متزايدة خلال القرن التاسع عشر تحت تأثير من فكرةهيجل أن الأمة المثالية هى التى تنتمى الى قومية واحدة • ووجد المسيحيون العرب فى هذه الدعوى ضالتهم المنشودة التى تجعل منهم مواطنين لا رعايا فى أوطانهم •

وارتبطت هذه الحركة القومية عند المسيحيين العرب بتعريب الكنائس العربية واستخدام اللغة العربية فى الصلوات والطقوس والترانيم •

وكانت المحصلة النهائية لكل هذه الدعوات المختلفة اضافة المزيد من التناقضات الثقافية التى تعمق من فرقة العالم الاسلامى • وعندما نسأل أنفسنا من نحن ؟ لا نجد اجابة واحدة •

وتجديد الفكر الاسلامى لابد وأن يضع فى اعتباره العمل على تخليصنا من هذه التناقضات الثقافية والفكرية • وحتى يتم ذلك ستظل الكتابة عن التربية الاسلامية تبحث لنفسها عن مخرج وعندما نطرح سؤالا عن أهداف التربية الاسلامية أو العربية فكيف تكون اجابتنا على هذا السؤال فى ظل كل تلك التناقضات ؟

وكيف نستطيع اذن أن نحدد منطلقاتنا الرئيسية للعمل التربوى الجاد ونحن نواجه منذ البداية بهذه الصعوبات • ان أمامنا عمل كبير يتطلب جهودا مخلصة متضافرة تعمل على دفع حركة الفكر الاسلامى فى تيارها الصحيح بما يمكن الباحثين من العمل الايجابى الهادف البناء سواء فى ميدان التربية الاسلامية أو فى غيرها من الميادين •

تربية العرب قبل الاســلام :

اعتمدت التربية عند العرب قبل الاسلام على التقليد والمحاكاة فكان الصغار ينشئون على تقليد ومحاكاة الكبار وكانت القبيلة وما بها من عشائر وبطون تقوم بتعليم صغارها وفقا للمبادىء والقيم الاجتماعيــة السائدة فى القبيلة • فكان للعــرب قيمهم التى كانوا يفتخرون بهــا ويتغنون بها فى أشعارهم •

أما العلوم التى كانوا يعرفونها فيقول الشهر ستانى فى « الملل والنحل » : « أعلم أن العرب فى الجاهلية كانت على ثلاثة أنواع من العلوم • أحدها علم الأنساب والتواريخ والأديان •• وثانيها علم الرؤيا، وكان أبو بكر رضى الله عنه ممن يعبر الرؤيا فى الجاهلية ويصــيب فيرجعون اليه ويسخيرون عنه • وأما النوع الثالث فهو علم الأنــواء وذلك مما يتولاه الكهنة » • أما الشعر فهو ديوان العــــرب وكانوا يتطارحونه فى الأسواق كما سبق أن أشرنا •

وكان العرب فى جاهليتهم أميين لا يعرفون القــراءة والكتابة لاعتمادهم على المشافهة والرواية فى النقل وكان للشعر رواته الذين يحفظونه ويروونه ، ولكن هذا لا يعنى عدم وجود من يعرف القــراءة والكتابة وان كان عدد هؤلاء قليلا ويشير ابن خلدون الى أن أهل الحجاز تعلموا الكتابة من أهل الحيرة وهؤلاء تعلموها من الحميريين ويقــول الجاحظ فى البيان والتبيين أن العرب كانوا أميين لا يكتبون ولذا لم يكن لهم كتب موروثة فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم • ويروى لنا البلاذرى فى « فتوح البلدان » أن الاسلام دخل وفى قريش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب : « عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح وطلحة بن الزبير ويزيد بن أبى سفيان وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وحاطب بن عمرو وأبو سامة بن عبد الأسد المخزومى وأبان بن سعيد بن العاص بن أمية وأخوه خالد

ابن سعيد وعبد الله بن سعيد بن أبى سرح العامرى وخويطب بن عبد العزى العامرى وأبو سفيان بن حرب ومعاوية بن أبى سفيان وجهيم بن الصلت والعلاء بن الخضرمى » .

ويروى أيضا أن قليلا من نساء العرب كن يعرفن الكتابة منهن « حفصة بنت عمر احدى زوجات النبى » صلى الله عليه وسلم .. وكانت عائشة أم المؤمنين تقرأ ولا تكتب وكذلك أم سلمة . وهما أيضا من زوجات النبى .

ويروى البلاذرى أن بعض اليهود كان يعلم الصبيان بالمدينة الكتابة العربية فى الزمن الأول قبل الاسلام . وهكذا كانت معرفة الكتابة والقراءة مقصورة على عدد قليل جدا من العرب قبل الاسلام وكان ظهور الدين الاسلامى مرحلة جديدة للعرب قبل الاسلام ومعها بدأت صفحة جديدة لتربية جديدة قوامها الاسلام الذى أكد منذ البداية على العلم والمعرفة كقيمة رئيسية فى هذه التربية الجديدة وهو ما سنتناوله فى السطور التالية .

مكانة العلم فى الاسلام :

لقد ضرب الاسلام مثلا فريدا يستحق الاعجاب على اهتمامه بقيمة العلم والعلماء . والقرآن الكريم والسنة الشريفة بل وتاريخ الاسلام نفسه حافل بالأمثلة التى لا يعيها الحصر . فقد كانت أول آية نزلت على الرسول « اقرأ باسم ربك » والاسلام لا يسوى بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون وفضل الله الذين أوتوا العلم درجات وجعل العلماء ورثة الأنبياء . وقد فضل الرسول صلى الله عليه وسلم مجلس العلم على مجلس الذكر وساوى مداد العلماء بدماء الشهداء وورد عنه قوله عليه الصلاة والسلام « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله به طريقا الى الجنة » . وأمرنا ديننا بأن نحرص على طلب العلم وأن نتحمل كل مشقة فى سبيله وقد ورد فى تراثنا طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة « واطلبوا العلم ولو فى الصين » . والمقصود هنا

أن نستهون الصعاب فى سبيله . وقال عليه الصلاة والسلام « من أراد الدنيا فعيه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معا فعليه بالعلم » . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ». وقوله صلى الله عليه وسلم : « ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك » .

وورد عن أبى ذر الغفارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة ، فقيل يا رسول الله ومن قراءة القرآن ؟ ، فقال النبى : وهل تنفع قراءة القرآن الا بعلم » .

ويقول الغزالى فى احياء علوم الدين ان العلم فضيلة فى ذاته على الاطلاق « فأصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو العلم فهو اذن أفضل الأعمال » .

ومما يروى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال لكميل النخفى : « يا كميل ان هذه القلوب أوعية فاحفظ عنى ما أقول : الناس ثلاثة عالم ربانى ومتعلم عنده سبيل نجاة وهمج رعاع اتباع كل ناعق مع كل ريح يميلون لم يستضيئوا بالعلم ولم يركنوا الى ركن وثيق . يا كميل العلم خير من المال . العلم يحرسك وأنت تحرس المال . والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق . يا كميل محبة العلم دين يدان به تكسب المرء الطاعة فى حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته . ومنفعة المال تزول بزواله والعلم حاكم والمال محكوم عليه . يا كميل مات خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا العلم وعلموه النـاس » .

وروى عن مصعب بن الزبير قوله : « تعلم العلم فان لم يكن لك جمال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا » •

وروى عن سلمان الفارسى أنه كتب الى أبى الدرداء : « ان العلم كالينابيع يغشى الناس فيختلجه هذا وهذا فينفع الله به غير واحد ، وان حكمة لا يتكلم بها كجسد لا روح فيه وان علما لا يخرج ككنز لاينفق، وانما مثل العلم كمثل رجل عمل سراجا فى طريق مظلم يستضىء به من مر به وكل يدعو الى الخير » •

وقد ورد عن هارون الرشيد أنه قبل الجزية كتبا كما أن المأمون دفع وزن ما ترجم ذهبا وهذا دليل واضح على اهتمام خلفاء المسلمين بالعلم وتقديرهم لأهميته وما هذه الا أمثلة معدودة من أمثلة أخرى لا حصر لها أردنا بها أن نؤكد حرص الاسلام على العلم وتقديره لقيمته وقيمة المشتغلين به •

ومن مظاهر اهتمام المسلمين بالعلم الارتحال فى طلبه ، فقد كان العلماء ينتقلون من مكان لآخر استزادة فى العلم ونشرا له •• وسنفصل الكلام عن هذه النقطة عند كلامنا عن الرحلة فى طلب العلم •

وكما يجب على المتعلم أن يلح فى طلب العلم يجب على صاحب العلم ألا يخفيه عن الناس يقول تبارك وتعالى : « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » •

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « من علم علما فكتمه ألجمه الله يوم القيامة [illegible] من نار » • وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تمنعوا العلم أهله [illegible]ن فى ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم » • كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا الى تحبيب الناس فى التعليم فقال : « علموا ويسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا » •

فضل المسـلمين على العـلم :

ان فضل المسلمين على العلم لا يحصى فقد ألف العلماء العـرب والمسلمون فى العلوم المختلفة ومنها النبات والحيوان والكيمياء والصيدلة والطب والفلك والموسيقى وفى علوم البحار والهندسة وحساب المثلثات وغيرها • كما لا يجحد فضل ابن سينا والبيرونى والكندى والغافقى والفارابى والبغدادى والقزوينى والجاحظ والخازن وجابر بن حيـان وابن البيطار وابن ماجد ملاح فاسكودى جاما والرازى والمقدسى والبتانى وموسى بن شاكر وغيرهم •

وظلت مؤلفات العرب والمسلمين فى مختلف العلوم والمعرفة المراجع التى تدرس فى جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر واعترف عدد كبير من مؤرخى العلم بفضل المسلمين والعرب على العالم والانسانية وكان لهم باع كبير فى كل الميادين من أمثلة ذلك أنهم• تكلموا عن التطـور من وجهة النظر الاسلامية قبل داروين فى القرن ١٩ ، وقد كتب فى التطور ابن مسكويه واخوان الصفا وتحدث المسلمون من أمثـال ابن خلدون عن أثر البيئة على الأحياء فهو بذلك سـابق للامارك وداروين وتحدث علماء العرب عن الجاذبية قبل نيوتن فابن الخازن كتب عنها قبل نيوتن بمئات السنين •

وابن النفيس شرح الدورة الدموية الصغرى قبل هارفى بقرون • والحسن بن الهيثم كتب عن الضوء وانكساره وقوانينه وسرعته قبل علماء أوربا • كذلك أضاف القبانى والفرغانى والكندى والصوفى كثيرا من المعارف الفلكية والرياضية •

وابتدع الخوارزمى استعمال الأرقام فى الحساب واختار سلسلته من الأرقام الأولى ما يعرف بالأرقام الهندية ١ ، ٢ ، ٣ ،والثانية ما يعرف بالأرقام (الغبارية) العربية 1-2-3 وتستعمل الأولى فى البلاد العربية والثانية فى بلاد المغرب العربى وأوربا •

كذلك أنشأ الخوارزمى من الحساب والجبر علما بعد أن كانا مجرد معلومات مشتتة . والعرب أول من أطلقوا اسم الجبر على هذا العلم كما استعملوا الصفر والاحصاء العشرى . وكان الخوارزمى رياضى بلاط المأمون الذى كلفه بأن يؤلف رسالة فى الجبر تكون صالحة لاستعمال الجمهور . ومن هذه الرسالة استطاع الغرب أن يطلع على هذا العلم بعد زمن طويل .

وفى الطب والصيدلة قضى الاسلام على الكهانة وحارب التنجيم والشعوذة وقاوم استخدام السحر فى معالجة الأمراض واتجه المسلمون بالطب من الخرافة والشعوذة الى الطب العلمى التجريبى واستعانوا بالآلات فى طب الجراحة وجعلوا لهذه الآلات قسما مستقلا من أقسام الطب كما أنشأوا المستشفيات والبيمارستانات . كما وكان لهم فى وضع نظام الترخيص الشرعى لممارسة الطب والصيدلة وهم بذلك أول من ارتقى بالطب الى المهنة القائمة على الاحترام والاحتراف معا . هـذا فى الوقت الذى حرمت فيه الكنيسة فى أوربا طب علاج الأمراض لأن المرض عقوبة من الله .

ومن أعلام الطب التجريبى فى الاسلام الشيخ الرئيس ابن سينا أعظم من كتب فى الطب فى العصر الوسيط وقد ولد فى "ميشن ببخارى عام ٩٨٠ م وتوفى فى همذان عام ١٠٣٧ م ، وهو أعظم علماء الاسـلام فهو أول من جعل للتجربة مكانا عظيما فى دراساته وطبه . ومن أشهر كتبه « القانون » فى قواعد الطب بأجزائه الخمسة واهتم به علمـاء أوربا وترجم الى اللاتينية وطبع فى أوربا حوالى خمس عشرة مرة ، وظل المرجع الذى يدرس فى الطب فى جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر أى طيلة ستة قرون كما ظل يستخدم حتى القرن التاسع عشر فى كلية طب مونبليه التى أنشأها العرب قبل ذلك بألف سنة وله أيضا كتاب « الأدوية القلبية » وعدد من القصائد فى الطب .

وعلى بن العباس الذى عاش فى أواخر القرن العاشر طبيب آخر نال شهرة كبيرة وصاحب مؤلف كامل فى الطب سماه « الملكى » ويشمل

كتابه عشرة أجزاء فى الطب النظرى وعشرة أجزاء فى الطب العملى وأظهر فى كتابه أخطاء كثيرة لبقراط وجالينوس وأريبا سيوس • وترجم هذا الكتاب الى اللاتينية عام ١١٢٧ وطبع فى ليون عام ١٥٢٣ م •

وكان أبو القاسم خلف بن عباس القرطبى المعروف أيضا بالزهراوى المتوفى عام ١١٠٧ أعظم جراحى المسلمين وطبع كتابه فى الجراحة باللاتينية عام ١٤٩٧م • وهو كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » وهو أشهر كتاب فى الجراحة فى أوربا زهاء خمسة قرون •

ومنهم ابن زهر الاشبيلى الطبيب اللامع فى القرن الثانى عشر وأستاذ ابن رشد •

وابن رشد نفسه حجبت شهرته شارحا لأرسطو مكانته العلمية كطبيب • ولابن رشد شرح على القانون لابن سينا وعلى مؤلفات جالينوس وله أيضا رسالة فى الترياق وكتابه فى السموم والحميات •

ومن الكتب الهامة التى شاعت فى العالم اللاتينى من أطباء القرون الوسطى كتاب « زاد المسافر » من تأليف ابن الجزار المتوفى عام ١٠٠٩م. وقد ترجم الى اللاتينية وفيه شروح للامراض الباطنية وكتاب ابن زهرة « التيسير فى المداواة والتدبير » وهو مؤلف فى فن الاستشفاء • وكتاب « التذكرة » أو تذكرة الكحالين لعلى بن عيسى أعظم أطباء العيون فى القرون الوسطى وقد ولد فى أوائل القرن العاشر ببغداد وظل كتابه يدرس فى أوربا حتى القرن الثامن عشر ، وكتاب الحاوى أضخم مؤلف طبى لمؤلفه أبو بكر الرازى الذى كان حجة الطب فى أوربا وأعظم أطباء القرون الوسطى لدرجة سمى معها جالينوس العرب ، وقد ترجم الكتاب الى اللاتينية وكان مرجعا لعلماء أوربا والمدارس والجامعات حتى منتصف القرن الرابع عشر • وهو يعتبر مؤسس الكيمياء الحديثة فى الشرق والغرب •

وقد شغل العرب بالطب منذ القرون الأولى للهجرة • ولخص ابن أبى أصيبعة فى كتابه « طبقات الأطباء » تراجم أكثر من ٤٠٠ طبيب ومؤلفاتهم •

وعرف عن المسلمين أنهم أول من أنشأ فن الصيدلة وتحضير الأقربازين أى الأدوية ، ويقال ان ابن البيطار اكتشف ما يقرب من ألف وأربعمائة دواء من النباتات كما عرف المسلمون الرقابة على الصيادلة والصيدليات وكانوا أول من أسس مدارس الصيدلة ووضع المؤلفات فيها • كما أنهم عرفوا التخدير فى العمليات الجراحية •

وفى الفيزياء والكيمياء يعتبر العرب مؤسسين حقيقيين للعلوم الطبيعية الا أنه مما يؤسف له أنه ضاع كثير من المؤلفات العربية الهامة فى علم الفيزياء ولا تعرف بعضها فى الوقت الحاضر الا بعناوينها فقط • بيد أن ما وصل الينا بالفعل من هذه المؤلفات العربية يشيد بطول باع العرب فى هذا المضمار •• وليس من المبالغة فى القول بأنه لا وجود للكيمياء كعلم قبل العرب •

وكان علم الفلك أول علم جذب اهتمام علماء المسلمين ، وقد عنى به كثير منهم فى المشرق والأندلس وكذلك كثير من السلاطين السلجوقيين الجنكيزيين والتيموريين ، وكان لجميع المدن الكبرى فى الامبراطورية الاسلامية مراصدها ومن أشهرها مراصد بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة وسمرقند • ونالت مدارس الفلك ببغداد والقاهره والأندلس بصفة خاصة شهرة كبيرة • ومع أن العلماء المسلمين اتخذوا من مؤلفات علماء اليونان نقطة لانطلاق دراستهم فان هؤلاء العلماء لم يتقيدوا بالقواعد المقررة فى هذه المؤلفات فقد انتقدوا بشدة نظريات بطليموس على سبيل المثال • وكان لهذا التحرر الفكرى للعلماء المسلمين أثره الكبير فى تحقيق اكتشافات علمية هامة فى ميدان الفلك •

ومن أشهر الفلكيين فى القاهرة ابن يونس عالم أوائل القرن الحادى عشر مخترع المزولة وابن الهيثم الذى ألف أكثر من ٨٠ كتابا من أهمها

مجموعة الأرصاد الفلكية وتفسير المجسطى وتفسير آخر للتعاريف فى مبادىء اقليدس ورسالة البصريات • وقد كان أول من أوصى بانشاء سد أسوان لرفع مستوى النيل •

وكان للعرب فضل كبير فى الجغرافيا ويرتبط فضلهم بالجغرافيا بفضلهم فى علم الفلك ، واعل رسالة النضر البصرى التى ظهرت عام ٧٤٠ م أقدم كتاب عربى فى الجغرافيا ثم يأتى وجيز الاصطخرى الذى نشر فى منتصف القرن التاسع •

وكان الولع بالأسفار والرحلات من أبرز صفات العرب المسلمين وكتبوا بها أنصع الصفحات فى تاريخ الحضارة البشرية ، وكان للملاحة العربية دور هام ويكفى أن نشير الى أنه مع التفوق الكبير الذى أحرزته أسبانيا والبرتغال فى القرنين ١٥ و١٦ كانت السيادة البحرية للعرب • بل ان الملاح الذى مكن فاسكو دى جاما البرتغالى من الوصول الى الشرق كان الملاح العربى أحمد بن ماجد •

وكانت مؤلفات المسعودى وابن‌حوقل والاصطخرى عامرة بالمعلومات القيمة عن شتى الأماكن والحياة والطباع لدى سكان البقاع البعيدة •

فالمسعودى الذى ولد ببغداد فى أواخر القرن التاسع وتوفى فى القاهرة عام ٩٥٦ مؤلف مروج الذهب قضى ما يقرب من ربع قرن من حياته فى الأسفار فى شتى أنحاء الخلافة فزار الهند وسيلان ومدغشقر وزنجبار • وشرح فى مروج الذهب وصف الممالك والدول والبلدان والجبال والوديان والأنهار وشعوب العرب والعجم •

والادريسى الذى ولد فى سبته بالاندلس عام ١٠٩٩ م ودرس فى قرطبة ثم استقر به المطاف ليعمل فى جزيرة صقلية فى بلاط ملكها روجر كان حلقة الوصل بين جغرافية المدرسة اللاتينية وجغرافية المدرسة الاسلامية •وكان الاستاذ الذى‌علم‌أوربا هذا العلم طيلة ثلاثة قرون • ولم تكن لأوربا خريطة للعالم الا ودرسها الادريسى ، ولم يقع الادريسى فى الأخطاء التى وقع فيها بطليموس ، فى كتابه‌المجسطى ومن المعروف أن

العرب صححوا ما فى هذا الكتاب من أخطاء وعملوا جداول فلكية مدققة. بل ان كتاب الادريسى يعتبر أكمل بحث جغرافى ورثته أوربا عن العرب وهو ما جاء على لسان دائرة المعارف الفرنسية .

وابن بطوطة أكثر رحالة المسلمين شهرة قام بعدة أسفار فى طول القارات وعرضها ، وقد ولد فى طنجة بالمغرب عام ١٣٠٤ وجاب شمال افريقيا ومصر وزار مكة وسوريا وفلسطين وزار آسيا الصغرى والقسطنطينية والهند مارا بنهر الفولجا فى روسيا وزار خوارزم وبخارى وأفغانستان والصين وسيلان والبنغال وكثيرا غيرها .

انظر الى أعظم الكشوف الجغرافية مثل كشوف كولمبوس لأمريكا أو فاسكودى جاما لرأس الرجاء الصالح والشرق الأقصى . ان هذين الكشفين العظيمين انما تما على أيدى البحارة العرب الذين قادوا هذه الرحلات وما كان ذلك ليتم بدون ارتقاء علوم الجغرافية والملاحة عند العرب . ومن المعروف أن المسلمين كشفوا منابع النيل قبل الافرنج .

وكان المسلمون حيث ينزلون يمهدون السبل ويعمرون المرافق ويقيمون الفنادق والرباطات ويرتبون سير القوافل كما كانت المدن الاسلامية أوساطا تجارية كبرى .

ويلمع ابن مسكويه وهو من أهم علماء الأخلاق فى الاسلام وله كتاب تهذيب الأخلاق ولا يعرف شىء كثير من حياته فمنها أنه كان خازنا لدى السلطان البويهى عضد الدولة وأنه مات عام ١٠٣٠ م ، وفى كتابه « تجارب الأمم » يبحث ابن مسكويه فى تاريخ قدماء الفرس وفى تاريخ العرب حتى عصره .

وفى التاريخ هناك أبو جعفر الطبرى (٨٣٩ — ٩٢٢ م) صاحب التاريخ المشهور وابن الاثير المولود عام ١١٦٠ م الذى واصل تاريخ الطبرى ووضع خلاصةواضحة لتاريخه وأضاف اليه أخبارا مستقاة من

منابع أخرى • وامتد بالأحداث حتى ١٢٣٠ م كما أنه حوى أخبارا كثيرة عن الجزء الغربى من الدولة الاسلامية •

وأبو الفدا الأيوبى أمير حماه وكتابه « المختصر فى أخبار البشر » وطبع فى ليبزج عام ١٧٥٤ م •

والمقرى الذى هو أهم مؤرخى الأندلس الاسلامية وكتابه « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » نشر فى ليدن عام ١٨٥٥ م •

ومنهم أيضا حاجى خليفة مؤرخ الحروب البحرية التركية ومؤلف الكتاب القيم المعروف « كشف الظنون » •

وفى السياسة والاجتماع نجد فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) الكندى من مشاهير رجال الفلسفة الاسلامية وقد عنى بالسياسة على الطريقة الاغريقية كعلم مستقل يشكل قسما من الفلسفة •

وأبو نصر الفارابى أحد كبار الفلاسفة المسلمين يؤلف « المدينة الفاضلة » عبر فيها عن أهم آرائه وهى :

١ — أن الناس خلقوا ليعيشوا فى جماعة •

٢ — غرض الدولة فى نظره أخلاقى بحت هو أن تضمن للمواطنين حكومة كاملة فى الدنيا وسعادة أبدية بعد الموت •

٣ — يجب أن يقوم بادارة المدينة الفاضلة أو المثالية رئيس على درجة عالية من الذكاء والفهم والطلاقة • وأن يكون محبا للتعليم والاستفادة منه ، محبا للصدق ، عادلا قوى للعزيمة •

٤ — يفضل النظام الملكى فى الحكم اذا كان الملك جامعا للشروط السابقة ، وان كان ينتهى مثل أفلاطون الى حكومة من الحكماء أو الجمهورية الارستقراطية •

وابن ظفر من عرب صقلية فى القرن الـ ١٢ م ويقرن كتابه « سلوان المطاع » بكتاب « الأمير » لمكيافيللى وفيه الكياسة والمكر •

والماوردى (٩٧٢ — ١٠٥٨ م) كان فقيها وقاضيا كبيرا فى أستوا القريبة من نيسابور وكتابه « الأحكام السلطانية » يتناول فيه نظم الدولة الاسلامية السياسية والاجتماعية والقضائية ويقول فيه : « ان الامامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » وقد ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية •

من هذا العرض السريع المركز يبدو بوضوح فضل العرب المسلمين على مختلف العلوم • والعجيب أن رغم هذا الوضوح الزائد لموقف الاسلام من العلم وتلك النهضة العلمية التى شهدها ، نجد من بين المتعصبين ضد الاسلام من يتهمونه بمحاربة العلم ويرجعون تخلف المسلمين الى هذا السبب • وهذا ادعاء باطل لا يستند الى أساس ، واتهام باطل لا يحتاج تفنيده الى جهد كبير ويكفى أن اصحابه معروفون بتعصبهم •

ان تاريخ الاسلام بالاضافة الى أنه شاهد عيان على تأكيد أهمية العلم وقيمته لا يعرف مثلا واحدا على اضطهاد العلماء بالصورة التى نجد لها أمثلة كثيرة فى أوربا •

منها على سبيل المثال ما حدث لجاليليو الذى حكم عليه بالقتل لأنه قال بدوران الأرض حول الشمس ولم يسلم من اضطهاد الكنيسة • ومع أنه تراجع فى الظاهر عن موقفه حتى يرضى الكنيسة فانه عاد ونظر الى الأرض وقال « ومع ذلك فانها تدور » •

ومن أمثلة المتعصبين الذين ادعو هذا الزعم الباطل ضد الاسلام رينان ورغم ذلك فقد اعترف بقيمة العلماء المسلمين فقال :

« أجل وجد فى البلدان الإسلامية منذ سنة ٧٧٥ م تقريبا حتى نحو أواسط القرن ١٣ أى خلال خمسمائة سنة علماء ومفكرون ممتازون •• » •

بل ان من الغريب أن رينان نفسه وهو المعروف بتعصبه ضد العرب عبر عن حسرته ان لم يكن مسلما وفى ذلك يقول أيضا :

« اننى لم أدخل مسجدا الا وخررت خاشعا وشعرت بشىء من الحسرة على اننى لم أكن مسلما »[١] .

ونختتم كلامنا عن هذه النقطة باقتباس مما يورده محمد اقبال فى كتابه « تجديد الفكر الدينى فى الاسلام » اذ يقول[٢] :

« لقد كانت أوربا بطيئة نوعا ما فى ادراك الأصل الاسلامى لمنهجها العلمى ، وأخيرا جاء الاعتراف بهذه الحقيقة . وسأتلو عليكم فقرة أو فقرتين من كتاب « بناء الانسانية » Making of Humanity الذى ألفه بريفولت (Briffault) :

يقول بريفولت « ان روجر بيكون درس اللغة العربية والعلوم العربية فى مدرسة اكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس وليس لروجر بيكون ولالسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى . فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى ، هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوروبية . وقد كان منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس ، فى لهف ، على تحصيله فى ربوع أوربا » .

---

(١) من مجالى الاسلام تأليف حيدر بامات ، ترجمة عادل زعيتر — دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٧٧ .

(٢) محمد اقبال : تجديد الفكر الدينى فى الاسلام : ترجمة عباس محمود ص ١٤٩ .

« لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج • ان العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا لم تنهض فى عنفوانها الا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام •

تأثير الفكر الاسلامى فى الغرب :

ان التيار الرئيسى لتأثير الفكر الاسلامى فى الغرب كان عن طريق الكتب العربية فى العلوم الطبيعية والفلسفية وغيرها التى ترجمت الى اللاتينية وغيرها • فترجمت كتب الرازى وابن سينا والغزالى والفارابى وغيرهم ، وعن طريق ترجمة كتاب الخوارزمى دخلت الأرقام الهندية — العربية الى بلاد الغرب •

وقد أحدثت هذه التراجم كلها فى أوربا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر ذلك أن تدفق النصوص العلمية من بلاد الاسلام واليونان كان له أعمق الأثر فى استثارة العلماء الذين بدءوا يستيقظون من سباتهم ، وكان لابد أن تحدث تطورات جديدة فى النحو وفقه اللغة ، ووسعت نطاق المناهج الدراسية ، وأسهمت بنصيب فى نشأة الجامعات ونمائها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر • وكان عجز المترجمين عن أن يجدوا مفردات لاتينية تؤدى المعانى التى يريدون نقلها الى تلك اللغة هو الذى أدى الى دخول كثير من الألفاظ العربية فى اللغات الأوربية ولم يكن هذا أكثر من حادث عارض فى أعمال الترجمه • ولكن أهم من هذا أن الجبر وعلامة الصفر والنظام العشرى فى الحساب قد دخلت كلها فى بلاد الغرب المسيحية بفضل هذه التراجم ، وأن الطب من ناحيته النظرية والعلمية تقدم تقدما عظيما بفضل ما قام به العلماء المترجمون اليونان واللاتين والعرب واليهود وأن ما كان لعلم الهيئة اليونانى والعربى من شأن خطير قد أحدث وكان لابد أن يحدث ، توسعا فى علوم الدين ، وفى تعديل أفكار العلماء عن الآلة وكان ذلك أرهاصا بتغيير فى هذه الناحية أوسع مدى جاء بعد عهد كوبرنيق • وان فى اشارات روجر بيكون

المتكررة لابن رشد ، وابن سينا ، والفارابى لدليلا على ما كان لهـؤلاء العلماء من تأثير وحافز جديد وفى ذلك يقول روجر بيكون نفسه : « لقد جاءت الينا الفلسفة من العرب » ، ومعروف أن الذى دعا توما الأكوينى لتأليف كتابه الجامع فى اللاهوت هو أن يحول دون تسرب التفاسير العربية لأرسطو الى علوم الدين المسيحية . وهكذا رد الاسلام الى أوربا ما أخذه عن اليونان بطريق بلاد الشام[1] .

كما قدم لها زادا علميا وفكريا اعتمدت عليه فى اندفاعتها القوية ابان عصر النهضة وما بعده .

الرحلة فى طلب العلم :

حث الاسلام على طلب العلم وألا يدخر الانسان جهدا فى سبيل تحصيله ولو كان فى الصين . واعتبر السفر فى طلب العلم جهادا فى سبيل الله .. ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « من سافر فى طلب العلم كان مجاهدا فى سبيل الله ، ومن مات وهو مسافر يطلب العلم كان شهيدا فالعلم ضالة المسلم المؤمن ينشدها حيث كانت » . ومن الأقوال المأثورة : سافر ففى الاسفار خمس فوائد : تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد .

وهكذا كانت الرحلة فى طلب العلم ملمحا متميزا للتربية الاسلامية منذ عصورها الأولى .. وكان طلاب العلم يتكبدون الصعاب فى الارتحال والأسفار ومع ذلك فانهم كانوا يستهينون بكل صعب فى سبيل طلب العلم من مناهله ودراسته على أيدى المشاهير من رجاله .

وقد أفرد ابن خلدون فصلا فى أن الرحلة فى طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال فى التعليم . وهو يشير الى أن الرحلة لابد منها فى طلب العلم واكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال.

---

(١) انظر : ديورانت — قصة الحضارة جـ ١٧ ، ص ٢١—٢٢ .

ويفسر ذلك بأن الرحلة فى طلب العلم تمكن الطالب من لقاء شـــيوخ كثيرين ولكل شيخ من مشاهير الشيوخ فى البلاد المختلفة طريقة خاصة فى البحث والدراسة والتعليم ولهذا فان مخالطة الطالب لهم واحدا بعد الآخر تفيده فى معرفة طريقة الدراسة التى يتبعها كل شيخ فى تدريسه وما يتصل بها من التميز بين المفاهيم والمصطلحات العلمية .

وهكذا يحصل الطالب على ملكة علمية أقوى مما لو درس على يـد شيخ واحد . ويقول ابن خلدون :

« ان البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارة عملا وتعليما والقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة الا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسـوخا . فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون الملكات ورسوخها .. فالرحلة لابد منها فى طلب العـلم لاكتساب الفـوائد والكمال بلقاء المشـايخ ومباشرة الرجال » .

« وكان الطلاب المغاربة أول ما يمرون بمصر فيأخذون عن علمائها أمثال أشهب وابن القاسم والامام الشافعى ثم يؤمون الحجاز لأداء فريضة الحج والسماع من علماء المدينة الكثيرين أمثال : مالك بن أنس وسفيان الثورى وشيوخها وتلاميذهما . فلذلك مال أهل المغرب الى المذهب المالكى واختصوا به[(١)] .

ولم تكن الرحلة فى طلب العلم مقصورة على أهل المغـرب وانما كانت ظاهرة عامة فى مشارق العالم الاسلامى ومغاربه يقول نيكلسون Nicholson - فى كتابه : A literory History of the Arabs

« وكان جلة الباحثين وطلاب العلم يرحلون فى حماسة ظاهرة عبر القارات الثلاثة ثم يعودون الى بلادهم كما يعود النحل محملا بالعسل

(١) ابراهيم العبيدى التوزوى : تاريخ التربية بتونس الجزء الاول — الشركة التونسية للتوزيع ، ص ١٤٥ .

الشهى ، ثم يجلس هؤلاء الباحثون فى بلادهم ليروا شغف الجماهير التى كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم فينالوا من علومهم ومعارفهم زادا وخيرا عميما كما كان هؤلاء الباحثون يعكفون أحيانا على تدوين ما جمعوا وما سمعوا ثم يخرجون للناس كتبا هى بدوائر المعارف أشبه مع نظام رائع وبلاغة عذبة . وهذه الكتب هى المصادر الأولى للعلوم الحديثة بأوسع ما تحتله كلمة العلوم من معنى .. وهى مرجع العلماء والباحثين ومنها يستمدون فنونا من الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقدون »[١] .

« وكانت قيمة الطالب فى نظر الناس تتناسب مع ما قام به من رحلات لطلب العلم ومع عدد المدرسين الذين تلقى عنهم . وكل هذه الظروف شجعت الطالب أو قل دفعته ليتلقى أفانين من العلم فى أى بقاع من بقاع الأرض . ولم تكن هذه الحماسة مقصورة على طلاب العلوم الدينية ولكنها شملت أيضا طلاب الدراسات اللغوية والفلسفية والطب وغيرها »[٢]

وهكذا كان الطلاب يرتحلون فى طلب العلم على يد مشاهير العلماء حيثما كانوا . وكانوا يتكبدون فى سبيل ذلك المشاق والصعاب وأحيانا كان العلماء يسافرون المسافات الطويلة حاملين كتبهم على ظهورهم أحيانا ، ويروى أن التبريزى العالم اللغوى المعروف الذى عمل فترة من حياته استاذا فى المدرسة النظامية ببغداد حمل على ظهره أيام شبابه معجما كبيرا من تبريز الى بلاد الشام لكى يدرسه عند شاعر معرة النعمان المشهور أبى العلاء المعرى . ويقال أن هذا المعجم كان يبدو فى مظهره بعد موت التبريزى مبللا بالعرق من طول ما حمله التبريزى على ظهره[٣] .

---

(١) Nicholson A literory History of the Arabs p. 281.
مقتبسة فى : تاريخ التربية الاسلامية تأليف احمد شلبى ص ٣٢٠ .

(٢) أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ٣٢٠ .

(٣) انظر : مع المخطوطات العربية : ترجمة د. محمد منير مرسى ، دار النهضة العربية ١٩٦٩ ، ص ٢٣ .

كما يروى أن أبا القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى الذى ولد بطبرية ٢٦٠ هـ اختلف الى كثير من البلاد ثلاثا وثلاثين سنة سمع فيها من ألف شيخ . كما أثر عن القاضى عبد الله محمد بن أحمـــد مولى عبد الرحمن الناصر الأندلسى أنه رحل من قرطبة وتنقل ببلاد الحجاز ومصر والشام وأخذ العلم على مائتين وثلاثين شيخا ثم عاد الى الأندلس سنة ٤٥ هـ[١] .

وكان طلاب العلم فى المغرب الاسلامى كما أشرنا يرحلون فى طلب العلم مارين بمصر فيتلقون العلم على يد علمائها ومنهم الشافعى ثم يرحلون الى الحجاز لأداء الحج والتتلمذ على يد علماء المدينة من أمثال مالك بن أنس . وكثير من علماء شمال افريقيا رحلوا فى طلب العـــلم وعانوا فى سبيل تحصيله منهم أسد بن الفرات المولود ١٤٢ هـ وارتحل من القيروان الى المشرق ودرس على يد علمائه ، ومنهم الامام أبو سعيد سحنون بن حبيب التنوخى الذى ولد بالقيروان عام ١٦٠ هـ ورحل الى مصر والحجاز والشام وتعلم الفقه على يد علماء هذه الأمصار . ومنهم محمد بن سحنون التنوخى القيروانى المولود سنة ٢٠٢ هـ وأول من كتب فى التربية والتعليم من العرب والمسلمين، وكتابه المعروف «آداب المعلمين»، وقد رحل فى طلب العلم الى الشرق . ومنهم أيضا أبو الحسن القابسى الذى ولد فى القيروان عام ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) صاحب الكتاب القيم الذى يعرفه دارسو التربية الاسلامية « الرسالة المفصلة لأحـــوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين » ، وقد ارتحل الى الشرق واستمع الى علمائه فى مصر والحجاز ومنهم ابن القزاز التميمى شيخ اللغـــة والأدب فى افريقيا ومؤلف أكبر معجم لغـــوى عرف فى عصره هـــو « الجامع فى اللغة » وغيرهم كثيرون . بل وقد حث العلماء أنفسهم على السفر لما فيه من فوائد ليس أقلها طلب العلم واكتسابه .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام — ط ٨ النهضة المصرية ١٩٧٣ ، جـ ٣ ، ص ٢٣٩ .

وقد درجت الدول العربية والاسلامية فى العصور الحديثة على ارسال طلابها فى طلب العلم والدراسة فى مختلف المعاهد والجامعات بدول العالم المختلفة • ومع أننا بهذا نحيى سنة قديمة سنها سلفنا الصالح فانه يبدو فى بعض الأحيان وجود تخوف من نتائج ارسال البعثات العلمية الدراسية الى الخارج لا سيما الدول غير الاسلامية التى تختلف فى ثقافتها ونظامها الاجتماعى • وقد تردد هذا التخوف فى توصية للمؤتمر العالمى الأول للتعليم الاسلامى الذى عقد فى مكة المكرمة سنة ١٩٧٧ م فأشارت التوصية الى قصر ارسال هذه البعثات على التخصصات النادرة بعد مرحلة الليسانس نظرا لما يتعرض له الشباب فى الخارج من فتنة جارفة فى عقيدته • وهذه التوصية تستحق فى الواقع وقفة لعدة أمور منها :

١ — يجب ألا يفهم من هذه التوصية أنها دعوى ضد الدراسة فى الخارج أو أنها دعوى ضد الانفتاح الفكرى والثقافى للعالم الاسلامى على تجارب وعلوم المجتمعات الأخرى • لأن العالم الاسلامى كما هو معروف بلغ قمة ازدهاره بانفتاحه على الثقافات الأخرى •

٢ — أن الرحلة فى طلب العلم كما أشرنا كانت دائما سمة مميزة لسلفنا الصالح من علماء المسلمين • قد يقال بأن سلفنا كان يتلقى العلم على أيدى علماء المسلمين • وهذا صحيح الا أن تراثنا الاسلامى يعتبر العلم ضالة المسلم المؤمن ينشدها حيث كانت ولو فى الصين • ولم ينكر ديننا تلقى العلم وأخذه على يد غير المسلمين من العلماء • فالنبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يعلم الكفار واليهود أبناء المسلمين وكان يفك اسار من يعلم منهم عشرة من أبناء المسلمين كما هو معروف •

٣ — أن العلم لا وطن له وحيثما يزدهر نوع من العلوم التى يحتاج اليها المسلمون لتضيف الى قوتهم فانه ينبغى أن نحرص على تحصيلها واذا كان نبينا الكريم قد علمنا بأن من تعلم لغة قوم أمن شرهم فان تحصيل علومهم ومعارفهم هى من باب أولى، اذا كان فيها ما يخدم

مصالح المسلمين فى اطار الاسلام الصحيح • قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها هو أحق بها » •

٤ — أن التخوف من فتنة طلاب البعثات الدراسية فى البلاد الخارجية لا تكون بالحد من البعثات الدراسية أو فرض القيود عليها وانما تكون بوضع الضمانات التى تكفل تحقيق الأهداف التى ننشدها منها • وفى مقدمة هذه الضمانات حسن اختيار العناصر الصالحة من الطلاب وتوفير الرعاية المالية والاجتماعية لهم فى أثناء دراستهم وبعد عودتهم • وهو ما أشارت اليه التوصيات نفسها فيما بعد ، وفى هذا توجيه صحيح لطلاب بعثاتنا الدراسية فى الخارج •

وقد عرضنا لتعليقنا على توصيات المؤتمر العالمى الأول للتعليم الاسلامى فى مكان لاحق من هذا الكتاب •

التعليم الاسلامى بين الأصالة والتجديد :

ربما كان من مظاهر سعد طالع الأمة الاسلامية أنها بدأت تستعيد مصادر قوتها وأخذت تتبوأ مكانها اللائق بين الدول • واذا كان للتاريخ دوره كما يقال أحيانا فان كل الدلائل تشير الى أن السنوات القادمة ستشهد نموا مطردا متلاحقا لهذه الأمة نحو نجم سعدها بعد أن أثبتت قدرتها على الحياة حتى فى أشد العصور ظلاما كما أثبتت أصالتها واستطاعت أن تتغلب على كل محاولات التغريب والتشكيك فى مقوماتها وقدرتها وانجازاتها •

ومع بشائر هذه النهضة المباركة كان من الطبيعى أن تتجه الأنظار الى البحث عن المقدمات الأساسية للنهوض بالعالم الاسلامى وفى مقدمتها التعليم باعتباره احدى الدعائم الرئيسية لبناء صرح الأمة الاسلامية على المستوى الفردى والاجتماعى • وكان انعقاد المؤتمر العالمى الأول للتعليم الاسلامى فى مكة فى أبريل ١٩٧٨ م تجسيدا للرغبة الملحة فى ضرورة تطوير التعليم الاسلامى واعطائه الصبغة الاسلامية

الحقيقية . وقد سبق لى أن علقت على توصيات هذا المؤتمر فى مكان آخر، وعند الكلام عن تطوير التربية الاسلامية أو التعليم الاسلامى تبرز دائما قضية الاصالة والتجديد .. فهناك احساس عام قد يكون مشوبا بالقلق أحيانا مفاده أن التعليم القائم الآن فى البلاد العربية الاسلامية اما أنه يفتقر الى أصالته الاسلامية الحقيقية كما هو الحال بالنسبة للتعليم الذى لا يخضع لاشراف السلطة الدينية أو أنه تعليم له جذوره الدينية الاسلامية الأصيلة لكنه محتاج الى تجديد الحياة فى أوصاله ليفى بمطالب المجتمع العربى الاسلامى ويتمشى مع التطور الراهن له.. وبين هذه الأصالة وهذا التجديد يكمن الاتزان المنشود لتطوير تعليمنا الاسلامى .

ولكن كيف نبدأ ؟ الواقع أن أى بداية لتأصيل التعليم الاسلامى أو تجديده ينبغى أن تضع فى اعتبارها الصورة الكاملة لتطور التعليم الاسلامى عبر العصور المختلفة حتى الفترة الراهنة .

وينبغى أن تكون الرؤية واضحة لهذه الصورة الكاملة بكل تفاصيلها. وهناك بالطبع كثير من الدروس المستفادة التى يمكن أن نخرج بها .. وبصرف النظر عن الدخول فى التفصيلات التى لا يتسع لها المقام هنا فانه يمكن القول بأن التعليم الاسلامى فى حركة تطوره عبر العصور المختلفة شهد عدة تطورات هامة سواء من حيث الشكل أو المضمون . فمن حيث الشكل اعتمد التعليم الاسلامى فى العصور الاسلامية الأولى على المسجد والكتاب والمكتبات كمراكز التعليم .. ثم ظهرت المدارس فيما بعد فى القرن الخامس الهجرى على يد نظام الملك الوزير السلجوقى الذى أنشأ المدرسة النظامية فى بغداد وغيرها من المدارس فى البصرة والموصل وبلخ وأصفهان . وازدهرت حركة انشاء المدارس فى العالم العربى الاسلامى فيما بعد حتى الفترة التى خضعت فيها البلاد العربية للحكم التركى العثمانى . وعندما أخذت حركة التعليم والمدارس فى الذبول . وكان ذلك نتيجة طبيعية للسياسة التركية فى الأقطار العربية

من ناحية وضعف الدولة العثمانية وتأخرها من ناحية أخرى • وعندما نصل بسرعة الى بداية الاستقلال والتحرر الوطنى فى البلاد العربية نجد الاهتمام بتطوير نظم التعليم والمدارس • وقد سار هذا التطوير فى اتجاهين رئيسيين : الاتجاه الأول تمثل فى محاولة اصلاح معاهد التعليم القائمة ومراكزه التلقيدية كالأزهر والقرويين والزيتونة والكتاتيب • وقد ارتبط بهذا الاتجاه عدة محاولات اصلاحية هامة منها محاولة الامام الشيخ محمد عبده والشيخ العروسى والطهطاوى وعلى مبارك •

أما الاتجاه الثانى فقد تمثل فى انشاء المدارس الحديثة على غرار المدارس الأوربية لا سيما الفرنسية منها • وقد ترتب على هذا الاتجاه وجود نظامين للتعليم أحدهما النظام الدينى التقليدى والثانى النظام الحديث المقتبس • وقد شكل هذا الوضع ثنائية تعليمية كان لها آثار بعيدة على الوحدة الفكرية والثقافية بل والاجتماعية للبلاد العربية•

وبصرف النظر عن اختلاف التربويين فى تقييم الآثار المترتبة على اقتباس المدارس الحديثة فانها قد استطاعت أن تقوم بدور هام فى سد احتياجات البلاد ومتطلباتها الثقافية فى نهضتها الحديثة • بل واستطاعت هذه المدارس أن تؤثر من حيث الشكل والمضمون على نظام المدارس التقليدية • وهناك نتيجة هامة أخرى ترتبت على وجود نظام المدارس الحديثة هى وجود سلطة من غير رجال الدين للاشراف على هذه المدارس •

وينبغى ألا يفهم من ذلك أن تعليمنا الاسلامى التقليدى قد فقد أصالته لما طرأ عليه من هذا التغير فى الشكل وانما يجب أن ينظر الى هذا التغيير على أنه مرحلة تطورية لم يكن لها أن تحدث ما لم تكن مناسبة لثقافتنا وقيمنا الاسلامية • وهناك كثير من الأمثلة على أن الأمة الاسلامية عبر تاريخها الطويل قد انفتحت على الثقافات الأخرى واقتبست منها ما يناسبها سواء فى نظم الحكم أو الادارة أو التجارة أو الزراعة

أو الصناعة أو الثقافة أو التعليم • ولم يشعر السابقون بغضاضة فى ذلك • فما بالنا لا نتعظ بهم • ان عالمية الرسالة الاسلامية تعنى فيما تعنى انفتاح المسلمين على العالم كله بخبراته وتجاربه عن وعى وبصيرة وادراك حقيقى دون ترك للحبل على الغارب بالطبع • أما التطور الذى حدث للتعليم الاسلامى وهو التطور فى المضمون فمن المعروف أن التعليم الاسلامى بدأ بالعلوم النقلية وهى علوم القرآن الكريم وما يتصل بها من تفسير وفقه وعبادات ثم أضيفت اليها علوم اللغة واللسان باعتبارها علوما مساعدة لفهم العلوم النقلية ومعرفتها • وفيما بعد دخلت العلوم العقلية من رياضيات وطب وكيمياء وفلك وفلسفة وغيرها • وقد تطورت هذه العلوم وتنوعت نتيجة للتقدم المعرفى الهائل الذى شهده العالم •

وينبغى ألا يكون لدينا أى تخوف من الاستفادة من هذه العلوم طالما أنها مصدر قوة للمسلمين ، وطالما أنها تعمق فهمنا للدين وتمكننا من السيطرة على الكون ومعرفة قوانينه التى تدل على عظمة الخالق عز وجل• كما تساعدنا هذه العلوم أيضا على تعمير الأرض واستغلال ثرواتها وخيراتها التى خلقها الله لنا • لقد جعل الله الانسان خليفته على الأرض وأمره بأن يسكنها ويعمرها ويستفيد من خيراتها ورزقها • وقد فضل الله الانسان على كثير من خلقه ووهبه العقل الذى يستطيع أن يتميز به عن سائر المخلوقات • وهو مطالب بأن يستخدم هذا العقل وأن يسخره فى أداء الرسالة التى كلف بها على الأرض • وهكذا نعتبر كل العلوم علوما اسلامية طالما أنها تزيد من فهمنا لديننا وتعمق ايماننا بربنا وتمكننا من الاستفادة من نعم الله التى خلقها لنا فى هذا الكون •

بيد أن أهم نقاط الضعف التى جعلت تعليمنا المعاصر يبتعد على أصالته الاسلامية تتمثل فى أن تدريس العلوم العقلية المختلفة يفتقر الى توجيهه الوجهة الاسلامية الصحيحة • فهذه العلوم تدرس موضوعاتها عادة على أن معرفتها هدف فى حد ذاتها ولهذا نجد أنه لا فرق بين تدريس هذه المواد فى مدارسنا ومدارس غيرنا اللهم الا فى كونها مكتوبة بلسان عربى •

وعلينا اذا أردنا أن نؤصل هذه العلوم العقلية أن نوجه تدريسها وجهة اسلامية • وهذا يعنى أن يتمشى تدريسها مع الأهداف التى تسعى التربية الاسلامية الى تحقيقها • ومن ثم يجب أن تدرس هذه العلوم لبيان عظمة الخالق عز وجل وترسيخ ايماننا به واحكام سيطرتنا على الطبيعة والكون واستغلال ثرواتها • ولكن ماذا عن النظريات العلمية التى لا تتمشى مع الفكر الاسلامى كنظرية التطور مثلا أو نظرية النشوء والارتقاء ؟ •• هل نمنع تدريسها فى مدارسنا ؟

الواقع أنه ينبغى ألا يكون هناك مجال لمثل هذه النظريات فى المراحل الأولى من التعليم • وربما جاز لنا تدريس بعض هذه النظريات فى المرحلة الأخيرة من التعليم الثانوى • ويكون تدريسها بهدف نقدها فى ضوء النظرية الاسلامية وابراز نقاط الضعف فيها • أما فى التعليم الجامعى والعالى فالمجال يتسع لنقد المذاهب الفكرية أو النظريات العلمية المغايرة • بحيث يكون الطالب أكثر نضجا وأكثر ايمانا بدينه وعقيدته • ولنا فى سلفنا الصالح أسوة حسنة • فجمال الدين الأفغانى على سبيل المثال ألف رسالة فى الرد على الدهريين وانتقد فيها نظرية دارون ولامارك فى التطور • ولقد أردت بهذا المثال أن أؤكد على ألا يحجر على عقول الشباب المسلم بحجة عصمته وحمايته ، وانما ينبغى أن نحرر فكره من الجمود فى ظل ايمان لا يتزعزع وعقيدة اسلامية راسخة • وهذا يتطلب ضرورة العناية باختيار موضوعات المناهج الدراسية والمواد التعليمية التى تخدمها • ويجب توجيه أهداف تدريسها نحو الوجهة الاسلامية الصحيحة التى تخدم أغراض التربية الاسلامية كما سبق أن أشرنا • ويجب لمن يتصدى لهذا العمل أن يكون على حظ كبير من المعرفة بأمر دينه وعقيدته الى جانب تخصصه العلمى وأن يكون قادرا على توجيه تخصصه وجهة اسلامية صحيحة •

ومع أن تحقيق ذلك ليس بالأمر السهل كما يبدو فاننى أعتقد أن هذا هو الطريق الصحيح لتأصيل تعليمنا الاسلامى •

وهناك نقطة ضعف أخرى جعلت تعليمنا الاسلامى يبتعد عن أصالته الاسلامية • وهى تتمثل فى قلة عنايته بالعلوم الدينية وعدم اعطائها المكانة التى تستحقها بل وعدم تقديمها فى أسلوب محبب الى النفس وبصورة يجد فيها المتعلم مجالا كبيرا للاستفادة منها وتطبيقها فى حياته •• ان افتقار الناحية الوظيفية فى برامج التربية الدينية والعلوم الاسلامية فى مدارسنا من أكبر عوامل هدمها ونفور التلاميذ منها •

ولهذا اذا أردنا أن نؤصل هذا الجانب فى تعليمنا الاسلامى والتجديد • فالى أى حد يكون التجديد فى نطاق الأصالة والى أى حد نمتد بالأصالة فى نطاق التجديد؟ ان حل هذه المعادلة يستند الى روح الاسلام الحقة التى تقوم على التوسط والاعتدال • فخير الأمور الوسط وكذلك جعلناكم أمة وسطا • وفى هذا الاطار ينبغى ألا نجعل يدنا مغلولة الى عنقنا وألا نبسطها كل البسط • فعلينا أن نجعل لتدريس العلوم الدينية مغزى وظيفيا فى حياة التلميذ يرتبط بحياته التى يحياها كما يرتبط بمعاملاته الفردية والاجتماعية • ويجب أن تستهدف هذه العلوم الدينية مساعدة الانسان المسلم على معرفة أصول دينه وأحوال دنياه وأن تنمى فيه الانتماءات الاسلامية الصحيحة •

ان تجديد التعليم الاسلامى مطلوب بمقدار حرصنا على أصالته • والأصالة لا تتعارض مع التجديد • ذلك أن التعليم الاسلامى فى حركته الى الأمام ينبغى أن يكون أصيلا متجددا فى نفس الوقت • لأنه رسالة أصيلة متجددة صالحة لكل زمان ومكان ومناسبة لكل الناس على اختلاف دوران أمورهم وأحوالهم •ولكن قد تبدو المعادلة صعبة ومع ذلك فان التجديد ينبغى أن يأخذ بأسباب الأصالة وبهذه الروح فقط يصبح للتجديد معناه الحقيقى •

حول توصيات المؤتمر العالمى الأول للتعليم الاسلامى :

عقد المؤتمر العالمى الأول للتعليم الاسلامى فى مكة المكرمة فى الفترة من ١٢ – ٢٠ ربيع الثانى سنة ١٣٩٧ هـ (٣١ مارس — ٨ أبريل سنة ١٩٧٧ م) •

وقد دعت الى هذا المؤتمر جامعة الملك عبد العزيز تحت رعاية جلالة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود• ويمثل عقد هذا المؤتمر أهمية خاصة لعدة اعتبارات رئيسية من أبرزها أنه أول مؤتمر من نوعه • فلم يشهد التعليم الاسلامى من قبل مثل هذا الاهتمام الكبير الذى تمثل فى هذا المؤتمر الضخم الذى ضم ٣١٣ عضوا يمثلون أربعين بلدا وقدم فيه من البحوث حوالى ١٥٠ بحثا الى جانب الدراسات المسحية عن حالة التعليم فى البلاد الاسلامية •

يضاف الى ذلك التنظيم الرشيد الذى وضع لهذا المؤتمر والضمانات المختلفة التى تضافرت على انجاحه وتوفيقه ، فقد عقد هذا المؤتمر فى مكان أحسن اختياره وله مكان محبب الى قلب كل مسلم ونعنى بذلك مكة المكرمة مهبط الاسلام وحصنه الخصين • وتعتبر توصيات المؤتمر على جانب كبير من الأهمية باعتبارها خلاصة جهد المؤتمر وعمله ولما يرتجى منها من اثارة الوعى والاهتمام بالتعليم الاسلامى من ناحية وتوجيه مساره فى الطريق الصحيح من ناحية أخرى • وقد انتهى المؤتمر الى ٣٨ توصية تدور كلها حول ما فيه خير التعليم فى العالم الاسلامى وترسم له اتجاهات تطويره واصلاحه •

وقد وضع المؤتمر التربية والتعليم فى مكانها الصحيح من الاهمية البالغة فى حياة الأمم وعبر عن احساسه بعظم المسئولية الملقاة على كاهل علماء المسلمين وقادة الفكر والعاملين فى ميدان التربية والتعليم فى دعم التضامن الاسلامى وخدمة قضايا المسلمين • كما عبر المؤتمر فى توصياته عن احساسه بعدم الرضا عن الأوضاع التعليمية الحالية

السائدة فى معظم البلاد فى العالم الاسلامى لأنها لا تمثل الصورة الصحيحة للاسلام •

وأكد المؤتمر أن العلوم المختلفة من طبيعية ورياضية وانسانية نظرية كانت أو تجريبية أو تطبيقية كلها علوم اسلامية طالما أنها متفقة مع الاطار الاسلامى الصحيح وطالما أنها لا تنحرف الى استخدامها فى الفساد والشر والعدوان • وبهذا التأكيد وضع المؤتمر حدا لما يثار عادة من تقسيم العلوم فى الاسلام الى علوم اسلامية وغير اسلامية أو علوم عقلية ونقلية وأن الأولى ليست مرغوبة بنفس درجة الثانية •

وقد أبرز المؤتمر أهداف التربية الاسلامية ودورها فى تنشئة الانسان المسلم الذى يعبد الله ويخشاه ويعمر أرضه ويستثمرها ويسخر ما أودعه الله فيها من ثروات ، وأكد المؤتمر أيضا على دور التربية الاسلامية فى تقوية الروابط الاسلامية بين المسلمين ودعم قضاياهم وتضامنهم الاسلامى وهذه ولا شك عناصر رئيسية فى أهداف التربية الاسلامية ، وكنا نود أن يولى المؤتمر اهتمامه للعناصر الرئيسية الأخرى التى تكون المفهوم الحضارى الشامل للتربية الاسلامية ومنها على سبيل المثال أن التربية الاسلامية تربية اسلامية عالمية تقوم على الأخوة فى الاسلام فالمسلم أخو المسلم • والرسالة الاسلامية رسالة انسانية موجهة الى الخير وما فيه الخير وهى رسالة عالمية للناس قاطبة ومنها أيضا أن التربية الاسلامية تربية اسلامية متجددة فهى تمتد من المهد الى اللحد وتتجدد مطالبها بتجدد أحوال الناس لأن الاسلام صالح لكل زمان ومكان •

وفى توصيات المؤتمر عن مصادر المعرفة فى التصور الاسلامى يرد تقسيمها الى نوعين :

(أ) الوحى وذلك فى الجوانب التى يعلم الله سبحانه وتعالى أن الانسان لا يهتدى فيها الى الحق من تلقاء نفسه •

(ب) العقل البشرى وأدواته فى تفاعله مع الكون المادى نظـر وتأملا وتجربة وتطبيقا فى الأمور التى تركها الله سبحانه وتعـالى لاجتهاد هذا العقل •

وهناك بالطبع مصادر أخرى للمعرفة غير هذين النوعين كنا نحب ألا يغفلها المؤتمر طالما أنه تعرض لهذه القضية ومنها حواس الانســان من سمع وبصر وحس ، فقد خلق الله هذه الحواس ليهتدى بها الانسان وجعله مسئولا عنها « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئـك كان عنه مسئولا » وهناك أيضا النقل عن السلف وهو مصدر هام للمعــرفة فى الاسلام فقد كان للسلف فضل اجتهادهم وتجاربهم ، ويعتبر ذلك مصدرا هاما لمعرفتنا المعاصرة وهناك أيضا القياس والاجتهاد وهناك تحفظ على اعتبار الوحى مصدرا للمعرفة ذلك أن الوحى خاص بطبقة محدودة من الناس هم طبقة الأنبياء ومن فى مرتبتهم • ولا يمكن أن نتصور المسلم العادى يعتمد على الوحى فى الحصول على المعرفة ولذلك كان من الأفضل استخدام « المعرفة اللدنية » وهى المعرفة التى تأتى من عند الله سبحانه وتعالى • ويتصل بذلك أيضا الكلام عن « الحدس » أو الالهام الالهى وهو بالطبع شىء مختلف عن الوحى •

وقد أشارت التوصيات الى ضرورة الأخذ بمفهوم متكامل للتربية الاسلامية يقوم على تربية الجسم والعقل والنفس وهو ما يؤكد تكامل النظرة الى الطبيعة الانسانية فى التربية الاسلامية وهى ناحية على جانب كبير من الأهمية تتحرر بها التربية الاسلامية من النظرة الثنائية أو الجزئية للطبيعة الانسانية والتى سادت على تفكير المربين فى الغرب قرونا طويلة •

وكنا نود أن تشير التوصيات الى بلوغ الكمال كهدف رئيسى للتربية الاسلامية • ومع أن الكمال لله وحده الا أن الانسان خليفته على الأرض وعليه أن ينشد الكمال وأن يسعى اليه وله فى هذا السعى لذة •

والكمال الانسانى أمر يفرضه أيضا كمال الدين الاسلامى نفسه باعتباره الدين الذى أتم به الله علينا ديننا وأكمل به نعمته علينا « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » • وهو أمر أيضا تفرضه طبيعة الرسالة الاسلامية « انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » •

وقد أكد المؤتمر تأكيدا كبيرا على تدريس العلوم الاسلامية والاهتمام به فى كل المراحل لا سيما مرحلة التعليم العام • وهى نقطة فى غاية الأهمية نظرا لتفاوت الدول الاسلامية فى درجة الاهتمام بتدريس هذه العلوم فى مراحل تعليمها المختلفة • ويجب أن نتذكر أن الاسلام دين ودولة وهو أسلوب متكامل للحياة ويجب أن تأخذ العلوم الدينية نصيبها من الاهتمام فى المنهاج المدرسى بل وفى الحياة المدرسية بصفة عامة •

كما أكد المؤتمر على ضرورة تبنى فكر اسلامى أصيل فى مختلف العلوم يبتعد بهذه العلوم عن كل ما هو دخيل أو غريب على الاسلام وهى أيضا نقطة هامة لأن الثقافة الاسلامية بالرغم من أن أصولها واحدة الا أنها لم تسلم من الشوائب التى علقت بها •

وقد وضع المؤتمر اللغة العربية فى البلاد الاسلامية فى مكانها الصحيح فنادى بضرورة العناية بتعليمها لأنها مفتاح فهم القرآن والدين وأوصى المؤتمر باعتبار اللغة العربية مادة اجبارية فى كل العالم الاسلامى• وهذا فى الواقع هو المسار الصحيح للوحدة الاسلامية • وعروبة القرآن بمعنى نزوله بلسان عربى مبين يحتم على كل مسلم أن يعرف اللغة العربية وبدون أى خلط بين تفضيل عربى على عجمى نقول بأن اللغة العربية هى من تمام كمال المسلم بل ومن تمام دينه •

وهناك تخوف من ارسال البعثات العلمية الدراسية الى الخارج فأشارت التوصيات الى قصر ارسال هذه البعثات على التخصصات

القادرة بعد مرحلة الليسانس نظرا لما يتعرض له الشباب فى الخـارج من فتنة جارفة فى عقيدته • وهذه التوصية تستحق فى الواقع وقفـة طويلة بعض الشىء لعدة أمور منها :

أولا : أرجو ألا يفهم من هذه التوصية على أنها دعوى ضد الدراسة فى الخارج أو أنها ضد الانفتاح الفكرى والثقافى للعالم الاسلامى على تجارب وعلوم المجتمعات الأخرى ، لأن العالم الاسلامى كما هو معروف بلغ قمة ازدهاره بانفتاحه على الثقافات الأخرى •

ثانيا : أن الرحلة فى طلب العلم كانت دائما سمة مميزة لسـلفنا الصالح من علماء المسلمين ، والأمثلة على ذلك لا يعيها الحصر فقد كان العلماء يرتحلون فى طلب العلم سنين طويلة يتلقونه على أهله وثقاته • قد يقال ان سلفنا كان يتلقى العلم على أيدى علماء المسلمين فالمسلمون يتعلمون عن المسلمين وهذا صحيح الا أن تراثنا الاسلامى لم ينكر تلقى العلم وأخذه على يد غير المسلمين من العلماء أو أن يرتحل فى طلبه الى أقاصى البلاد « أطلبوا العلم ولو فى الصين » • بل ان الرسول عليـه السلام قبل أن يعلم الكفار واليهود أبناء المسلمين وكان يفك أسر من يعلم منهم عشرة من صبيان المسلمين كما هو معروف • والنبى صلى الله عليه وسلم لم يجد غضاضة أو حرجا فى الاستعانة بخبرة دليل مشرك هو عبد الله بن قريظة ليدله على الطريق أثناء هجرته هو وأبو بكر من مكة الى المدينة •

ثالثا : أن العلم لا وطن له وحيثما يزدهر نوع من العلوم التى يحتاج اليها المسلمون لتضيف الى قوتهم فانه ينبغى أن نحرص على تحصيلها واذا كان من يتعلم لغة قوم يأمن شرهم فان تحصيل علومهم من باب أولى اذا كان فيها ما يخدم مصالح المسلمين فى اطار الاسلام الصحيح • قال صلى الله عليه وسلم: «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » •

رابعا : أن التخوف من فتنة طلاب البعثات الدراسية أو فرض القيود عليها انما تكون بوضع الضمانات التى تكفل تحقيق الأهداف التى ننشدها منها • وفى مقدمة هذه الضمانات حسن اختيــار العناصر الصــالحة من الطلاب وتوفير الرعاية المالية والاجتماعية لهم أثناء دراستهم وتوفير المكان المناسب والمرتب المناسب لهم بعد عودتهم • وهو ما أشارت اليه التوصيات ميما بعد وأعتقد أن هذا هو الطريق الصحيح لحسن توجيه بعثاتنا الدراسية الى الخارج •

وهذه الملاحظات لا تقلل بالطبع من أهمية التوصيات التى تعتبر بحق نقطة تحول هامة فى الانتقال بالتعليم الاسلامى والتربية الاسلامية من مرحلة الدراسات التاريخية التى تقوم على دراسة تطور التربيــة الاسلامية عبر العصور الى مرحلة تطوير التعليم الاسلامى المعــاصر ليكتسب صورته الاسلامية الصحيحة • وهناك توصيات أخرى كثيرة لم نشر اليها ولها أهميتها الكبرى تتعلق بتعليم المرأة بما يتناسب مع طبيعتها ورسالتها فى الحياة ومنها ما يتعلق بتعليم أبناء المسلمين فى فلسطين المحتلة وتعليم الأقليات الاسلامية فى الدول المختلفة وضرورة العمــل على مساندة كل الجهود التى تبذل من أجل العناية بتعليم هذه الأقليات ودراسة أحوالهم وغيرها من الجوانب الأخرى الهامة التى ينبـــغى قراءتها والرجوع اليها فى تقرير المؤتمر وتوصياته •

وانى أعتقد أن الحل العملى لتنفيذ هذه التوصيات كان من صنع المؤتمر عندما حالفه التوفيق بالتوصية بانشاء مركز عالمى للتعليم يسمى المركز العالمى للتعليم الاسلامى بمكة المكرمة ليقوم بتنفيذ هذه التوصيات• واننى أدعو الله مخلصا أن أرى هذه التوصيات وقد أخذت طريقها الى حيز التنفيذ لتعيد للاسلام مجده الذى فقدناه عندما فرطنا فى أمرنا وقد آن الأوان لينهض العالم الاسلامى ويحتل مكانته المرموقة « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » •

أهداف التربية الاســلامية :

تعتبر كلمة التربية بمفهومها الاصطلاحى من الكلمات الحديثة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة مرتبطة بحركة التجديد التربوى فى البلاد العربية فى الربع الثانى من القرن العشرين . ولذلك لا نجد لها استخداما فى المصادر العربية القديمة . وما كانت تستخدمه هذه المصادر هى كلمات مثل (التعليم) و(التأديب) و(التهذيب) وهى كلها مرتبطة بالتربية كما نفهمها اليــوم أوثق الارتبــاط . وقد وردت كلمة « التربية » عند ابن خلدون بمعنى التنشــئة فى كلامه فى المقــدمة عن مراتب الملك والسلطان والألقاب[1] .

وترجع كلمة التربية فى أصلها اللغوى العربى الى الفعل (ربا) (يربو) أى نما وزاد . وفى التنزيل الحكيم « وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » أى نمت وزادت لما يتداخلها من المــاء والنبات . وتقول رباه بمعنى نشأة ونمى قواه الجسدية والعقلية والخلقية . وفى التنزيل الحكيم : « قل ألم نر بك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين » .. « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

وقد كتب الذين ألفوا عن التعليم فى الاسلام من المتقدمين عن أغراض التعليم ونقل عنهم المحدثون وتناولوه فى كتابتهم عن أغــراض أو أهداف التربية الاسلامية وبعضهم يجمل الكلام عن هذه الأهداف فيركزها فى الهدف الدينى الذى يقوم على تعلم القرآن ومعرفة العبادات المفروضة أو بعبارة أخرى معرفة الدين علما وتطبيقا . وهذا هدف كبير يمكن أن يشمل التربية الاسلامية كلها باعتبار الدين الاسلامى دينا ودولة وبعضهم لا سيما المحدثون يفصلون هذه الأهداف الى أهداف دينيــة

---

(١) مقدمة ابن خلدون : طبعة دار الفكر العربى ص ٢٣٥ .

وعقلية وثقافية ونفسية[١] وبعضهم يقسمها الى أهداف دينية وعقلية واجتماعية ومادية[٢] .

وواضح أن هناك اشتراكا كبيرا وشبه اتفاق على هذه الأهداف مع اختلاف المعالجة فى التركيز أو التفضيل .

ويصبح من الصعب اذن أن نتقبل ما يذهب اليه أحد المؤلفين فى التربية الاسلامية من المحدثين عندما يقول (والرأى عندنا أنه لا يوجد أغراض للتربية عند العرب تعمهم على الاطلاق وانما الصواب أن نذكر صاحب المذهب ثم نذكر الغرض من التعليم الذى يلائم هذا المذهب)[٣] .

ان أى تصور لأهداف التربية الاسلامية لابد وأن يضع فى اعتباره أن مجىء الاسلام يمثل بداية تربية جديدة للمجتمع العربى وأنه كان من الطبيعى اذن أن يرسم الاسلام مثلا أعلى للحياة مغايرا لما كان عليه حال العرب فى الجاهلية أو قبل الاسلام . وعلى هذا يمكن القول بأن أهم أهداف التربية الاسلامية هو بلوغ الكمال الانسانى لأن الاسلام نفسه يمثل بلوغ الكمال الدينى فهو خاتم الأديان وأكملها وأنضجها يقول الله تبارك وتعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » ويقول عز وجل : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

ومن تمام الكمال الانسانى مكارم الأخلاق وقد جاء الاسلام ليصل بهذا الكمال الانسانى الى قمته ، وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وهكذا يعتبر بلوغ الكمال الانسانى هدفا رئيسيا للتربية الاسلامية . ومع أن الكمال لله وحده فان

---

(١) أسماء فهمى : مبادىء التربية الاسلامية .

(٢) خليل طوطح : التربية عند العرب ص ١٥٢ — ١٥٤ .

(٣) أحمد فؤاد الاهوانى : التربية فى الاسلام — دار المعارف — القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٩٢ .

الانسان لابد وأن يتصف بالكمال باعتباره خليفة الله على الأرض ، قال تعالى : « انى جاعل فى الأرض خليفة » .

وعلى الانسان أن يسعى الى هذا الكمال وله فى هذا السعى لذة تحفزه دائما الى مزيد من الكمال . يقول الغزالى « ان أشرف مخلوق على الأرض هو الانسان . وقد كرمه الله على كثير من خلقه . وهـذا التشريف والتكريم يدفع الانسان دائما الى بلوغ مزيد من الكمال .

ان موضوع التربية الاسلامية شأنها شأن غيرها من أنواع التربية هو الانسان بكل مقوماته الجسمية والعقلية والنفسية والوجدانية . ذلك أن طبيعة الانسان من المنظور الاسلامى تتضمن كل هذه المقومات لتحقيق حياة خلق من أجلها ورسالة كلف بأدائها . ومن ثم فان التربية الاسلامية تقوم على أساس أن الكمال موجود بالقوة فى طبيعة الانسان بمعنى أن الانسان قادر على بلوغ هذا الكمال اذا ما وجد من الرعاية والعناية والتربية ما يساعده على ذلك . وتصبح الوظيفة الرئيسية للتربية فى الاسلام هو الانتقال بهذا الكمال الموجود بالقوة الى كمال موجود بالفعل يكتسبه الانسان من خلال أساليب التربية والتنشئة التى يتعرض لها فى مراحل حياته المختلفة .

ومن أهداف التربية الاسلامية أيضا تحقيق سعادة الانسان فى الدنيا والآخرة وهو هدف تتزن فيه أسس التربية الاسلامية كما سيتضح من كلامنا عن هذه الأسس فيما بعد .

وتقوم التربية الاسلامية على أساس الواقع المـادى والروحى للانسان دون اقتصار على جانب واحد فقط . فهى لا تريد أن يعيش الانسان فى السماء وهو فى الأرض ولا تريد كذلك أن يعيش منغمسا فى الحياة الأرضية المادية وحدها لأن فى كيانه وجودا روحيا فعالمه أوسع من عالم الحياة المادية الأرضية وحدها وأوسع من الحياة السـماوية الروحية وحدها كذلك[1] .

---

(١) مقداد يالجن : التربية الأخلاقية الاسلامية ـ دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٤٥ .

ان التربية الاسلامية فى اهتمامها بالواقع المادى والدنيوى للانسان تسعى الى الاهتمام بالجانب الروحى على قدم المساواة . وتهدف من وراء ذلك الى أن تمتد بحياة الانسان الى ما هو أبعد من حياة الأرض قصيرة الأجل وتعده لحياة سعيدة أبدية فى الدار الآخرة .

وتهدف التربية الاسلامية الى تنشئة الانسان الذى يعبد الله ويخشاه ، فالله سبحانه وتعالى يقول : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » وطريقة عبادة الله وخشيته انما تكون بالعلم فانما يخشى الله من عباده العلماء والعلم هو سبيل التقوى الصحيحة الى معرفة الله عز وجل . ولذلك حث الاسلام على العلم والسعى فى طلبه وفضل أهله على غيرهم ورفعهم درجات .

ان الانسان متدين بالطبع وبالفطرة . قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها . لا تبديل لخلق الله . ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

كما أن الدين ضرورة اجتماعية لأنه ينظم حياة الناس والعلاقات بينهم ويربط بينهم بسياج متين .

والدين أيضا ضرورة نفسية للفرد يدفعه الى بلوغ الكمال فى الحياة ، والسعى والحركة والنشاط . كما يساعد على التغلب على كثير من المشكلات الاجتماعية والنفسية التى يواجهها الفرد فى حياته . خذ مثالا بسيطا عندما تضيق الدنيا فى وجه انسان وتنسد أمامه السبل والمسالك عندها يجد فى الدين تفريجا عن كربه وتهدئة لنفسه .

ويتصل بالعبادة أيضا دور الانسان فى تعمير الأرض وتسخير ما أودعه الله فيها من ثروات لخدمة حياة الانسان وتحقيق الخير للناس وما يتطلبه ذلك من استخدام للعلوم المختلفة . وهكذا تصبح العلوم المختلفة من طبيعية ورياضية وانسانية ونظرية كانت أو تجريبية أو تطبيقية كلها علوما اسلامية طالما أنها متفقة ومتمشية مع الاطار الاسلامى

الصحيح وطالما أنها لا تستخدم استخداما سيئا يخرج بها عن غرضها فتنحرف الى الفساد والشر والعدوان •

ومن أهداف التربية الاسلامية أيضا تقوية الروابط بين المسلمين ودعم تضامنهم وخدمةقضاياهم ،ويتم ذلك عن طريق ما تقوم به التربية الاسلامية منتوحيدللافكاروالمشارب والاتجاهات والقيم بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها • وبهذا تكون التربية الاسلامية عاملا فعالا فى تماسكهم ووحدتهم وجمع شملهم وتكتيل جهودهم وجعلهم جميعا على قلب رجل واحد •

ومن المعايير الهامة التى تقوم عليها أهداف التربية الاسلامية والتى تحدد بالتالى المضمون التربوى التعليمى فى الاسلام قيمة هذا المضمون وأثره فى تربية الانسان لبلوغ الفضيلة وكمال النفس عن طريق العلم بالله عز وجل وحسن التوجيه الى الحياة الخيرة الفاضلة وتنمية العقل وكسب الرزق وكذلك قيمة هذا المضمون فى نفع الانسان فى دنياه وآخرته على السواء •

فالعلم فضيلة وتعرف فضيلة العلم بثمرته وهى التقرب من الله تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » أما فى الدنيا فثمرته العز والوقار والاحترام وبلوغ المكانة والبعد عن السؤال • والضمير هو الذى يسيطر على خافية الأنفس وما تخفى الصدور فى الانسان ، والله سبحانه وتعالى خالقنا « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » ، « وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » ، « وهو يعلم السر والجهر » وهذا يعنى أن الله رقيب على الرقيب من نفس الانسان ولا خير فى الضمير اذا لم يكن حيا ، فاذا تبلد الضمير أصبح الانسان كالحيوان وتبلد معهالشعور ونامت الفضيلة والنخوة لديه ، فالشخص بلا ضمير هو انسان ميت الحس • وتربية الضمير تكون بالايمان الصحيح بالله الذى يعلم السر والجهر وتكون أيضا بعبادته « أن تعبد الله كأنك تراه »•

ومهمة التربية الاسلامية تربية فطرة المسلم على هذا الايمان الصحيح وخشية الله وعبادته . والتعليم والقدوة أساس الفضيلة والأخلاق ولذلك كانت سيرة الرسول لها قيمة تربوية خلقية ، وقد أمرنا الله بأن نتبع الرسول وأن نأخذ ما آتانا به وننتهى عما نهانا عنه .. قال تعالى : « وماأتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وقال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » .

أسس التربية الاسلامية :

تستند التربية الاسلامية الى مجموعة من الأسس والركائز الرئيسية تشكل فى مجملها المفهوم الشامل للتربية الاسلامية ويمكننا أن نعرض هذه الأسس فيما يلى :

١ ــ التربية الاسلامية تربية تكاملية شاملة :

ويقصد بالتكامل أو الشمول هنا أنها لا تقتصر على جانب واحد من جوانب شخصية الانسان فالتربية الاسلامية ترفض النظرة الثنائية الى الطبيعة الانسانية التى تقوم على التمييز بين العقل والجسم وسمو العقل على الجسم وانما هى تنظر الى الانسان نظرة متكاملة تشمل كل جوانب الشخصية فهى تربية للجسم وتربية للنفس والعقل معا . ولا شك أن كل جانب من هذه الجوانب يؤثر فى الآخر ويتأثر به ، وقديما قالوا العقل السليم فى الجسم السليم . كما أن فى الجسم مضغة اذ صحت صح الجسم ، واذا فسدت فسد الجسم ألا وهى القلب. ونهانا ديننا عن الانغماس فى الشهوات .. ولأهمية الجسم فى التربية الاسلامية أمرنا الاسلام بالعناية بصحتناوأجسامنا « ان لبدنك عليك حقا » ، فهناك حق البدن على صاحبه . وتخاطب التربية الاسلامية حواس الانسان وقواه ، وتحتكم اليها « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . وجعل طهارة الجسم شرطاللعبادة . كما أمرنا أن نجمل مظهرنا بنظيف الثياب وأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد .

والانسان مسئول عن الحفاظ على حياته وجسمه وحمايتها من الخطر ، وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كان فيمن قبلكم رجل به جرح فجزع فأخذ سكينا فحز بها يده فما رقأ الدم حتى مات .. فقال الله بادرنى عبدى بنفسه فحرمت عليه الجنة » .

وورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أيضا قوله : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا . ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا فيها أبدا . ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا » .

فالتربية الاسلامية تربية للجسم وهى أيضا تربية للعقـــل فالتفكير فريضة اسلامية والنظر والعقل أساس الفرائض فىالاسلام.

والتربية الاسلامية تربية نفسية لأنها تخاطب عاطفة الانســـان ووجدانه وقلبه وضميره وتحتكم اليها .. وأمرنا ديننا بأن نربى نفوسنا على الفضيلة والخير وحب الناس والتجرد من الأنانية وحب الذات ، وجعل أساس الحساب على الأعمال ما استقر فى النفس لا بما ظهــر من السلوك . وأمرنا ديننا بالتعفف وعزة النفس ورياضتها وتدريبهـــا والتحكم فيها .

بل لقد اعتبر ديننا جهاد النفس جهادا أكبـــر من جهاد الحـــرب والقتال ، فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله بعد عودته من الحرب : « رجعت من الجهاد الأصغر الى الجهـــاد الأكبر .. قالـــوا وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : جهاد النفس » . وهى تربية عقلية لأنها تخاطب العقل وتحتكم اليه والاسلام دين العقـــل والنظر والتفكير والتأمل كما ذكرنا .

واعتبر المعرفة والعلم وهما غذاء العقل أساسا للتفاضل بين الناس « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، « يرفع الله الذين

آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » • كما جعل العقل أساس التكليف والاختيار ودعانا الى نبذ ما يتنافى مع العقل من خرافات وأباطيل وأوهام • والقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تحث على اعمال العقل والفكر والتفكير والتدبير ووزن الأمور بموازين العقل والمنطق •

وهكذا تكون التربية الاسلامية تحريرا للعقل من الوهم والخرافات كما أنها تحرير للنفس من الخوف والعبودية ، وتحرير للجسم من الخضوع للذات والشهوات • ولقد أقر النبى صلى الله عليه وسلم قول سلمان الفارسى لأبى الدرداء أخيه فى الاسلام :

« ان لبدنك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه » •

٢ ــ التربية الاسلامية تربية متوازنة :

تحرص التربية الاسلامية على تحقيق التوازن بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة • قال تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » • ومن الأقوال المأثورة « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » • وهذا التوازن يميز التربية الاسلامية عن غيرها فهى ليست تربية صوفية أو رهبانية كما فى المسيحية مثلا •

لقد حدد قانون بنيديكت ثلاثة التزامات للرهبنة المسيحية هى : العفة والفقر والطاعة • ويتضمن التزام العفة نبذ العلاقة الزوجية والأسرية واستبدالها بروابط دينية وروحية • ويتضمن التزام الفقر التخلى عن الاهتمامات المادية والدنيوية وعلى الفرد قبل دخوله الدير أن يتخلى عن كل ثروته وأملاكه للدير ويتضمن التزام الطاعة التخلى عن كل قوة أو جاه أو سلطان والخضوع التام لنظام الدير • ومثل هذا النظام لا يقره الاسلام لأنه لا رهبنة فى الاسلام •

ان الاسلام يتطلب المحافظة على خمسة أمور هى : الدين والنفس والمال والعقل والنسل وذلك لأن الدنيا التى يعيش فيها الانسان تقوم على هذه الأمور الخمسة ولا تتوافر الحياة الانسانية الكريمة الا بهـا وتكريم الانسان هو فى المحافظة عليها[1] •

ان الانسان مطالب بأن يعمر الأرض • قال تعالى : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » وهذا يعنى أن الأرض مجال نشـــاط الانسان وحياته يسكنها ويعمرها ويسخر قواها ويســتخرج ثرواتها ويستمتع بخيراتها وطيباتها • وما كان الله ليخلق الطيبات ثم يحرمها على الانسان • قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق » •ان الدنيافى نظر الاسلام ليست للتـكفير عن الخطيئة كما تذهب المسيحية وانما هى لتعمير الأرض وتحقيق رسالة الانسان وهى استخلافه فيها • قال تعالى : « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » • وقال تعالى : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » •

وورد عن النبى قوله : « ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون » •

ان حق النفس على الانسان أن يروح عنها وأن يعطيها من الراحة والأمن والطمأنينة والغذاء والتسلية والهدوء فى حدود ما أباحه الله •

لقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لمن فهم أن الدين ليس الا تعبدا وتهجدا وصياما وابتعادا عن النساء : « انى أخشاكم لله ولكنى أصــوم وأفطر وأصلى وأنام وأتزوج النساء » •

ان ارهاق النفس ولو فى طلب العبادة لا يطلبه الاسلام ولا يرضاه

---

(١) محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية — دار الفكر العربى ، ص ٨٦ .

لأن ما فيه مشقة فوق المعتاد لا يمكن المداومة عليه وقد ينقطع به الجهد عنه[١] •

وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « ان هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق و لاتبغضوا الى أنفسكم عبادة الله فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » • كما ورد عنه أيضا قوله :

« لا تشددوا على أنفسكم يشدد الله عليكم فان قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » •

بيد أن استمتاع الانسان بالدنيا مرتبط أيضا باستمتاعه فى الدار الآخرة لأن صلاح الدنيا من صلاح الآخرة • وقد ورد ذكر الدنيا والآخرة فى القرآن الكريم بعدد متساو هو ١١٥ مرة[٢] مما يؤكد التوازن بين الدنيا والآخرة فى الاسلام •

قال تعالى : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » • وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « اللهم •• أصلح لى دنياى التى فيها معاشى وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى » • ان التربية الاسلامية ليست مادية فحسب أو روحية فحسب وليست دنيوية فحسب أو أخروية فحسب وانما هى وسط بين كل ذلك •

وهذا الموقف الوسط أو المتوازن للتربية الاسلامية يجعلها أقرب ما تكون الى طبيعة الأشياء فخير الأمور الوسط ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » • كما يجعلها أيضا مراعية لطبيعة الانسان وفطرته التى فطر الله الناس عليها •• وهو ما سنفصل الكلام عنه فيما بعد •

---

(١) محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية — دار الفكر العربى ، ص ٩٩ •

(٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم — ص ٢٦٢ وص ٢١ •

٣ ــ التربية الاسلامية تربية سلوكية عملية :

فهى لاتكتفى بالقول وانما تتعداه الى العمل والممارسة ونحن اذا نظرنا الى المبادىء الرئيسية الخمسة التى بنى عليها الاسلام نجد أنها تتطلب سلوكا عمليا فالشهادة بوحدانية الله ونبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم واقامة الصلاة وايتاء الزكاة والحج وصوم رمضان كلها تتطلب سلوكا لفظيا • ومن تمام كمال الانسان المسلم أن تتطابق أقواله مع أفعاله • كما اهتمت التربية الاسلامية بتكوين العادات السلوكية الحسنة عند الفرد منذ طفولته الأولى لما فى هذه العادات من أثر طيب فى اكتساب الفضائل والبعد عن الشرور والرذائل •

٤ ــ التربية الاسلامية تربية فردية واجتماعية معا :

تقوم التربية الاسلامية على تربية الانسان تربية فردية ذاتية فهى تربية على الفضيلة ليكون مصدر خير لجماعته وتحمله مسئولية أعماله وتصرفاته ، فكل أمرىء بما كسب رهين • وكل مسلم راع وهو مسئول عن رعيته ، وفى نفس الوقت يربى الاسلام الفرد تربية اجتماعية فالمسلم أخو المسلم • والمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا • ومثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسم اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى • وهى تربية تجرد الفرد من روح الأنانية البغيضة « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » • « ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » •

وتؤكد التربية الاسلامية على أهمية القدوة والوسط الاجتماعى فى تنشئة الفرد•واهتمت بتكوين العادات الحسنة منذ النشأة الأولى للطفل لمخالطته للنماذج الطيبة وابعاده عن قرناء السوء ، فمثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير •

كما اهتمت أيضا بالوسط الأسرى الاجتماعى كعامل هام فى تربية الفرد ، فالانسان يولد على الفطرة وأبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه •

وقد اتجه الاسلام الى اقامة مجتمع قوى بأفراده ويقوم على أساس العدل والمصلحة العامة ، ولتحقيق هذه الغاية السامية اتجه الاسلام الى تربية الفرد وتهذيبه ليكون مصدر خير لجماعته ، كما اهتم باقامة العدل فى الجماعة الاسلامية والمسلمون يتساوون فى أخوة الاسلام فى رفع الظلم بينهم .. فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه . وأمرنا الاسلام بالعدل فى المعاملة وأن نعامل الناس بما نحب أن يعاملونا به ، كما أمرنا بالعدل فى الأحكام والقضاء والشهادة وغيرها . ويرى بعض علماء المسلمين أن أجمع آية لمعانى القرآن قوله عز وجل : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » .

٥ — التربية الاسلامية تربية ضمير الانسان :

فضمير الانسان هو الموجه لسلوكه والرقيب على أعمـاله ، وقد حرصت التربية الاسلامية على تربية هذا الضمير ليكون حيا يقظا فى السر والعلانية . فالله رقيب على تصرفات الانسان حيثما كان ، وعلى الانسان أن يعبد الله كأنه يراه « والله يعلم السر والجهر ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » . قال تعالى : « ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » .

والضمير الحى خير عاصم للانسان من الزلل وقوة كبيرة لحفزه على العمل ، وعندما يعرف الانسان أن هناك ربا يحاسبه على أعمـاله وأنه رقيب عليه حيث كان فانه يفكر فى كل عمل قبل أن يقدم عليه ، وتربية الضمير تربية لارادة الانسان بحيث يصبح متحكما فى تصرفاته ولا يكون رهن نزواته وشهواته ، وفى تكوين الضمير لجأ الاسلام الى أسلوب الثواب والعقاب وهو أسلوب يتمشى مع طبيعة النفس الانسانية .

٦ — التربية الاسلامية تربية لفطرة الانسان واعلاء لغرائزه :

تقوم التربية الاسلامية على التسليم بفطرة الطبيعة الانسانية وأن الانسان يولد بطبيعة انسانية فطرية محايدة ،وقد ورد عن النبى صلى

الله عليه وسلم قوله : « ما من مولود الا ويولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »، ويقول الله عز وجل: « الله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا » •

والتربية الاسلامية هى تربية لهذه الفطرة الانسانية وهى تعمل على تنمية الميل الفطرى لدى الانسان فى معرفة ما يجهل وتستثمر حب المعرفة والبحث عن المجهول لديه وقد استخدم الاسلام كل وسيلة ممكنة للوصول بهذا الميل الفطرى الى مرتبة الشغف بالعلم والتلهف الشـــديد المستمر لمعرفة ما فى الوجود من معارف وأسرار •

والتربية الاسلامية تربية لفطرة الانسان لأن الاسلام دين الفطرة وكل أوامره ونواهيـــه وتعاليمه تعتـــرف بهذه الفطـــرة وتتمشى معها ولا تخالفها ، واعترفت التربية الاســـلامية من ناحية أخـــرى بجوانب الضعف فى الطبيعة الانسانية ولم تحملها فوق طاقتها وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله :

« رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » •• وأساس التكليف فى الاسلام الاستطاعة فلا يكلف الله نفسا الا وسعها •

والتربية الاسلامية فى تربيتها لفطرة الانسان تتمشى مع روح الاسلام التى تقوم فى أساسها على التوسط والاعتدال فخير الأمور الوسط ، وقد أمرنا ديننا بالابتعاد عن الاسراف فالله لا يحب المسرفين ، قال تعالى : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » ، « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البســـط » ، « ولا تميلوا كل الميـــل » ، « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين » ، «وكذلك جعلناكم أمة وسطا»•• وغيرها من الآيات الكريمة التى تبين روح التوسط فى الاسلام وتسمو التربية الاسلامية بالانسان وتعلى من شأنه باعتباره خليفة الله فى الأرض ولهذا كرم الله بنى آدم وفضله على كثير من خلقه « ولقد كرمنا بنى آدم » ، « اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » •• ويقتضى هذا السمو اعلاء

لغرائز الانسان حتىلايكون عبدا لهذه الغرائز ، وينحط الى مستوى الحيوان . ونحن نستخدم كلمة الغرائز هنا لتعنى الدوافع الفطرية فى الانسان . وقد عنيت التربية فى الاسلام بأن تنشىء الفرد على التحكم فى رغباتهوعدم الانسياق وراء شهواته ونزواته . فموقف الاسلام الاعتدال والتوسط كما أشرنا ويمكننا أن ننظر الى الصوم على انه اعلاء لشهوة الطعام عند الانسان ، كما أن الصوم أيضا اعلاء لشهوة الجنس لديه .. وقد ورد فى الحديث « من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » .. أى حماية وعصمة من الخطأ والانسياق وراء النزوات .

وطريقة الاسلام فى الاعلاء لغرائز الانسان ودوافعه تقوم على أساس وضع معايير وأهداف عليا للحياة الانسانية وتكوين الارادة القوية للانسان وهى عملية تدريب على الضبط الارادى للانسان وتحكمه فى شهواته وبواعث الهوى لديه والتحكم فى عواطفه ومشاعره بقوة الارادة فلا يسلم نفسه للغضب يسيطر عليه ولا الغلط يتحكم فيه ولا الرغبة فى الانتقام تتسلط عليه .

كما تعود الانسان على القيام بالأعمال الصالحة وشغل وقت فراغه بطريقة مفيدة بناءة فيما يفيده ويعود عليه بالنفع اما بالعمل أو العبادة أو التسلية التى لا ضرر فيها وبالأمور المتاحة مثل الرياضة الجسمية والعقلية .

وبفكر الانسان يستطيع أن يغلب العقل على الهوى .. فاذا استخدم الانسان عقله تغلب به على الهوى والعكس صحيح . وفى ذلك يقول الامام الغزالى :

(الفكرة مترددة بين الشهوة والعقل .. العقل فوقها والشهوة تحتها ، فمتى مالت الفكرة نحو العقل ارتفعت وشرفت وولدت المحاسن،

وإذا مالت الى الشهوة تسفلته الى أسفل السافلين وولدت القبائح)[1]. قال تعالى وهو أصدق القائلين : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ».

٧ ـ التربية الاسلامية تربية موجهة نحو الخير .

ذلك أن مجيء الاسلام كرسالة كان من أجل الرحمة بالبشر ، وقد خاطب سبحانه وتعالى نبيه بقوله : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

ان التربية الاسلامية موجهة لما فيه خير الفرد والمجتمع فهى توجه الانسان الى الفضيلة بالالتزام بالخلق الكريم والتحلى بجميل الصفات ومعاملة الناس بالحسنى « فالدين معاملة » ، وحث الاسلام المسلمين على الخير وكل ما فيه سعادة الناس جميعا وجعل حب الخير للآخرين من تمام الايمان « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » كما اهتم بتنمية نزعات الخير فى الانسان من تعاطف وتراحم وتواد وتآخ وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر « ومثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » .

ويقول الغزالى : « ان جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الحق وصلاح الخلق فى تحصيل مقاصدهم لكننا نعنى بالمصلحة على مقصود الشرع من الخلق خمسة . وهو أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة فهو مفسدة ودفعها مصلحة »[2] .

وجعل الاسلام مصالح العباد من أفضل العبادات ، ويقول عليه

---

(١) الغزالى : ميزان العمل . مطبعة صبيح ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ ، ص ٥٦ .

(٢) الغزالى : المستصفى . جـ ١ ، ص ٢٨٧ .

الصلاة والسلام : « الخلق كلهم عباد الله وأحبهم الى الله أنفعهم لعياله » • وقال الشاعر فى نفس المعنى :

الخلق كلهم عيـال الله تحت سمائه
وأحبهم طـرا اليـه أبرهم بعيـاله

والتربية الاسلامية تقوم على اقامة العدل فى المجتمع الاسلامى •• ولاقامة العدل جوانب متعددة منها العدل فى المعاملة « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » • ومنها العدل فى القضاء فالمسلمون سواء أمام الاسلام لا فضل لغنى على فقير ولا قوى على ضعيف ولا لعربى على عجمى ، ومنها العدل الاجتماعى فالقوى يساعد الضعيف ، والغنى يساعد الفقير بل وفى أموال الأغنياء حق معلوم للسائل والمحروم •

ومن العدل أيضا التساوى بين الناس فى الحقوق والواجبات ، ومن هذه الحقوق حق العمل وحق التعليم • وفى تفسير ما يتعلق بالتعليم قال بعض فقهاء المسلمين انه يجب أن يكون التعليم على ثلاث مراحل •• المرحلة الأولى : فرض عين فيها يتعلم كل شباب الأمة الاسلامية ، فمن كان يستطيع بكفاءته الفكرية التى كشفتها تلك المرحلة أن يدخل الثانية دخلها ، ومن وقفت كفاءته الفعلية عن الدخول فيها وقف عند فرض كفاية تحتاج اليه الجماعة ان الأمة فى حاجة الى عمال يدويين وزراع يفلحون ويقومون على الحـرث والى من يمهرون فى الصـناعات المختلفة التى لا تحتاج الى تفكير كثير وانما الى أيد ماهرة كسبت مهاراتها بالتمرين والعمـل •

والذين اجتازوا المرحلة الثانية بنبوغ يدخلون المرحلة العليا وهى الثالثة ، ومن وقف دون الدخول فى هذه الأخيرة وقف عن فرض كفاية فان الجماعة محتاجة الى ذوى ثقافات متوسطة ليشرفوا على الأعمال ويديروا نظامها ، ومن اجتازوا المرحلة العليا كان منهم قادة الفكر والمخترعون وبمقدار قواهم الفكرية لا بمقدار عددهم تكون قوة الأمة الاسلامية

وعظمتها المادية والروحية ، فالاعتبار فى هؤلاء بقواهم لا بالأعـداد الكثيرة[١] •

ان احدى الغايات الرئيسية المنشودة فى التربية الاسلامية غاية أخلاقية تقوم على تربية الانسان الخير الذى يحيا حياة خيرة بعيدة عن الشر والأذى على المستوى الفردى والاجتماعى ••

٨ ـ التربية الاسلامية تربية مستمرة :

فهى تربية لا تنتهى بفترة زمنية معينة ولا بمرحلة دراسية محددة وانما تمتد على طول حياة الانسان كلها ، فهى تربية من المهد الى اللحد• وهى تربية متجددة باستمرار تنمى شخصية الفرد وتثرى انسانيته ، كما أنها تأخذ به الى الأمام فى طريق النمو والتقدم المستمرين •

ان الحياة لا تسير على وتيرة واحدة فهى تتغير وتتطـور ولابد للانسان أن يساير هذا التطور والا تخلف عن ركب الحياة • والاسلام يساير التطور باستمرار لأنه صالح لكل زمان ومكان لأنه يستند الى كتاب أحكمت آياته وفصلت ، والشريعة الاسلامية مطاوعة لكل زمان ومكان ومتمشية مع كل عصر وذلك لتطور الأحوال ودورانها على مصالح الناس واحتياجاتهم المتجددة والتربية الاسلامية هى انعكاس صادق لهذا التطور المستمر • وقد ورد عن على بن أبى طالب قوله « علمـوا أولادكم غير ما علمتم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم » •

وفى الاسلام ليس هناك نهاية أو سن محدودة لطلب العلم • ويقول الزرنوجى فى « تعليم المتعلم طريق التعلم » أنه لا عذر لصحيح الجسم والعقل فى ترك طلب العلم مهما كان عمره • وسئل أبو عمرو ابن العلاء حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ أجاب : مادامت الحياة • وسـئل

---

(١) محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية ـ دار الفكر العربى القاهرة بدون تاريخ ، ص ٨٤ .

حكيم : ما حد التعلم ؟ فأجاب : حد الحيـــاة • ويرى ابن قتيبـــة أنه « لا يزال المرء عالما ما طلب العلم ، فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل » فالحكمة ضالة المؤمن ينشدها حيثما كانت مادامت فيه الحياة وقد أشرنا الى الرحلة فى طلب العلم فى الاسلام فى مكان آخر من هذا الكتاب •

٩ ـ التربية الاسلامية تربية متدرجة :

قلنا ان هدف التربية فى الاسلام بلوغ الكمال الانسانى بالتدريج• وهذا التدرج صفة مميزة للتربية الاسلامية ذلك أن التربية الأخلاقية تتأتى للفرد بالتدرج • وقد كان الاسلام نفسه فى أول أمره تربيـــة متدرجة للعرب •• فقد نزلت آياته وأحكامه بالتدرج لفترة تزيد قليلا عن ثلاث وعشرين سنة •

ويعتبر التدرج فى التربية الأخلاقية أساسا من الأسس المعروفة فى التربية الاسلامية • فالتربية نفسها عملية أخلاقية واكتساب الأخلاق بما فيها التحلى بالفضائل والترفع عن الرذائل عملية تحتاج الى وقت حتى يكتسب الانسان السلوك المطلوب والعادة المرغوبة • ان الاسلام فى تربيته للمسلمين الأوائل لم ينتقل بهم طفرة من أخلاقهم القديمة الى الأخلاق الاسلامية الجديدة • انما تدرج معهم فى الأمور حتى تؤتى التربية نتائجها وثمارها •

وهكذا لم يكلف المسلمون فى أول عهدهم بالاسلام بما يشق غليهم فعله أو تركه وسلك الاسلام بهم سبيل التدرج والرفق حتى يتهيأوا للتكليف فالصلاة مثلا فى أول الأمر لم تفرض عليهم خمس مرات فى اليوم بل طلبت منهم صلاة بالغداة والعشى ، ولم تفرض عليهم الزكاة والصيام الا بعد الهجرة بسنة ، وكان التكليف قبل ذلك بما استطاعوا من صدقة أو صوم •

ومن المعروف أيضا أن تحريم الخمر على المسلمين تم على مراحل وبعد أن تدرج القرآن معهم حتى انتهى بهم الى تحريمه بطريقة طبيعية•

ولم يحرم عليهم الميسر وكثير من عقود الزواج والربا والمعاملات التى كانوا يتعاملون بها فى جاهليتهم الا بالمدينة[١] .

وقد اهتم الاسلام بتوفير الضمانات المناسبة لتنشئة الخلـــف الصالح فأوصانا بأن نتخير منذ البداية لنطفنا فان العرق دساس كما طالبنا باختيار الزوجة الصالحة المتدينة لأنها أساس تربية الأبناء وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما ورث والد ولدا خيرا من أدب حسن) وقد اهتم الاسلام بتنشئة الطفل منذ ولادته .

ويشير الغزالى الى أهمية المرضعة وأثر لبنها على أخلاق الطفل الرضيع ، فيقول : « فلا يستعمل فى حضانته وارضاعه الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال فان اللبن الحاصل من الحَرام لا بركة فيه فاذا وقع عليه نشوء الصبى تعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه الى ما يماثل الخبائث »[٢] .

وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : (لا تسترضعوا الورهاء) أى الحمقاء .

ويقول ابن سينا (فاذا فطم الصبى عن الارضاع بدىء بتأديبه ورياضته قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة . وتفاجئه الشيم الذميمة.. فان الصبى تبادر اليه مساوىء الأخلاق وتنثال عليه الضرائب الخبيثة فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة ولا عنه نزوعا .. فينبغى لمعلم الصبى أن يجنبه مقابح الأخلاق وينكب عنه معايب العادات بالترغيب والترهيب بالايناس والايحاش وبالاعراض والاقبال وبالحمد مرة وبالتوبيخ أخرى ما كان كافيا[٣] .

---

(١) عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقة — مطبعـــة النصر — القاهرة ١٩٥٠ ص ٢٨٩ .

(٢) الغزالى : احياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٧٢ .

(٣) ابن سينا : كتاب السياسة ص ١٢ .

ويميز علماء المسلمين بين مرحلتين رئيسيتين فى التربية الأخلاقية للطفل ، المرحلة الأولى ويسمونها بمرحلة « التخلية » أى تخلية طبع الطفل من كل رذيلة وابعاده عن كل مؤثرات الشر والسوء وعدم مخالطته لقرناء السوء ، فقد نهانا الرسول عن قرناء السوء فقال : « اياك وقرين السوء ، وقال صلى الله عليه وسلم لا تصاحب الفاجر فتتعلم منه فجوره » ، وقال : « والرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال » .

أما المرحلة الثانية فهى مرحلة التحلية والتزكية ويقصد بها تحلية الطفل بالفضائل الكريمة والأخلاق المحمودة عن طريق تشربه لهذه الأخلاق واكتسابه العادات الحسنة من مخالطته للقدوات الصالحة .

والمسلم الكامل هو الذى اكتملت أخلاقه باكمال دينه وايمانه . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (خيركم اسلاما أحاسنكم أخلاقا اذا فقهوا) .

وقد اهتم المربون المسلمون بضرورة مراعاة التدرج فى التعليم ويقول الغزالى فى ذلك :

ان أول واجبات المربى أن يعلم الطفل ما يسهل عليه فهمه لأن الموضوعات الصعبة تؤدى الى ارتباكه العقلى وتنفره من العلم . ويطالب الغزالى المعلم ألا يخوض فى العلم دفعة واحدة بل يتدرج فيه مع مراعاة الترتيب ويبتدىء بالأهم وكذلك ينبغى عليه ألا يخوض فى علم الا بعد أن يستوفى ما قبله فالعلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق بعض .

ونادى ابن خلدون بما نادى به سابقوه من مراعاة التدرج فى تعليم الصبيان ومراعاة قدراتهم . الا أنه يتميز عن سابقيه فيما ذهب اليه القوم بمبدأ التكرارات الثلاثة فى عمليات التعليم . وتشير هذه التكرارات الى ثلاث مراحل متدرجة فى التعليم . يكون التعليم فى

المرحلة الأولى اجمالا وفى الثانية تفصيلا وفى الثالثة تعميقا بدراسة ما استشكل فى العلوم ووسائل الخلاف فيـــه .

ويقـــول ابن خلدون فى ذلك :

« أن تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيـــدا اذا كان عـــلى التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا . يلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ويقرب له فى شرحها على سبيل الاجمال ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهى الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة فى ذلك العـــلم الا أنها جزئية وضعيفة . وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله . ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منهـــا . ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك مـــن الخلاف ووجهه الى أن ينتهى الى آخر الفن فتجود ملكته . ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا الا وضحه وفتـــح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته . هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل فى ثلاثتكرارات . وقد يحصل للبعض فى أقل من ذلك حسب ما يخلق له ويتيسر له » .

ويعيب ابن خلدون على المعلمين الذين يجهلون الطريقة الصحيحة للتعـــايم وأنهم يقدمون للمتعلم فى أول عهده بالتعليم المسائل الصعبة أو المشكلة مما يعوق تعليمه . يقول ابن خلدون .

« وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طريق التعليم وافادته ويحضرون للمتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العام ويطالبونه باحضار ذهنه فى حلها ويحسبون ذلك مرانا عـــلى التعليم وصوابا فيه . فان قبول العلم والاستعدادات لفهمـــه تنشـــأ تدريجيا . ويكون المتعلم فى أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة الا فى الأقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالأمثلة الحسية » .

١٠ ـ التربيـة الاسلامية تربيـة محافظـة مجـددة :

التربية الاسلامية تربية محافظة مجددة ، فهى محافظة بما تقوم عليه من مبادىء سماوية خالدة راسخة ثابتة ، وقيم أصيلة عريقة تمتد بجذورها فى التاريخ الى ما يقرب من أربعة عشر قرنا من الزمان • وتعمل التربية الاسلامية على استمرار هذه المبادىء والتقاليد والقيـم ونقلها الى الأجيال الاسـلامية المتعاقبة •• وهى بهـذا تقوم بالدور الأصيل للتربية فى التنشئة الاجتماعية للأفراد وتشكيل شـخصياتهم الانسانية الاسلامية ليشبوا مسلمين • ولكن التربية الاسلامية ليست تربية محافظة فحسب وانما هى تربية أيضا مجددة •• فالاسلام صالح لكل زمان ومكان والمسلمون تتجدد أحوالهم بتجدد ظروف هذا الزمان والمكان ، ولذلك كان على التربية الاسلامية أن تكون متجددة لتواجـه متطلبات العصر ولتفى بالمطالب المتجددة لحاجات المسلمين ومصالحهم على مر العصور والأزمان •

١١ ـ التربيـة الاسلامية تربيـة انسانية عالميـة :

فهى تربية بعيدة عن التعصب أو التمييز العرقى أو الاجتماعى • فلا شعوبية فى الاسـلام ولا فضـل لعربى على عجمى الا بالتقوى وصالح العمل قال تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم »• وورد عن النبى صلى الله عليه وسلم : (كلكم لآدم وآدم من تراب) ، وهى تربية لا تختص بها فئة من الناس ولا تقتصر على طبقة مميزة دون طبقة وانما هى تربية يتساوى فيها الجميع والتفاضـل بينهم يكون على أساس التقوى والايمان لا الحسب والنسب والجاه •

والمسلمون متساوون فى العبودية المطلقة لله عز وجل • وقد ألزم الاسلام نبيـه بالعدل « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »، كما أمره بالمساواة فى المعاملة بين الناس دون أى تمييز فالمسلمون سواء

فى الحقوق أو التكاليف والمسئوليات ، ويقول عليه الصلاة والسلام : (المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم حرب على من سواهم) ، والتربية الاسلامية تربية انسانية لأنها تقوم على أخوة الايمان. « انما المؤمنون اخوة » ، « والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره » ، فالمسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ومن كل عرق ولون ولغة أعضاء فى الأسرة الاسلامية الواحدة يؤلف الاسلام بين قلوبهم ويجمعهم على قلب رجل واحد فى جسد واحد ، وهى تربية عالمية لأن الاسلام رسالة عالمية جاءت للناس كافة وعالمية الرسالة الاسلامية تعنى أيضا عالمية التربية الاسلامية •

الاسلام والكون (مدخل أنطولوجى) :

انقسم الفلاسفة فى نظرتهم الى حقيقة الكون وجوهره • فقال بعض الفلاسفة بأن طبيعة الكون مادية وآخرون قالوا بأن طبيعته روحية • ومجموعة ثالثة قالوا بأنها روحية مادية • وهذا هو منشأ الفلسفة الثنائية • وهؤلاء الثنائيون انقسموا فيما بينهم حسب تغليبهم لأى من الجانبين على الجانب الآخر •

فبعضهم مهتم بالجانب الروحى أكثر من المادى هم المثاليون فهم يرون أن الروح هى الأصل أو الجوهر والمادة مظهر لها •

ان الفلسفة المثالية تؤمن بالروح وتضعها فى مرتبة أرقى من المادة • ويعبر رونيه اوبير عن هدف التربية فى ظل هذه الفلسفة فيقول :[١]

« وهدف التربية أن تقود الانسان من طبيعته المعطاة الى جوهره المثالى وأن تعينه على التخلص من الأولى وأيضا على استخدامها وتكييفها » •

---

(١) رونيه أوبير : التربية العامة ـــ ترجمة عبد الله عبد الدايم ، دار العلم للملايين ـــ بيروت ، ص ٢٦٨ .

أما الفلسفة الواقعية فهى تقوم على أساس أن الواقع المادى هو أساس هذا الكون وهى تؤمن بالروح والمادة معا الا أنها تعطى الجانب المادى والحسى فى حياة الانسان أهمية على الجانب الروحى. وتهتم التربية فى ظل هذه الفلسفة بالواقع المادى والطبيعى والاجتماعى الى جانب الايمان بوجود الروح ووجود الله .

أما الفلسفة التكاملية فتقوم على تكامل النظرة الى كل من المادة والروح . ولكلاهما نفس الأهمية فى ظل هذه الفلسفة وقد عبر سير ريتشارد لفنجستون فى كتابه « التربية لعالم حائر » عن هذه الفلسفة يقول (١) : « اننا نعيش جميعا فى عالمين : عالم مادى وعالم روحى وهذا العالم الروحى هو عالم القيم . ولو أننا ضحينا به فى مذبح العلوم أو الاقتصاديات لكان فى ذلك هلاكنا » .

وهدف التربية فى نظر هذه الفلسفة هو النمو المتكامل للشخصية الانسانية . وقد فرض هذا الاتجاه نفسه على الفكر التربوى فى العصر الحديث ونادى به كثير من المربين وأصحاب النظريات التربوية .

والفكر الاسلامى يقوم أيضا على تكامل النظرة الى كل من المادة والروح باعتبارهما مظهرين متكاملين للكون والحياة . وهناك عدة نقاط رئيسية ينبغى أن نبرزها فى نظرة الاسلام للكون هى :

١ — ان هذا الكون هو من بديع صنع الله عز وجل ، فالله سبحانه وتعالى هو خالق كل مظاهر الحياة فى هذا الكون وما فيه من ثروات طبيعية وأجناس من الطير والحيوان والنبات . ومن الآيات القرآنية الكثيرة الدالة على ذلك نستشهد بما يأتى :

---

(١) سير ريتشارد لفنجستون : التربية لعالم حائر . ترجمة وديع الضبع — مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ ، ص ٤٦ .

ـ « خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواس أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » .

ـ « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » .

ـ « فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم » .

٢ ـ أن خالق هذا الكون وهو الله سبحانه وتعالى إله واحد منزه عن كل الصفات المادية والبشرية غير محدود بزمان ومكان لا تدركه العقول ولا الأبصار ، سرمدى أبدى لا يتغير ولا يتبدل لا شريك له ولا مثيل له . قال تعالى : « لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون » .

لم يلد ولم يولد ، واحد أحد ، فردصمد ، فعال لما يريد بحكمته وعلمه ، سبحانه وتعالى ، وله المثل الأعلى فى الحق والخير والجمال . ونظرا لأن عقل الانسان وتفكيره مهما تقدم وتطور قاصر عن ادراك حقيقة هذه الصفات الالهية فقد دعانا الاسلام الى الابتعاد عن التفكير فى ذات الله حتى لا نضل ونكفر . ووجهنا الى التفكير فى خلق الله وما أبدعه فى هذا الكون من عظيم صنعه وقدرته .

٣ ـ أن هذا الكون لم يخلق عبثا ولا لهوا وانما لحكمة الهية ربانية ، قال تعالى : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين وما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » ، وهو يسير وفق قوانين لا تخطىء ونظام محكم يدل على عظمته سبحانه وتعالى .

ـ قال تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ من النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه

منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

وهو بالغ الاحكام والاتقان « صنع الله الذى أتقن كل شىء » « انا كل شىء خلقناه بقدر » . كما انه ملىء بمظاهر الجمال والزينة . قال تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها » .

وقد ورد فى كتاب « الله يتجلى فى عصر العلم » الذى ألفه مجموعة من العلماء الغربيين قول أحد العلماء : « أينما اتجهت ببصرى فى دنيا العلوم رأيت الأدلة على التصميم ، والابداع والقانون والنظام على وجود الخالق الأعلى » .

٤ — أن هذا الكون ليس ثابتا جامدا وانما هو متحرك متغير وقابل للزيادة . قال تعالى: « يزيد فى الخلق ما يشاء » وقال سبحانه وتعالى : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » . « وان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » .

٥ — أن الله سبحانه وتعالى قد استخلف الانسان فى هذا الكون دون سائر خلقه لما حباه الله من تفضيل وتكريم عليهم وزوده بالعقل والتفكير الذى يمكنه من السيادة على الكون وتسخير ما فيه من قوى طبيعية وثروات وامكانيّات من أجل خدمته وراحته ومنفعته وتقدمه ورقيه . قال تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ». « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » .

وقال تعالى : « الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وأتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار » .

٦ ــ أن هــذا الكون ليس واديا للدموع كما تقول المســيحية وليس دارا للبلاء والعذاب والتكفير عن الذنب والخطيئة الكبرى لآدم وانما هو دار جعل الله لنا فيها متاعا ومستقرا الى حين وعلى الانسان أن يشكر الله عليه . قال تعالى : « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » . « وجعلنا لكم فيها معــايش قليــــلا ما تشــــكرون » . « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » .

لقد لعن العهد القديم الأرض باعتبارها مستقر العصاة والآثمين لأن آدم نزل اليها بعد أن عصى ربه . وهى لذلك تعتبر دار عــذاب وشقاء لا سعادة للانسان فيها ولا متاع . ونقرأ فى انجيل لوقا (الفصل ١٢ الفقرات ٢٩ ــ ٣٤) قول عيسى عليه السلام لتلاميذه « وأنتــم فلا تبحثوا عما تأكلون وما تشربون ولا تهتموا لذلك لأن هذه الأشياء انما يبحث عنها غير المؤمنين وان ربكم يعرف حاجتكم اليها فابحثــوا بالأحرى عن ملكوت السماء وكل هذه الحاجات ستعطى لكم نافلة .. بيعوا ما تملكون واجعلوه صدقات واتخذوا لكم خزانة لا تنفذ وكنزا لا يفنى فى السماء » . أما الاســـلام فعلى العكس من ذلك لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب سجنت فيها انسانية شريرة وانما هى دار متاع واستمتاع للانسان بحياته كاملا . قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . بيد أن الاسلام كما أشرنا فى اهتمامه بالواقع الدنيوى للانسان يهتم بالجانب الروحى بدرجــة مساوية . وهو بذلك يمتد بحياة الانسان الى ما هو أبعــد من حياة الأرض القصيرة ليعده لحياة سعيدة أبدية فى الآخرة يجد فيهــا كل النعيم وما لم يخطر على قلب بشر . قال تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيهــا من كل الثمرات ومغفرة من ربهم » .

ان على المسلم ألا يذم الدنيا . وقد ذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال على : « الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها ومهبط وحى الله ومصلى ملائكته ومسجد أنبيائه ومتجر أوليائه ربحوا فيها الرحمة واكتسبوا فيها الجنة » .

ويحكى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن الربيع بن زياد الحارثى شكا اليه عاصم بن زياد لأنه لبس العباءة وترك الملاءة وغم أهله وأحزن ولده . فأرسل على رضى الله عنه فى طلب عاصم فلما جاء عبس فى وجهه وقال :

ويلك يا عاصم أترى الله أباح لك اللذات وهو يكره أخذك منها ؟ لأنت أهون على الله من ذلك .... أو ما سمعته يقول ... ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها » . والله ان ابتذال نعم الله بالفعال أحب اليه من ابتذالها بالمقال . وقد سمعته عز وجل يقول : « وأما بنعمة ربك فحدث » .... وان الله عز وجل خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » .

المعرفة فى الاسلام (مدخل ابستمولوجى) :

شغل علماء المسلمين بالبحث فى العلوم والمعارف وأنواعها وتصنيفاتها والمفاضلة بينها .

ويقول ابن خلدون : « ومن الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الاسلامية أكثرهم من العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا فى القليل النادر . وان كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربى » .

« والسبب فى ذلك أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ... والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين » .

وقد فاضل علماء المسلمين بين العلوم شريفها ووضيعها ومحمودها ومذمومها . وكانت الفلسفة أكثر العلوم موضعا للجدل . فقد نظر اليها الغزالى على أن كثيرها مذموم لما تؤدى اليه من الشك والالحاد . واعتبرها ابن خلدون صناعة عاطلة .

وقد ورد عن الجاحظ أنه مدح الفلسفة وذمها فيما مدحه وذمه من العلوم معبّرا عن قدرته على الكلام وبعد شأوه فى البلاغة . قال مادحا الفلسفة : انها أداة الضمائر وآلة الخواطر ونتائج العقل وأداة لمعرفة الأجناس والعناصر وعلم الأعراض والجواهر وعلل الأشخاص والصور واختلاف الأخلاق والطبائع والسجايا والغرائز .

وقال فى ذم الفلسفة : انها كلام مترجم وعلم مرجم بعيد مداه قليل جدواه مخوف على صاحبه سطوة الملوك وعداوة العامة .

ومن المعروف أن الجاحظ كان من المعتزلة وهى احدى فرق الكلام الاسلامية التى تحتكم الى العقل فى منهجها الفلسفى (١) .

وهكذا نجد أن المتقدمين من المسلمين قد اختلفوا فى تقديرهم للفلسفة بين مادح وقادح لكنهم لم يصلوا الى درجة المبالغة فى معاداة الفلسفة وتحريم الاشتغال بها على غرار ما نجد عند بعض علماء المسلمين الذين جاءوا فى فترة متأخرة . فالشهرزورى أحد علماء القرن الثالث عشر يذكر فى فتواه فيمن يشتغل بالمنطق والفلسفة تعلما وتعليما قوله :

---

(١) مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية — النهضة المصرية — ١٩٦٦ ، ص ٨٢ .

الفلسفة اس السفه والانحلال ومادة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة .... ومن تلبس بها تعليما وتعلما قارنه الخذلان والحرمان واستحوذ عليه الشيطان ... وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ومدخل الشر شر وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه من اباحة الشارع ولا استباحة أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين ... ومن زعم أنه يشتغل مع نفسه بالمنطق والفلسفة لفائدة يزعمها فقد خدعه الشيطان ومكر به . فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم ويخرجهم عن المدارس ويبعدهم ويعاقب على الاشتغال بفنهم(١) .

ويذكر الشيخ جمال الدين أبى بكر محمد بن العباس الخوارزمى عالم القرن العاشر الميلادى فى الرد على الفلاسفة :

هم قوم من اليونانيين تحذلقوا فى المعقولات حتى وقعوا فىوادى الحيرة والخباط ... ويزعمون أنهم أكيس خلق الله وسياق مذهبهم يدل على أنهم أجهل خلق الله وأحمق الناس . وأساس الالحاد والزندقة مبنى على مذهبهم والكفر كله شعبة من شعبهم . وكانوا يترهبون لقطع النسل ورئيسهم أفلاطون الملحد لعنه الله واخوانه كأزسطاليس وسقراط وجالينوس كلهم ملاحدة العصر وزنادقة الدهر يقينا .... ثم ان الله سبحانه وتعالى علمخبث سرائرهم فأرسل الله عليهم سيلا ففرقهم . وعلومهم المشئومة عربتها أقوام فى عهد المأمون الخليفة باذنه ووصيته ... فهم مشركون ملحدون لعنهم الله(٢) .

وواضح هنا أن الكلام عن الفلسفة اليونانية ولا يمكن أن يفهم منه أن الخوارزمى يعادى الفلسفة بصفة عامة . بل ان الخوارزمى يورد

---

(١) نقلا عن مصطفى عبد الرازق : المرجع السابق ، ص ٨٥-٨٦ .

(٢) المرجع السابق صص ٨٧—٨٨ نقلا عن الخوارزمى : « مفيد العلوم ومبيد الهموم » المطبعة الشرقية ١٣٢٨ هـ ، صص ٦١ — ٦٢

فى نفس الكتاب ما يؤكد أن النظر والتفكير واجب بل هما من الفرائض الاسلامية . ولعل هذا ماحدا بمؤلف العبقريات الاسلامية أن يجعل عنوان أحد كتبه : التفكير فريضة اسلامية . أليس هذا سندا شرعيا كافيا للفلسفة ؟

وهناك مثال آخر للعلماء المعادين للفلسفة الذين ظهروا فى فترة متأخرة نجده فيما يذكره أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى عالم القرن السادس عشر الميلادى فى كلامه عن موضوعات العلوم فيقول : واياك أن تظن من كلامنا هذا أو تعتقد كل ما أطلق عليه اسم العلم حتى الحكمة المموهة التى اخترعها الفارابى وابن سينا ونقحها نصير الدين الطوسى ممدوحا . هيهات هيهات ان كل ما خالف الشرع فهو مذموم سيما طائفة سموا أنفسهم حكماء الاسلام عكفوا على دراسة ترهات أهل الضلال وسموها الحكمة وربما استجهلوا من عرى عنها وهم أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله المحرفون علم الشريعة عن مواضعه . ولا تكاد تلقى أحدا منهم يحفظ قرآنا ولا حديثا وانما يتجملون برسوم الشريعة حذرا من تسلط المسلمين عليهم ... فالحذر الحذر منهم وان الاشتغال بحكمتهم حرام فى شريعتنا(١) .

وعلى النقيض من ذلك نجد اخوان الصفاء يعتبرون الفلسفة أشرف الصنائع البشرية بعد النبوة . واعتبرها آخرون ضرورية لفهم الدين بل ان الشرع يحدث على تعلمها . ويقول ابن رشد فى « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ان النظر فى الفلسفة وعلوم المنطق مباح بالشرع بل ان الشرع يحث على تعلم الفلسفة لأن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات كما أن الشرع قد حث على معرفة الله تعالى وسائر موجوداته بالبرهان . وكان من الأفضل أو الأمر الضرورى لمن أراد أن يعرف الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات

---

(١) المرجع السابق ص ص ٨٦—٨٧ .

بالبرهان أن يعرف أنواع البراهين وشروطها وكيف يختلف القياس البرهانى عن القياس الجدلى والقياس الخطابى والقياس المغالطى • وهذا بدوره يقتضى معرفة القياس وأنواعه وأجزائه ومكوناته وغير ذلك من الأساليب التى تقتضيها طبيعة النظر فى الموجودات •

ويعرض الغزالى لفكرة أهمية العقل وضرورته كأساس فيقول : « فالعقل كالأس والشرع كالبناء ولن يغنى أس ما لم يكن بناء • ولن يثبت بناء ما لم يكن أس ••• فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان » [1] •

ويقول ابن رشد فى نفس المعنى : ان الحكمة هى صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة » •

ويقول الدكتور دراز :[2]

« ان من الأهداف الرئيسية للفلسفة معرفة أصل الوجود وغايته ومعرفة سبيل السعادة الانسانية فى العاجل والآجل وهذان أيضا موضوعا الدين بمعناه الشامل للأصول والفروع » •

يقول فرانسيس بيكون فى الرد على اتهام معاصريه له بالالحاد :

« ان القليل من الفلسفة يميل بعقل الانسان الى الالحاد ولكن التعمق فيها ينتهى بالعقول الى الايمان ذلك لأن عقل الانسان قد يقف عندما يصادفه من أسباب ثانوية مبعثرة فلا يتابع السير الى ما وراءها ولكنه اذا أمعن النظر فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها لا يجد بدا من التسليم بالله » •

---

(١) الغزالى : معارج القدس — المكتبة التجارية الكبرى ، ص ٤٦ .

(٢) محمد عبد الله دراز : الدين — القاهرة ١٩٥٢ — ص ٥٣ .

كل تلـك الأمثلة السابقة أردنا أن نوضح بهـا الصلة بين الدين والفلسفة • وقد درس علماء المسلمين أيضا علاقة المنطق بالفلسـفة ويمثل علم المنطق فى نظر اخوان الصفاء وغيرهم ميزان الفلسفة وأداة الفيلسـوف •

وقد اختلف علماء المسـلمين فى المفاضلة بين العـلوم الحسـية والعلوم العقلية أو النظرية فذهب فريق منهم أبو العباس القلانسى الى تفضـيل العلوم النظـرية على الحسـية • وذهب فريق آخر منهم أبو الحسن الأشعرى الى تفضيل العلوم الحسية على العلوم النظرية لأنهـا أصول لهـا •

ويقول ابن خلدون فى المقدمة : « وأما العلوم العقلية أيضـا فلم تظهر فى المـلة الا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة ، فاختصت بها بالعجم وتركها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها الا المعلمون من العجم شأن الصنايع كما قلنا •

وقد قسم ابن طاهر البغدادى العلوم النظرية أى التى تعتمـد على النظر والعقل الى أربعة أقسام :

ـ القسم الأول يقوم على الاستدلال بالعقل والقياس مثـل مباحث الغيبيات والالهيات والوجود وغيرها •

ـ القسم الثانى يقوم على التجارب والعادات مثل علوم الطب والدواء والحرف والصناعات •

ـ القسم الثالث هى العلوم المعلومة من جهة الشرع مثل معرفة أصول الدين وأحكام الفقـه •

ـ القسم الرابع هى العلوم المتحصلة عن طريق الالهـام وهى علوم يختص بها بعض الناس دون البعض مثل معرفة فنون الشـعر وصناعة الألحان وما شابهها •

وقد شغل المسلمون بالحديث عن طبيعـة المعرفة فى الاسـلام وتكلموا عن خصائصها وقد انقسموا ازاءها الى رأيين :

أحدهما يرى أن المعرفة توقيفية أى أنهـا توقيف من الله عـلى عبده ويستدلون على ذلك بقوله سبحانه وتعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » فاذا كان آدم أبا البشر والله سبحانه وتعالى علمـه الأسـماء كلها فهو قد علمها لذريته من بعده • « قالوا سبحانك لا علم لنـا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم » •

والرأى الثانى يرى أن المعرفة مكتسبه وهو رأى يستند الىأسانيد من القرآن الكريم منها قوله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »•

كما شغل علماء المسلمين بالحديث عن المعرفة وأنواعها ومصادرها ويمكن القـول بأن أهـم أنواع المعـرفة التى تقـوم عليها التربيـة الاسلامية هى :

١ — المعـرفة اللدنيـة :

المعرفة اللدنية هى المعرفة التى يكشفها الله للانسان ، والله عز وجل فى معرفته غير المحدودة يلهم بعض الناس المختارين ويوحى لهم بتعاليمه ليحملوها الى الناس وتكون متاحة أمام جميع الجنس البشرى• وهذه المعرفة بالنسبة للمسلمين توجد فى القـرآن الكريم والسنة • والشخص يتقبلها على أساس الايمان ويعمل على دعمها كلما أمكن ذلك بالعقل والخبرة • والمسلم الصحيح هو الذى يتقبل ما جاء من عنـد الله على لسان نبيه الكريم على أنه الحق الذى لا يأتيه الباطل، من بين يديه ولا من خلفـه •

فالقرآن أو الكتاب هو كلام الله تعالى ، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، بلسان عربى مبين ، تبيـانا لمـا به صـلاح النـاس فى دنيـاهم وأخراهم •

وهو حجة واجبةِ العمل بما ورد فيه من أحكام ، وهو قانون واجب الاتباع والرجوع اليه ، ومصدر التشريع وأحكامه ، ومنبع هداية وارشاد ، والدليل على ذلك أنه من عند الله وقد احتوى على الأمر الصريح بوجوب اتباعه ، والعمل بما تضمنه من الأحكام .

قال تعالى : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » .

ويمكن أن نستمد المعرفة من القرآن فيما يتعلق بالأمور الآتية :

١ — العقائد التى يجب التصديق بها كالايمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وهو الحد الفاصل بين الايمان والكفر .

٢ — الدعوة الى الأخلاق الفاضلة التى تهذب النفوس وتصلح من شأن الفرد والجماعة .

٣ — الارشاد وطلب النظر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله فيها .

٤ — قصص الأولين أفرادا وجماعات .

٥ — الأحكام العملية ، فقد وضعها أو وضع أصولها وكلفنا اتباعها وما ينظم علاقة البشر بربهم ، وعلاقتهم مع بعضهم .

والسنة فى اللغة الطريقة ، فاذا أضيفت الى الرسول صلى الله عليه وسلم لفظا أو دلالة كان المراد ما أثر عنه من قول أو فعل أو تقرير .

والسنة هى المصدر الثانى من مصادر التشريع الاسلامى وهى مكملة له .

وتنقسم السنة الى قسمين :

ــ السنة المتواترة : وهى ما رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع عن جمع يستحيل عادة تواطؤهم على الكذب وذلك من أول السند الى منتهاه •

ــ السنة غير المتواترة : وتسمى السنة الآحادية عند غير الحنفية • وهى التى لم تتواتر فى جميع العصور الثلاثة •

وقد أثبت المحققون من العلماء كثيرا من الأحكام التشريعية بالسنة القولية والعملية واعتبروها حجة ، وأصلا من أصول التشريع ، ومصدرا من المصادر الشرعية • والدليل قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » •

وهذا النوع من السنة هو ما يعرف بالسنة التشريعية الملزمة هناك نوع آخر من السنة لا يحمل طابع التشريع أو الالزام وهو يشمل الأحاديث التى تتعلق بحياة الرسول البشرية مثل حبه لبعض الأطعمة والأشربة واللباس وما شابه ذلك من الأحاديث التى لا تمت بصلة مباشرة الى الشريعة بمعناها العام ولقد وضح النبى (ص) ذلك بقوله : « أنتم أعلم بأمور دنياكم فانما أنا بشر اذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشىء من رأيى فانما أنا بشر » •

يقول الراغب الاصفهانى (٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م) أحد أئمة السنة فى كتابه : « تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين » واعلم أن العقل بنفسه قليل العناء لا يكاد يتوصل الا الى معرفة كليات الأشياء دون جزئياتها ••• والشرع يعرف كليات الأشياء ويبين ما الذى يجب أن يعتقد ولا يعرفننا العقل مثلا أن الخنزير والدم والخمر محرم وألا تنكح ذوات المحارم والا تجامع المرأة فى حال الحيض فان أشباه ذلك لا سبيل اليها الا بالشرع • فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة والدال على مصالح الدنيا والآخرة [١] •

---

(١) نقلا عن : مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٨٣ •

٢ ـ المعـرفة الوثقى :

هذه المعرفة تصدر عنكبار العلماء والمختصين • فالمعرفة الموجودة بدوائر المعارف الاسلامية ، والفتاوى الكبار المشهورة وكذا أمهـات الكتب الاسلامية مثل الرسائل العلميـة والمطبوعات المتخصصـة التى اضطلع بها أناس متمكنون معترف بهم كلها أمثلة للمعرفة الوثقى ولهذه المعرفة قيمتها الكبرى لأنها تصدر عن مصادر موثوق بها • ويحدث ذلك فى كل العلوم بصرف النظر عن طبيعتها الدينية أو العلمية ونحن مثلا فى التعليم المدرسى نقبل دون مناقشة صـيغا لحل بعض المســائل الرياضية مثـلا أو نستظهر بعض القواعد والصيـغ والقـوانين أو المعـادلات أو الصيـغ ، وبوسعنا أن نتحقق من صحـة هـذه الصيغ والقوانين شخصيا ، ولكننا نفضل تقبلها بقصـد الاقتصاد فى الوقت والجهد ، وفى نهاية الأمر تحظى هذه القـواعد بالاحترام فى أنظـار الثقاة فى العلم لمدة طويلة • وكثير من معرفتنا الواقعية يقوم على الثقة ، وكثير منها سجل للمنجزات والخبرات والوقائع التى اكتسبت هذه الثقة وأصبح لها قيمة كافية لتخليدها والاحتفاظ بها •

٣ ـ النقـل عن السـلف :

وهو ما يمثل مسلك الخبر الصادق الذى يفيد العلم والمعرفة • وهناك أخبار مقطوع بصدقها مثل أخبار القرآن الكريم ورسله وأنبيائه ومن هم فى مرتبتهم • وهناك الأخبـار التى يرجع صـدقها واشترط الاسلام لقبولها بالنسبة للاخبار العادية من علمية وتاريخية أن يتوفر فى صاحبها ثلاثة شروط : العدالة وهى ألا يكون قد عهد عليه كذب أو معصية والأهلية الفكرية لنقل الأخبار دون تعرض لنسيان أو اضطراب وأخيرا اتصال الراوى بمصدر الخبر أو بمن رواه •

ويعتبر النقل عن السلف مصدرا من مصادر المعرفة فى الاسلام، وهو يمثل خلاصة تجارب أسلافنا الصالحين وخبرتهم ويهمنا أن نعرف

ما قاله هؤلاء السلف حتى ننسج على منوالهم ونواصل حياتنا من حيث انتهوا اليه . ولهذا يجب أن نهتم بتراثنا الأصيل وأن نخلصه من الشوائب ونقدمه لشبابنا ونشئنا فى صورة مقبولة تحببهم فيه .

٤ ـ التقليد :

عقد ابن عبد البر النمرى القرطبى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ فصلا فى كتابه جامع بيان العلم وفضله عن : « فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع [١] . وقد أورد قول ابى عبد الله بن خويزمنداد البصرى المالكى ان التقليد معناه فى الشرع الرجوع الى قول لا حجة لقائله عليه وذلك ممنوع منه فى الشريعة . والاتباع ماثبت عليه حجة والتقليد فى دين الله غير صحيح ... والاتباع فى الدين ممنوع والتقليد ممنوع[٢] قال تعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » .

ويقول ابن عبد البر ان العلماء لم تختلف فى أن العامة عليها تقليد علمائها وأنهم المرادون بقول الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

ويقصد بالتقليد فى معنى من المعانى المعرفة التى تؤخذ عن رجال يطمأن عليهم ويوثق فى علمهم وهو ما صنفناه تحت المعرفة الوثقى . ولكن التقليد الذى نقصده هنا هو الاقتداء تمشيا مع قوله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » وقد ضرب لنا الرسول (ص) مثلا عندما قال لاصحابه « صلوا كما رأيتمونى أصلى » والتقليد بهذا المعنى مصدر من مصادر المعرفة .

---

(١) ابن عبد البر النمرى القرطبى : جامع بيان العلم وفضله ص ١٣٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٣ .

بيد أن ما يعنيه الاسلام هو التقليد الواعى الحكيم الذى يتحقق به منفعة محققة للانسان • أما التقليد الأعمى فهو مكروه فى الاسلام لما يترتب عليه من عـــدم تمييز بين الخـــير والشر والحق والباطل والصالح والطالح ، والانسان قد يتوصل الى أشياء مفيدة ونافعـــة نتيجة أجتهاداته الشخصية وتقليده فى هذه الحــــالة مفيد ، وكذلك يصبح تقليد القدوة الصالحة مسلكا مرغوبا فى الاســـلام حث عليـــه كمنهج سليم للتربية وضرب له مثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير • ومن الأمور العادية المعروفة أن الصـــغير يقلد الكبير والابن يقلد أباه والبنت تقلد أمها والتلميذ يقلد معلمـــه • والتقليد مهم اذن فى التربية الخلقية وفى تزكية الســـلوك الرشـــيد • والتقاليد تترسخ بالتقليد وهى نقطة هـــــامة ينبغى أن تولى التربية اهتمامها بها وأن تكون المدرسة نمـــوذجا يقتـــدى للتقاليد الاســـلامية السليمة •

٥ ــ المعرفة العقلية

من المعارف ما يكتسب عن طريق العقل والتأمل الفكرى من مسالك اكتساب المعارف والعلوم وما يرتبط بذلك من تحليل وتركيب وقيـــاس واستنتاج وربط • والقرآن الكريم حافل بالأمثلة التى تحث المســـلمين على استخدام عقولهم وتفكيرهم فى الاختيار والتمييز والمفاضلة بل وتحث المسلمين أيضا على تحكيم العقل فى الأمور التى لم يرد فيهـــا نص دينى صريح ولقد ارتقى الله بالانسان بأن جعل له عقلا يميز بـه وهو مطالب بأن يستخدم هذه النعمة التى أنعم الله بها عليه • والعقل مصدر هام للمعرفة التى منها نستمد أحكاما يتسق بعضها مع بعــض• فمثلا نجد أن الحقائق المنطقية والرياضية هى أنواع من المعرفة التى تحتكم الى العقل • خذ مثلا القضية القائلة بأن القولين المتناقضـــين لا يمكن أن يكونا صادقين فى نفس الوقت ، أو القضية القـــائلة بأن الخطين المتوازيين لا يلتقيان • فهاتان القضيتان مستقاتان عن الأمثلة

الواقعية وغير مستمدتين من الحواس • انهما صحيحتان بغض النظر عن خبرتنا بهما • وهؤلاء الذين يؤكدون أن العقل هو العامل الهام فى المعرفة فى شكل حقائق مجردة وفى شكل انطباعات ، منفصلة • ولكنهم يعتقدون أن الفكر يقوم بتفسير وتنظيم هذه الأجزاء الضـئيلة من المعلومات فيما يمكن أن نطلق عليه اسم المعرفة الثابتة ذات القيمة •

أن المعرفة عند ابن سينا تنقسم الى ثلاثة أنـواع : معـرفة بالفطرة ، ومعرفة بالفكرة ، ومعرفة بالحدس ، فأما المعرفة بالفطرة فهى معرفة المبادىء الأولى كقولنا « ان الواحد نصف الاثنين » • وأما المعرفة بالفكرة فهى معرفة مكتسبة وتكون أكبر من مجهـود النـوع الأول ولا يدركها الا من وصل الى مرتبة العقل المســتفاد • وهناك نوع ثالث من المعرفة هو المعرفة بالحدس •• فمن الناس من لايحتاج فى أن يتصل بالعقل الفعال الى كبير عناء والى تخـريج وتعليم ، بل تراه كأنه يعرف كل شىء بنفسه حدسا بلا قياس وبلا معلم كأن فيـه روحا قدسية • وهذا الاستعداد الحدسى ليس على درجة واحدة فى جميع الناس وانما هو متفاوت تفاوتا لا ينحصر فى حد •

على أن المعرفة المستفادة من خلال العقل لها حدود هامة • فهى تنحو الى أن تكون مجردة • ذلك أنها تتناول عالم العلاقات والمعـانى ولا تقدم سوى فهم ضئيل لعالم الأشياء • وحيث أن حياتنا منغمسه بلا مناص فى العالم الفيزيائى المادى ، فاننا بحاجة الى عون من الأنماط الأخرى من المعرفة وأكثر من هذا فان عملياتنا العقلية قد تكون متأثرة بالتحيزات والاهتمامات والميول التى تمنع العقل فى الغالب من أن يكون موضوعيا •

ويستخدم العقل الصرف فى نطاق أضيق فى الوقت الحاضر عما كان عليه الحال فى العصور القديمة للفلسفة عندما اعتقد الانسان أن العقل وحده هو المهيمن • ومع هذا فما يزال هو الفيصل والقاضى فى المعرفة اذا ما أريد للمعرفة أن تكون معقولة • فهنا يجد العقل نفسه فى وضع

صعب بلا ريب • وذلك لأن العقل البشرى كما يبدو يجب أن يحكم على نفسه بالفعل • وقد حث الاسلام على استخدام العقل والتفكير وجعلهما أساسا للمسلم الحق الذى يتقى الله حق تقاه • قال تعالى : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » • وقد جعل الاسلام العقل أساس التكليف وأسقط التكاليف عمن ذهب عقله أو أصابه الخبل ومن لا يعقل فهو من شر الدواب • قال تعالى : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم العمى الذين لا يعقلون » •

ومن أهم مبادىء الاسلام : « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » وقد أشار الغزالى الى هذا بقوله : « أن يقتصر المعلم بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى اليه مالا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله » •• وقد اقتدى الغزالى فى ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم عندما قال :

« نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم » •

فقد وضع الدين الاسلامى العقل موضعا عظيما فجعل طريقه هداية للناس بمدى كمال عقولهم فلا يخاطب العاقل بما يخاطب به الجاهل ولا يخاطب ذوو العقول الخفيفة بما يخاطب به العقلاء ذوو العقل الكامل ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم الا كان فتنة على بعضهم » •

فهنا يراعى الرسول صلى الله عليه وسلم مستوى العقول رعاية عظيمة فلا يخاطب الأذكياء بما يخاطب به الأغبياء ، ولا يخاطب الخاصة بما يخاطب به العامة ، فالذكى يفهم الشىء بالاشارة ، والغبى ربما لا يفهمه الا بعد أن يكرر له عدة مرات ولذلك قيل : لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك وضع كل شىء فى موضعه •

ويعتبر الاجتهاد نمطا من أنماط المعرفة ومصدرا من مصادرها فى التربية الاسلامية وقد كان الاجتهاد دائما دليلا على تقدم المسلمين ورقيهم لأنه يساعدهم على تطويع أمور دينهم لدنياهم على اختلاف أحوالها على مر السنين • ويرتبط الاجتهاد بالعقل والقياس كما أنه يرتبط بالمعرفة الوثقى التى سبق أن عرضنا لها •

٦ — المعرفة الحسية

تعرف المعرفة التى تأتى عن طريق الحواس بالمعرفة الحسية • فنحن نشكل صورتنا عن العالم من حولنا عن طريق البصر والسمع والشم واللمس والذوق وبذا تتكون المعرفة من أفكار تتشكل وفق وقائع تمت ملاحظتها • ونحن نكتسب المعرفة الحسية عندما نرى أو نسمع أو نلمس أو نشم أو نتذوق بينما نكتسب المعرفة العقلية عندما نتأمل الأشياء من خلال العقل » •

فهناك من المعارف ما يكتسبه الانسان عن طريق استخدام الحواس الظاهرة بشكل مباشر • فمن الأشياء ما يبصر بالعين أو يلمس باليد أو يشم بالأنف وهكذا ••• « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » • « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » وهذه الحواس تساعدنا على ادراك ما حولنا فى الكون والفضاء وما يجرى فيه من أمور مختلفة من حركات وسكنات وألوان وأصوات وغيرها • ونحس بالأشياء احساسا مباشرا الصلبة منها واللينة والثقيلة والخفيفة كما نحس بالسعادة والحزن والألم والفرح والحب والكراهية وغير ذلك من المشاعر والأحاسيس •

ويؤكد الفارابى فى نظريته للمعرفة على أهمية الحس فيقول : « فالمعارف انما تحصل على النفس بطريقة الحس » •• ويستشهد بقول ارسطو فى كتاب « البرهان » « ان من فقد حسا فقد فقد علما » •• بيد أن الفارابى لا يلغى دور العقل بل يؤكده لأنه يرى أن المعرفة

لا تحصل للانسان بمجرد مباشرة الحس للمحسوسات وانما بعد تدخل قوى نفسية •• يقول الفارابى :

« ••• وقد يظن أن العقل تحصل فيه صورة الأشياء عند مباشرة الحس للمحسوسات بلا توسط وليس الأمر كذلك ، بل بينهما وسائط وهو أن الحس يباشر المحسوسات فتحصل صورها فيه ويؤديها الى الحس المشترك حتى تحصل فيه فيؤدى الحس المشترك تلك الصور الى التخيل والتخيل الى قوة التمييز ليعمل التمييز فيها تهذيبا وتنقيحا ويؤديها منقحة الى العقل ••• »

ان المعرفة عند الغزالى نوعان : نوع محسوس يعرف عن طريق الحواس ونوع معقول يعرف عن طريق العقل ويقول فى ذلك : « فاذا عرفت انقسام الموجودات الى محسوسات والى معلومات بالعقل ولا تباشر بالحس والخيال • فأعرض عن الخيال رأسا وعول على مقتضى العقل فيه » •

— يرى الغزالى أن المعرفة المستمدة من الحواس مثلها مثل المعرفة المستمدة من العقل غير يقينية لما تنطوى عليه من خداع • وفى ذلك يقول فى « المنقذ من الضلال » :

« من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر وهى تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ؟ ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك ••• وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار ••• فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا » •

ويعتبر الغزالى أن المعرفة المستمدة من العقل تعلو فى قيمتها على المعرفة المستمدة من الحواس لأن الحواس فى نظره خداعة ومضالة • ولذلك جعل معرفة العقل حاكما ومسيطرا على معرفة الحواس • يقول الغزالى « فقالت المحسوسات : بم تأمن أن تكون

ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بى فجاء حاكم العقل فكذبنى . ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى » .

بيد أن الغزالى يتشكك فى المعرفة العقلية ويعتبر أن هناك نوعا من المعرفة يعلو فوق مستوى العقل وهو يقول فى ذلك « فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخرا اذا تجلى كذب العقل فى حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه . وعدم تجلى ذلك الادراك لا يدل على استحالته .

ويرى الغزالى أن الشك الفلسفى هو الذى يوصلنا الى أن المعارف العقلية والحسية لا تؤدى بنا الى المعرفة اليقينية التى يسعى اليها الفيلسوف .

ومن الطريف أن بعض علماء المسلمين ومتكلميهم اهتم بالمفاضلة بين حاستى السمع والبصر فذهب فريق الى القول بأن السمع أفضل من البصر لأن الانسان يسمع من كل الجهات كما أنه يسمع فى النور والظلمة على السواء . فى حين أن الانسان يبصر ما يراه أمام عينه فقط ويقتصر ابصاره على النهار أو الضوء دون الليل أو الظلمة . وذهب فريق آخر هم أكثر المتكلمين الى تفضيل البصر على السمع لأن البصر يدرك الأشياء كلها من أجسام وألوان وأشكال مختلفة فى حين أن السمع يقتصر على ادراك الصوت والكلام فقط .

وهذه المفاضلة لا تعنى بالطبع الاهتمام بحاسة واغفال الأخرى وانما تعنى توضيح الأهمية النسبية لكلتا الحاستين كمصدرين هامين للمعرفة مع التسليم سلفا بأن كلتيهما يتساوى فى الأهمية ولا غنى للانسان عنهما فى اكتساب المعرفة .

بيد أن المعرفة المستمدة من الحواس يكون مجال الاتفاق عليها عادة أكثر من تلك المستمدة من العقل .

وعلى الرغم من أننا نعتمد على حواسنا بالنسبة لمعرفتنا المتعلقة بالحياة اليومية ، فان هذه الحواس تخدعنا فى بعض الأحيان ، كما هو الحال فى المثال التقليدى الخاص بالعصا التى تبدو لنا منحنية فى الماء ، ولكن يتضح أنها مستقيمة عندما نقوم بلمسها • ولقد تؤثر أيضـا انحيازاتنا فى طريقة رؤيتنا ، ففى بعض الأحيان نرى ما تكيفنا لرؤيته ، لا ما هو واقع بالفعل • ولقـد تقـل دقة حواسـنا أكثر فأكثر بسبب العوارض التى تطرأ على الانسان ومنها المرض أو بسبب بعض العناصر المؤثرة كالبرد والضباب والحرارة والصوت ، ومع هذا فان للحواس دورها الخاص الذى تلعبه فى تشكيل المعرفة •

ويرتبط منهج العلم ارتباطا وثيقا بهذا الجانب بالذات من نظرية المعرفة وذلك لأن العلم الحديث تجريبى • فالنظريات أو الفـروض تختبر من خلال التجارب للوقوف على أحسنها فى شرح ظاهرة معينة • ويعتمد النجاح فى ذلك على كثير من العوامل مثل ابعاد العناصر الغريبة أو الزائفة ، كما يعتمد على جمع المعلومات بعناية وعلى التخطيط للبحث تخطيطا سليما وأخيرا يعتمد على اتجاه المجرب وقدرته • ومع هـذا فان خلاصة التجربة لا يتوقع منها على الأطلاق أن تبرهن أو أن تدحض أحد الفروض بطريقة قاطعة • فالتجربة قد تقف عند مجرد تقديم النتـائج باعتبارها محتملة الى حـد ما ، وليسـت المعرفة التجريبية بالضرورة أكثر أنواع المعرفة وثوقا من بين أنواع المعرفة الأخرى كما قد يزعم البعض • فهى تتخذ مكانتها جنبا لجنب مـع الأنماط الأخرى كاحدى الطرق المؤدية الى فهم الحقيقة • ويستطيع المعـلم مساعدة الطلاب على الفهم والتمييز بين الرأى والواقع وبين الاعتقاد والايمان والمعـرفة •

ويستطيع المدرس أيضـا أن يناقش الطرق التى تكتسب المعرفة بواسطها سواء عن طريق الله أو الوحى أو النقل عن السلف أو الحدس

أو العقل أو الحواس أو التجريب • واليوم نجد أن المعرفة المستمدة من خلال التجريب العلمى هى أكثر المعارف شيوعا • وهذا لا يعنى أن الطرائق الأخرى خاطئة أو بلا فائدة • بل على العكس فان المدرس يستطيع أن يظهر أن الطرق المختلفة تكمل بعضها بعضا • فالادراك الحسى وحده سوف يوفر وقائع ومعلومات مجزأة • ولكننا بحاجة الى العقل لكى نفسر المكتشفات التجريبية ونوحد بينها فى نظرية أو قانون. بيد أن التفكير المنطقى اذا ما ترك يعمل وحده ، فانه سوف يصبح خاويا من المضمون وتعمل كل من المعرفة اللدنية والمعرفة الحدسية والمعرفة الوثقى والنقل عن السلف أحسن من غيرها فى مواقف الحياة المختلفة . والواقع أن الحياة متباينة جدا وغير قابلة للتنبؤ بالنسبة لأى شخص بحيث لايستطيع أن يقدم قضايا نهائية حولها • والسؤال الهام بالنسبة للمدرس هو « كم من الوقت والجهد ينبغى أن يكرس لكل من هذه الطرائق ؟ » ولسوف تعتمد الاجابة الى حد بعيد على المادة التى يقوم بتدريسها • فالمواد تختلف فى طبيعتها وبالتالى تختلف فى استخدام نوع المعرفة الموصل اليها فالمعرفة اللدنية تكون أكثر استخداما فى العلوم الدينية والمعرفة العقلية فى العلوم الطبيعية والرياضية وكلاهما يستخدم لمساعدة الطالب على تكوين أسلوب رشيد له فى الحياة •

العقل والجسم :

أدرك المسلمون منذ عصورهم الأولى أن هناك صلة وثيقة بين الجسم والعقل وعبروا عن هذه الصلة بالحكمة القائلة : « بأن العقل السليم فى الجسم السليم » • وقد عنوا بالجسم وخففوا عنه الأعباء ليستطيع أن يحمل النفس الكبيرة ويساعد العقل على الدرس والتدريس والتعلم والتعليم •

ولم يجز المسلمون أن يرهق الانسان قواه الجسمانية أو يضعف من احتمالها من أجل عبادة يسرف فيها أو حرمان مما أحل الله للناس •

وقد أدرك المربون المسلمون أن الجسم المريض لا يساعد العقل على الفهم وأوصى الاصفهانى بترفيه النفس فى طلب العلم محـذرا الطالب من مواصلة الدرس والجهد دون أن يتخلل ذلك راحة ورياضة فهذا الجهد المتواصل ستكون نتيجة الفشل ويأتى بدليل على كلامه فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان المنبت لا أرضا قطـع ولا ظهرا أبقى » ، ويضيف الاصفهانى أيضـــا أن على الطالب أن يواصل الدرس ما نشط عقله وفطن فاذا أحس فى عقله فتورا فليتوقف عن العمل وليلجأ الى اللعب فان العقل المكدود ليس لرويته لقاح ولا لرأيه نجاح •

وقد كان المربون المسلمون يدركون أن من طبيعة الطفل أن يكون نشيطا كثير الحركة وكانوا يغذون فيه هذه الطبيعـــة لعلمهم أن فى نشاط الجسم يقظة العقل وصـــفاء الذهن وكانوا يرون أن من غير الطبيعى أن يكون الطفل هادئا ساكنا ويرجعون ســـكونه الى مرض أصابه أو بأس نزل به ، فالمربون المسلمون جعلـــوا للعب مكانته فى التربية غير أنهم اقتصروا على الجانب الترويحى منه بعد الفراغ من العمل ، ولم يذهبوا مذاهب المحدثين فى جعل اللعب جزءا من العمـل التربوى وفى جعل العمل التربوى يتم عن طريق اللعب •

الأخـلاق فى الاسلام (مدخل أكسيولوجى) :

ان التربية فى جوهرها عملية أخلاقية وفى ذلك يقول جون ديوى : « ان عملية التربية والعملية الأخلاقية شىء واحد ما دامت الثانيـة لا تخرج عن أنها انتقال الخبرة باستمرار من أمر سيىء الى أحسن منه وأفضل » (١) ويقول فى مكان آخر :

(١) جون ديوى : تجديد فى الفلسفة ، ترجمة مرسى قنديل ، الأنجلـو المصرية ـــ ص ٢٩٩ .

« أن النمو الأخلاقى هو الغاية القصوى من العمل المدرسى المدرسى كله » [1] وقبل جون ديوى ذهب « جون لوك » الى أن هدف التربية هو غرس الفضيلة فى النفوس .

بيد أن التربية الأخلاقية ليست عملية سهلة وانما هى عملية صعبة شاقة تقتضى منا الفكر والنظر وفى ذلك يقول هربرت سبنسر [2] « لم يهمل ولاة الأمور شيئا اهمالهم انعام الفكرة فى تأديب أطفالهم وتعويدهم ما حسن من الخصال وطاب من الخلال . ولعلهم ظنوا الأمر هينا والخطب سهلا فحسبوا أنهم قادرون بلا فحص ولا بحث أن يردعوا طبائع صبيانهم ما شاءوا من المناقب . ولم يعلموا أن علم تهذيب النفوس علم صعب المآخذ وعر الملتمس . وحق لمغفله أن يخيب فى تأديب غلامه »

ان الموقف الأخلاقى يطرح أكثر من بديل للتصرف ودور التربية الأخلاقية هنا هو مساعدة الفرد على اختيار البديل الأفضل فى السلوك.

ويمكننا أن نميز ثلاثة اتجاهات رئيسية فى النظر الى الأخلاق :

— الاتجاه الأول هو الاتجاه الروحى الذى يعتبر الغاية من الأخلاق التحلى بالفضيلة وتهذيب النفس وترويضها والسمو بالروح وتصفيتها من الشوائب. ويمثل هذا الاتجاه أهل التصوف أو المتصوفون.

— الاتجاه العقلى فى الأخلاق ويتزعمه المعتزلة كما يمثله ابن سينا وابن مسكويه . فالمعتزلة يرون أن الحسن ماحسنه العقل والقبح ماقبحه العقل وبنوا التكاليف على العقل .

---

(١) جون ديوى : المبادىء الأخلاقية فى التربية . ترجمة عبد الفتاح جلال ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ ، ص ٥٤ .

(٢) هربرت سبنسر : التربية — ترجمة محمد السباعى ص ٩٠ .

والمعروف أن أرسطو هو أصل الاتجاه العقلى فى الاخلاق وقد ذهب الى القول فى كتاب الأخلاق بأن الفضيلة مقترنة بالعقل •

ــ الاتجاه الروحى العقلى الذى يجمع بين الاتجاهين السابقين ويمثله حجة الاسلام الامام الغزالى • وسينشر الى آرائه فى التربية الخلقية فيما بعد عند تناولنا لآرائه التربوية •

وقد اهتم الاسلام بالأخلاق الحميدة واعتبرها الأساس الذى تستند اليه كل معاملات الانسان مع خالقه ومع نفسه ومع الآخرين • ولقد امتدح رب العزة نبيه الكريم ووصفه بقوله : « وانك لعلى خلق عظيم » • وهناك نقطة أخرى هامة فى نظر الاسلام الى الأخلاق هى قابليتها للتغير والتعديل • وهذا على عكس الرأى الذى يرى أن الأخلاق ثابتة من حيث أنها مقتضى المزاج والطبع وأن الخلق صورة الباطن وقد انتقد الغزالى هذا الرأى كما سنشير فيما بعد وذهب الى القول بقابلية الأخلاق والسلوك للتعديل مستدلا فى ذلك بقول النبى (ص) : « حسنوا أخلاقكم » •

وقد جاء الاسلام بكل خلق حسن وحث المسلمين على التحلى بها •

لقد قال أكثم صيفى من حكماء العرب فى دعوته لقومه الى الاسلام « ان الذى يدعو اليه محمد لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الناس حسنا » •

ونختتم كلامنا عن هذه النقطة بما ورد عن النبى (ص) خاصا بها :

ــ خير الناس أنفعهم للناس •

ــ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده •

ــ أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم أخلاقا •

— الاسلام حسن الخلق .

— قال (ص) لأبى هريرة عليك بحسن الخلق . ان أحسن الناس خلقا أحسنهم دينا .

— « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

طبيعة القرارات الصحيحة :

ان أحكامنا وقراراتنا تعتمد فى مدى صحتها ومناسبتها على مدى فهمنا للموضوع وما نعرفه عنه من معلومات واختلاف الحكم أو القرار قد ينتج عن اختلاف فى الفهم واختلاف فى درجة المعلومات المتاحة ومن هنا كان من الضرورى للوصول الى قرار سليم أن يتحرى الانسان فهم الموضوع من جوانبه المختلفة وهذا يتطلب الحصول على كل المعلومات الممكنة التى تساعد الفرد على هذا الفهم . وتعتمد أحكامنا وقراراتنا أيضا فى اختلافها وتباينها على اختلاف القيم والمعتقدات العامة للفرد وما يعتقد أنه صحيح أو غير صحيح . ويبدو هذا بوضوح فى القرارات الأخلاقية التى نتخذها فى المواقف المختلفة وقد يكون القرار مصحوبا بالمعاناة الأخلاقية عندما تكون البدائل المتاحة متعارضة أو حلوها مر أو مشحونة بالانفعالات والمشاعر المتعارضة والضغوط الاجتماعية المختلفة .

ودور التربية ينبغى أن يتركز على مساعدة الفرد على تكوين فلسفة رشيدة له فى الحياة توجهه وتساعده على اختيار البديل الأفضل فى السلوك .

ويمكن القول بصفة عامة أن هناك عوامل رئيسية تحدد اتجاه القرار الذى يتخذه الفرد من أهمها :

— النفعية والمصلحة والعكس الضرر والخسارة .

— سمو المقاصد والغايات وبالعكس سوء النوايا والمقاصد .

ـ النتائج المحتملة لأعمالنا وأفعالنا سواء كانت مادية أو معنوية من سعادة أو ألم وفرح أو حزن •

الطبيعة الانسانية فى الاسلام :

يعتبر موضوع الطبيعة الانسانية من الموضوعات الهـامة التى لا يستغنى عنها أى دارس للتربية الاسلامية لأن الانســان موضــوع التربية ومن المهم اذن أن نعرف ما يقوله الاسلام عن هذه الطبيعـة الانسانية حتى يمكن توجيهها وتنشئتها على أساس سليم •

ويقول « رونيه أوبير » فى كتابه « التربية العامة » أن « فلسفة التربية هى فلسفة الانسان قبل كل شىء وبهذا الشرط وحده تستطيع أن تؤدى رسالتها وهى العمل على تنظيم الكائن الانسانى ووحـدته وتأليفه تأليفا جديدا ومستمرا وحمايته قبل كل شىء من القوى المختلفة التى تتنازعه فى اتجاهات متباينة ووقايته من مخاطر تشتت فكرة وانحلال ارادته » •

ويقول « فيليب فنكس » فى كتابه « فلســفة التربية » وحيث ان التربية عملية توجيه ونمو للأفراد فان طبيعة الفرد تصبح مسألة على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لفلسفة التربية •

ويقصد بالطبيعة الانسانية فطرة الانسان التى فطره الله عليها • ترى ما هى طبيعة الانسان وفطرته فى الاسلام ؟

هناك ثلاثة أمور رئيسية يمكن تناولها لتوضيح مفهوم الطبيعـة الانسانية من الوجهة الاسلامية • أول هــذه الأمــور يتعلق بماهيــة الانسان نفسه هل هو مادة أم روح أم كلاهما معا ؟ ثانى هذه الأمور يتعلق بجانب الخير والشر فيه • أى هل الانسان خير بطبيعته أم شرير بطبيعته أم كلاهما معا أم أن طبيعته محايدة لاهى خيرة ولا شريرة •

وثالث الأمور يتعلق بارادة الانسان • هل هى مطلقة أم محدودة وهل هو مخير أم مسير أم كلاهما معا ؟ •

وسنتناول كل موضوع من هذه الموضوعات الثلاثة للطبيعة الانسانية بشىء من التفصيل فى السطور التالية :

أولا — ماهية الانسان :

شغل كثير من علماء المسلمين بالبحث فى ماهية الانسان • وفى كلامهم عن هذه الماهية يميزون بين جانبين رئيسيين الجانب المادى فيها وهو الجسم أو البدن والجانب غير المادى ويشمل العقل والنفس والروح•• ولا يعنى هذا التمييز وجود انفصال بين الجانبين• فقد سبق أن أشرنا أن الانسان ينظر نظرة تكاملية الى مفهوم الطبيعة الانسانية وهى نظرة تقوم على أساس التكامل بين كل جوانب الطبيعة الانسانية من مادية وغير مادية وكان اهتمام فلاسفة المسلمين شديدا بالجانب غير المادى للطبيعة الانسانية باعتباره الجانب الغامض الملغز المحير فى الانسان • وبعض علماء المسلمين لا يفرق بين العقل والنفس والروح والقلب ويستخدمونها استخداما مترادفا أو متشابها • كما أن بعض علماء المسلمين تأثر بما ذكره فلاسفة الاغريق عن ماهية الانسان وما يتعلق منها بالعقل والنفس •

فالرئيس ابن سينا الذى يعتبر امام فلاسفة المسلمين فى دراسة النفس يقول فى قصيدته المشهورة عن النفس ما يذكرنا أحيانا بأساطير أفلاطون ••• ويقول ابن سينا :

هبطت اليك من المحل الأرفع — ورقاء ذات تعزز وتمنع
وصلت على كره اليك وربما — كرهت فراقك وهى ذات تفجع
فلأى شىء أهبطت من شامخ — سام الىقعر الحضيض الأوضع
ان كان أهبطها الاله لحكمة — طويت عن الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها لاشك ضربة لازب — لتكون سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية — فى العالمين فخرقها لم يرفع

ويعرف فلاسفة الاسلام النفس بأنها الكمال الأول لجسم آلى ذى حياة بالقوة وهى جوهر روحى قائمبذاته الا اذا اتصلت بالبدن فانهيدخل فى تعريفها لا على أنها صورة منطبعة فيه بل على أنها شرف وكمال له فى الوجود • فالبدن والنفس يشكلان طبيعة واحدة للانسان • والاسلام يخاطب النفس ويهدف الى تربيتها من خلال الثواب والعقاب • فهناك الثواب المادى من جنة وزيادة فى الرزق والتمتع بزينة الحياة الدنيا من مال وبنين • وهناك الثواب غير المادى من اعلاء المكانة وعلو المرتبة والطمأنينة النفسية وراحة البال والضمير • وهناك العقاب المادى من نار وقلة فى الرزق وحرمان من متع الدنيا • وهناك العقاب غير المادى من تأنيب الضمير والخزى والحسرة والندم وعدم رضاء الله والناس • وللنفس مظاهر ادراكية تتمثل فى العقل • والعقلانية هى أرقى صفة للانسان • وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله « ان أول ما خلق الله خلق العقل » ويقال ان المقصود هو العقل فى قوله تعالى : « وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أعز على ولا أفضل منك بك آخذ وبك أعطى » • وقد سبق أن أشرنا الى أن العقل أساس العقائد فى الاسلام كما أن التفكير وهو وظيفة العقل فريضة اسلامية •

ويعرف علماء المسلمين العقل بأنه الملكة أو القوة التى بها يستطيع الانسان أن يميز بين الخير والشر ومنها يكتسب المعارف ، كما أن للنفس مظاهر عاطفية وجدانية تتمثل فى الانفعالات والمشاعر والأحاسيس • وهكذا ينظر الاسلام الى ماهية الانسان على أنها مركبة تركيبا عضويا يتلاحم فيها الجانب الجسمى مع العقلى والنفسى • وهذا يعنى بالنسبة للتربية الاسلامية النظرة الشمولية للانسان وقد سبق أن أشرنا الى أن الاسلام يقوم فى تربيته للأنسان على هذه النظرة الشمولية التكاملية•

ان الانسان فى نظر الاسلام مادة وروح معا • « اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » • والله سبحانه وتعالى هو الذى خلق هذا الانسان فسواه فعدله ، فى أحسن صورة ركبه • « ولقد خلقنا

الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين • ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » • لقد صنع الانسان صنعا عجيبا تحار فى فهمه العقول وصدق الله العظيم اذ قال : « وكان الانسان أكثر شىء جدلا » •

جانب الخير والشر فى الانسان :

تختلف وجهات النظر حول جانب الخير والشر فى الطبيعة الانسانية فهناك من يقول بأن الانسان شرير بطبعه ويرجعون فى ذلك الى خطيئة آدم أبى البشر فلولا تأصل الشر فى طبيعته لما عصى ربه وخالقه • وقد قال بذلك اليسوعيون وغيرهم من أمثال الفيلسوف هوبز وسبنسر الذى يرى أن الانسان متوحش مطبوع على الشر وسوء الخلق ويمكن تغييره بالتربية •

وهناك رأى آخر يقول بأن الانسان خير بطبعه وقد أخذ الفيلسوف المعروف جان جاك روسو بهذا الرأى • ويرى سقراط أو جالينوس أن فى الانسان رغبة للخير وأن الشر عارض عليه •

ويقول الرواقيون أصحاب الفلسفة الرواقية أن الناس يخلقون أخيارا ثم يتحولون أشرارا بمخالطة الأشرار والانغماس فى الشهوات •

ان القول بأن طبيعة الانسان شريرة أو خيرة يعنى أن الطبيعة التى خلق بها الانسان ثابتة لا يمكن تغييرها أو تعديلها وأنه لا قيمة للتربية والتعليم فى تعديل سلوك الانسان •

وهناك رأى ثالث يقول بأن الطبيعة الانسانية محايدة ويقول بهذا الرأى الفيلسوف الألمانى كانط وبرتراند راسل ودور كايم ومن المسلمين الغزالى وابن سينا •

وقد عبر عن ذلك تعبيرا جيدا « فيلون الاسكندرى » بقوله : « ليس الانسان فى أصله وفطرته طيبا أو شريرا بل خلق والفضيلة

فيه بالقوة ثم أصبح اما سيئا أو شريرا بالسقوط فى اللذة أو طيبا بمقاومتها عن طريق الجمود » .

ويقول وليم مكدوجل فى كتابه « الأخلاق والسلوك فى الحياة » « ان كل نزعة من النزعات الفطرية ينبوع من الطاقة . أما أن هذه الطاقة ستتجه الى الخير أم الشر فأمر يتعلق بتوجيهها الى غايات نبيلة أو وضيعة ، كما يتعلق بالتحكم الرشيد فى هذا التوجيه . ان كل النزعات الفطرية قديرة على فعل الخير والشر » .

وهذا يعنى أن التربية والتوجيه ضروريان لنزعات الانسان الفطرية اذا أردنا أن نوجههما وجهة خيرة نبيلة .

ويرى ليبنتز وابن عربى وغيرهما أن النفس الانسانية تحتوى على جميع أفعالها فطريا . ويذهبان الى القول بأن الشر فى سلوك الانسان ناتج عن سوء استخدام الانسان لحريته ولهذا نظم الاسلام هذه الحرية فى اطار نظام أخلاقى محكم .

ان الاسلام يقف موقفا وسطا من الطبيعة الانسانية فهو ينظر اليها على أنها محايدة . فكل مولود يولد على الفطرة وأبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . وهذا يعنى أن الانسان يكتسب جانب الخير أو الشر بالتطبع لا بالطبع وذلك من خلال التنشئة الاجتماعية التى يتعرض لها .

ويقول الغزالى : « ان الصبى خلق قابلا للخير والشر جميعا وانما أبواه يميلان به الى أحد الجانبين » .

وابن خلدون أيضا يقول النفس مهيأة للخير والشر معا ولكن استعدادها للخير أكثر فالانسان أقرب الى الخير من حيث أنه انسان . وهذا يعنى بالنسبة للتربية الاسلامية أهمية المؤثرات التربوية فى تشكيل الانسان وأن شخصية الانسان ما هى لا محصلة نهائية للقوى والمؤثرات

التربوية التى خضع لها فى نشأته • كما يعنى أيضا ضرورة العنـــاية بتربية النشء المسلم على الخير والكمال والفضيلة •

الطبيعة الانسانية وحرية الارادة :

اختلفت النظرة الفلسفية الى حرية الارادة عند الانسان ويمكننا أن نميز ثلاثة اتجاهات رئيسية :

— الاتجاه الجبرى أو الحتمى : وهو الاتجاه الذى يرى أن الانسان مجبر فى أعماله لا حرية له ولا ارادة فيما يفعل • والذين قالوا بأنه مسلوب الارادة أمام ارادة الله يعرفون بالجبريين الميتافيزيقيين ومنهم الجبرية من المتكلمين المسلمين والذين قالوا بأنه مسلوب الارادة أمام قوانين الطبيعـــة ســـموا بالجبريين الطبيعيين ومنهم هربرت سبنسر وشوبهنور •

— الاتجاه الحر الذى يرى أن الانسان يمارس حرية الارادة فى أعماله وأنه قادر على التصرف بمحض اختياره وبارادته • ومن أنصار هذا المذهب أفلاطون وأرسطو وليبنتز وكانط • ومنهم أيضا القدرية من المتكلمين المسلمين ومن بينهم المعتزلة(١) والماتريدية(٢) •

الاتجاه التوفيقى أو الوسط الذى يقف فى منتصف الطريق فلا يسلب الانسان من ارادته وفى نفس الوقت هو مجبر وقادر معا • فهو مقيد بقوانين الطبيعة ويمارس حريةالارادة فى ظل هذه القوانين • ومن أنصار هذا الاتجاه ابن مسكويه والغزالى وابن رشد والأشاعرة(٣) من المتكلمين المسلمين •

---

(١) المعتزلة هى احدى فرق المتكلمين المسلمين التى تحتكم الى العقل تمييزا لها عن المدرسة السلفية التى تعتمد على النقل عن السلف .

(٢) و(٣) الماتريدية والأشاعرة من فرق الكلام الاسلامية وهما تعتمدان على التوفيق بين النقل والعقل . فهما من المدارس التوفيقية بين المدرســـة السلفية ومدرسة المعتزلة .

فالانسان يكون مجبرا فى مواقف مختلفة لا يملك ازاءها حرية فى التصرف منها الجبرية الميتافيزيقية التى تتمثل فى الموت الذى هو ملاقيه باعتباره قضاء مقدرا عليه • ومنها الجبرية الطبيعية التى تتمثل فى حاجاته الأساسية التى تكفل له الحياة من طعام وشراب وراحة ونوم وغيرها • فليس أمام الانسان مجال للاختيار فى هذه النواحى وعليه سواء رغب أم لم يرغب أن يأكل وأن يشرب وأن يرتاح وأن ينام والا تعرضت حياته للخطر • والانسان يكون مخيرا فى المواقف الأخرى التى يكون أمامه بدائل للاختيار ويبدو ذلك بوضوح فى المواقف الحياتية والأخلاقية والمعاملات وتحمل المسئولية • ففى المواقف الكثيرة التى تتضمنها هذه المجالات يطرح الموقف أكثر من بديل للتصرف ومهمة التربية هنا هو تمكين الانسان من اختيار البديل الأفضل فى السلوك •

ولفهم حرية الارادة فى الاسلام ينبغى أن نعرف أن الحرية بمعناها المطلق غير موجود فلا حرية مطلقة ولا حرية فى فراغ وانما تستمد الحرية مضمونها ومغزاها من النظام والأصول والقواعد • فهل سير القطار على القضبان تقييد لحرية القطار ؟ ان القضبان فى الواقع شرط لحرية القطار فى الحركة والا لما سار على الاطلاق • خذ على سبيل المثال سائق السيارة الذى يسير فى الشارع وعليه أن يتوقف عندما يرى الضوء الأحمر ولا يسير الا اذا رأى الضوء الأخضر • هل يعتبر ذلك قيدا على حريته ؟ وهل يمكن له أن يدعى بأنه حر فى قيادة السيارة دون مراعاة القواعد والأصول ؟ • ان حريته هنا مرتبطة بالنظام • وبالمثل يمكن التمثيل بلاعب الكرة فى الملعب هل هو حر فى أن يضرب الكرة فى أى اتجاه أم أن حريته مقيدة بأصول اللعبة وقوانينها • خذ مثالا آخر لرجل ترك وحده فى الصحراء • هل يعتبر هذا الرجل حرا يتصرف كما شاء أم أن حريته محدودة بظروف المكان فهو ان أراد أن يأكل أو يشرب مثلا لا يجد ما يأكله أو يشربه فأين حريته اذن ؟

والواقع أن هناك عدة عوامل تحدد الحرية منها عوامل داخلية وأخرى خارجية •

أما العوامل الداخلية فهى تتعلق بالانسان نفسه • ذلك أن التركيب الجسمي والعقلى والنفسى للفرد يحدد مدى حريته • فالانسان ذو الجسم الضعيف الهزيل أو الذى يعانى من مرض أو نقص جسمى لا يعتبر حرا فى نطاق القيود التى تفرضها عليه هذه الأبعاد الجسمية• فهو ليس حرا أن يأكل ما يشاء أو يحيا كما يشاء وليس حرا فى أن يتخلص من الألم الذى يعانيه • وبالعكس يمكن القول عن الجسم الصحيح • فصحة البدن اذن شرط للحرية ولذلك يعتبر كل تقدم فى الميدان الصحى فى البلاد عاملا هاما لتحقيق حرية الأفراد كما أن التربية الحديثة لابد أن تتضمن العناية بالجسم وتقويته •

والناحية العقلية للفرد شرط آخر لحريته • ذلك أن الذكاء الانسانى ضرورى للحرية • فنجاح الانسان فى حياته يتوقف على تصرفه الذكى• وأمور الحياة لا تستقيم لانسان غبى • بل ان الحياة نفسها تلفظه وتحاربه وباستمرار وحيثما كان • والانسان الذكى هو الانسان القادر على الفهم السليم والتصرف وادراك العلاقات بين الأشياء فى أهدافها القريبة والبعيدة • وهو الانسان المبدع المفكر القادر على التخيل الذى يساعده على تشكيل امكانيات المستقبل واحتمالاته •

والحرية لا يستقيم عودها مع الجهل • فكيف يكون الانسان حرا لفهم ما حوله من ظواهر الكون والحياة والتعامل الاجتماعى الرشيد وهو جاهل • ان الجهالة قيد على عقله وفكره وبالتالى لا يمكن أن يكون حرا • وهناك مثل معروف يقول كلما تعلم الانسان زادت حريته • ولهذا فان ذكاء الانسان وتثقيف عقله وفكره ضرورة تفرضها حريته • وعلى أى برنامج تربوى أن يولى هذه الجوانب عناية كبرى • وكذلك الناحية النفسية للفرد بأبعادها المختلفة من حب وكره وتعصب وتحيز وتقبل ورفض كلها تحدد سلوك الانسان • فكيف يستطيع الانسان ادعاء حريته وهو فى الواقع عبد لنزعات النفس وخلجاتها وعبد للعادات التى كونها • خذ مثلا الشخص الذى أصبح التدخين عادة متمسكة لديه ومستحكمة

فيه هل يستطيع أن يمتنع عنها ؟ انه قد يدخن رغم أنفه بحكم قوة العادة وسيطرتها عليه حتى مع أنه من الناحية العقلانية يعرف مضار التدخين على ماله وصحته . فهل نعتبر هذا الانسان حرا ؟ . ان حرية الارادة شرط ضرورى لحرية الانسان ولا يمكن لانسان أن يكون حر الارادة وهو غير قادر على التحكم فيها اذ أنه يستسلم لرغباته ونزواته أو دوافعه الجامحة . ولذلك يجب على التربية أن تهدف الى غرس العادات عند الانسان منذ بواكير الطفولة وأن تهتم بالقدوة الصالحة والبعد عن قرناء السوء . وأن تربى الفرد على التحكم فى نفسه ليستطيع أن يكبح زمامها وأن يسيطر عليها كما ينبغى أن نربى ضمير الفرد لأنه خير عاصم له . وعندها يمكن أن يكون الانسان حرا .

ذلك أن الحرية الحقيقية لا تتوافر الا فى ظل الشخصية الكاملة المتكاملة . أما كيف يكتسب الانسان هذا الكمال والاكتمال فهو موضوع التربية برمته .

أما العوامل الخارجية التى تحد من حرية الانسان فتمثل البيئة المادية والاجتماعية التى تحيط بالانسان . هذه العوامل الخارجية الهامة هى التى تحدد حريته . فالفقر والغنى مثلا صورتان لمدى ما يتيحه أى مجتمع من ثروة لأفراده .وكلتاهما تحدد مدى الاختيارات والامكانيات المتاحة للانسان وبالتالى تحدد حريته . ولذلك يعتبر تحسين مستوى معيشة الأفراد عاملا هاما نحو الحرية . ومن ناحية أخرى نجد أن الانسان الحديث قد استطاع السيطرة على ثرواته المادية والطبيعية بمقدار ما أتيح له من تقدم تكنولوجى هائل . وهو شرط ضرورى لحرية المجتمعات المدنية . الا أن التقدم فى هذا الجانب كان بمعدل أسرع من معدلات النمو فى الجوانب الأخرى الداخلية والخارجية المحددة للحرية.

ويجب على التربية أن تزود الأفراد بالمهارات المعرفية والسلوكية التى تحكمهم وتمكنهم من زيادة دخلهم وتحسين مستوى معيشتهم فى الحياة وتنمى تطلعاتهم وآمالهم فى الحياة .

كما يجب على التربية أن تزود الانسان أيضا بالمهارات المعرفية والعملية التى تمكنه من السيطرة على بيئته المادية واستغلال ثرواتها الطبيعية .

ومن ناحية أخرى نجد أن الانسان نفسه يعتمد على غيره منذ أن كان نطفة أو علقة فى بطن أمه وهو محتاج الى العناية والرعاية . وهذا الاحتياج يعنى عدم حريته . فالانسان المحتاج ليس انسانا حرا . وهو بعد ولادته يظل محتاجا لهذه العناية . وفى تعامله وهو كبير راشد مع الآخرين محتاج الى تعاونهم ومساعدتهم أيضا . ولا يمكن أن يحقق شيئا بمفرده الا بتعاون الآخرين . ويزداد اعتماد الناس بعضهم على بعض بصورة متزايدة فى المجتمعات الحديثة . وبدون مساعدة الآخرين لن يجد رغيف الخبز الذى يأكله أو الملبس الذى يلبسه أو المواصلة التى يركبها . وغيرها من الأمثلة التى لا تحصى . وهذا يعنى تزايد اعتماد الناس بعضهم على بعض . كما يعنى ارتباط حرية الفرد بحرية الآخرين .

وكذلك نجد أن المعايير والقيم الاجتماعية السائدة فى المجتمع وقوانينه وتشريعاته كلها تمثل حدودا لمدى حرية الفرد وهذا يعنى لأى برنامج تربوى ضرورة العناية بتكوين الاتجاهات الصحيحة للفرد نحو نفسه ونحو مجتمعه . وتنمية حساسيته الاجتماعية نحو النظام الاجتماعى وقيمه السائدة . وتعريفه بهما وتعويده على احترامهما وكذلك احترام القوانين والتشريعات وحماية الملكية العامة .

ان أعلى مراتب الحرية هى الحرية الكاملة التى ترتبط بالله عز وجل . فهو الذى خلق الكون وأحسن صنعه وخلق الانسان فأحسن تقويمه . ورتب للناس أمور حياتهم بما يحقق لهم الخير فى الدنيا والآخرة . ولذلك يجب ألا تستمد الحرية التى ننشدها للفرد والمجتمع الا منه وأصولها من المبادىء السامية التى رسمها لنا .

وهكذا يصبح الفرد مقيدا فى حريته بتأثير البيئة الاجتماعية والطبيعية وما نسميه بحرية الاختيار أو الارادة هى حرية ظاهرية مقيدة بالنظام • فالله سبحانه وتعالى بين لعباده الحلال والحرام وطريق الخير وطريق الشر وعلى الانسان أن يختار بينهما اما شاكرا واما كفورا •

فالانسان اذن مخير وحر الارادة فى الاطار الاجتماعى والى الحد الذى يستطيع معه أن يمارس هذا الاختيار • وهو مجبر أو مسير بمقدار ما تتحكم فيه البيئة الاجتماعية والطبيعية وبمقدار ما يتعامل مع القوانين الالهية التى لا سلطان له عليها •

الانسان اذن مخير ومسير معا فهو مخير لأن الله سبحانه وتعالى منحه عقلا وارادة يوازن بهما بين الأشياء ويختار لنفسه ما يحلو له بمحض ارادته • وقد بين الله سبحانه وتعالى للانسان طريق الخير وطريق الشر وهو الذى يختار لنفسه الطريق الذى يسير فيه « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » وهو مسير لأن الله سبحانه وتعالى خلق الكون وما فيه وفق نواميس وقوانين تتحكم فى الانسان وتوجيهه • والانسان محدود فى قدرته الجسمية والعقلية وله حدود لا يتعداها والانسان يحاول أن يفهم هذه القوانين ما وسعه الى ذلك سبيلا وقد يستطيع أن ينجح فى تسخير قوى الطبيعة والسيطرة عليها ولكنه فى النهاية مقيد بحدود الزمان والمكان • تلك سنة الله فى خلقه ولله فى خلقه شئون •

وهذا يعنى بالنسبة للعملية التربوية والمنهج المدرسى أن نعنى بتزويد التلميذ بما يمكنه من معرفة الكون والقوانين التى تحكمه بترتيب وانسجام هو من صنع الخالق عز وجل • كما يجب أن يربى التلميذ على احترام النظام واتباع أوامر الدين واجتناب نواهيه • فالله سبحانه وتعالى خلقنا نتحمل المسئولية وأعطانا ضميرا وارادة حرة ولكنه أيضا أقام الدين وتعاليمه كقوة تربوية عليا توجهنا وترشدنا فاذا كنا عقلاء فاننا سوف نتقبل توجيهها ونسير على هديها • وعلى الانسان أيضا أن يؤمن

بالقدر خيره وشره فذلك من تمام ايمانه من ناحية واعترافا منه بحكمة الخالق عز وجل التى قد يعز على الانسان أن يحيط بها • وينبغى أيضا أن يربى الانسان على الايجابية لا السلبية فاذا كانت الصحة والمرض من عند الله فان هذا لا يعنى عدم الوقاية ولا عدم سعى الانسان للطبيب لعلاجه اذا مرض • فان الله خلق الداء وخلق الدواء وطالب عباده بأن يتطببوا • كما يجب ألا يربى المسلم على أن يكون متواكلا سلبى الارادة • وانما يجب أن يعرف أن له دورا يقوم به ومسئولية يجب أن يتحملها وأنه فى ضوء معرفته لقوانين الكون والطبيعة قادر على تسخير ما فيها لتحقيق رفاهيته وسعادته •

الاسلام يعترف بضعف الانسان :

اعترفت التربية الاسلامية بمواضع الضعف فى الطبيعة البشرية كما أشرنا من قبل ومنها الخطأ والنسيان • ولا يحاسب المسلمون على الأعمال التى يمليها عليهم هذا الضعف • وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »• والاسلام يخفف عن المسلم فى حالة ضعفه •• « الآن علم أن فيكم ضعفا فخفف الله عليكم » • «ولا يكلف الله نفسا الا وسعها » •

واعترف الاسلام بجوانب أخرى من ضعف النفس الانسانى « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه » وهذه النفس اذا ضعفت قد تدفع الانسان الى الشر « ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى » • كما وصف القرآن الانسان بكثير من الصفات التى تدل على ضعفه • قال تعالى : « وخلق الانسان ضعيفا » كما وصفه بالهلع والجزع اذا مسه الشر وبالطغيان اذا غنى « كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » • « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا » وهذا يعنى بالنسبة للتربية الاسلامية أن يهتم المعلم بأن يبرز لتلاميذه أن قدرة الانسان محدودة مهما تقدم ومهما بلغ من العلم

وأنه مهما بلغ من القوة لا يخلو من نقاط ضعف قال تعالى : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » • ولهذا ينبغى أن يعرف الانسان حدوده وألا يتكبر وأن يكون متواضعا وأن يصبر على المكاره كما يجب أن يتذكر نعمة الله عليه ويشكره فى حالة اليسر والرخاء • قال تعالى : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا » •

المنهج المدرسى الاســلامى :

هناك بعض الاعتبارات الرئيسية التى تتحكم فى اختيار المواد الدراسية والعلوم التى تقدم للمتعلم فى الاسلام ويأتى فى مقدمة هذه الاعتبارات أهمية العلوم وتفاوتها فى الدرجة والشرف •

وأشرف العلوم وأعلاها ما يتعلق منها بمعرفة الله عز وجل وهو أمر يتمشى مع الهدف الأسمى من التربية الاسلامية وهو معرفة الخالق وما يتصل بها من علوم اللسان واللغة التى تمهد لدراسة العلوم الدينية • فالعلوم عند أهل الديانات ثلاثة كما يقول النمر القرطبى : علم أعلى وعلم أسفل وعلم أوسط فالعلم الأعلى عندهم علم الدين والعـــلم الأوسط هو معرفة علوم الدنيا كعلم الطب والهندسة والعلم الأسفل هو أحكام الصناعات وضروب الأعمال مثل السباحة والفروسية والخط وهى التى تحصل بتدريب الجوارح[١] •

وجوب التعليم :

تعتبر كلمة « الزامية التعليم » من الكلمات الحديثة التى برزت فى الفكر التربوى الحديث نتيجة لغلبة المؤسسات الديمقراطية وظهـــور مفاهيم العدالة والرفاهية الاجتماعية ــ كما تأكدت بشكل واضح على المستوى العالمى فى الميثاق العالمى لحقوق الانسان •

---

(١) ابن عبد البر النمر القرطبى : جامع بيان العلم وفضله ــ المكتبة السلفية ١٩٦٨ جـ ٢ ، ص ٤٦ •

وقد استخدم علماء المسلمين كلمة وجوب تعليم الصبيان واعتبروا أن من حق الصبي على والده أن يعلمه • واستشهدوا في ذلك بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن » وقوله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله عبدا أعان ولده على بره بالاحسان اليه والتآلف له وتعليمه وتأديبه » • وقوله صلى الله عليه وسلم : « لان يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق في كل يوم بنصف صاع على المساكين » •

ويعتبر القابسي أول من نادى بوجوب تعليم جميع الصبيان بصرف النظر عن حالتهم المالية واعتبر تعليمهم ضروريا وواجبا شرعيا •

ويرى رفاعة الطهطاوي ضرورة تعميم التربية وشمولها لجميع أبناء الأمة ذكورا واناثا على السواء وفي ذلك يقول :

« وبالجملة فتربية أولاد الملة وصبيان الأمة وأطفال المملكة ذكورا واناثا من أوجب الواجبات » •

العلم يكون بالمثابرة :

يكون تحصيل العلم بالجد والمثابرة على الدرس والقراءة والاطلاع • فالعلم لا يفتح أسراره لقارىء عابر أو دارس طارىء • ذلك أن مغالق العلم وأسراره لا تنفتح الا بكثرة الحث في سبيل معرفتها والمعاناة من أجل التوصل اليها • وقديما قال الشاعر :

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته
ومدمن القرع للابواب أن يلج

وقال آخر : « ومن طلب العلا سهر الليالي » •

وقال ابن رشد : « لا يحصل العلم الا بالعناية والملازمة والبحث والنصب والصبر على الطلب » كما حكى الله تعالى عن موسى عليه

السلام أنه قال للخضر : « ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » • وانه قال لفتاه : « لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » •

وقال سعيد بن المسيب : « انى كنت لأرحل فى طلب العلم والحديث الواحد مسيرة الأيام والليالى » ولهذا ساد أهل عصره وسمى سيد التابعين •

وقال مالك رضى الله عنه : « أقمت خمس عشرة سنة أغدو من منزلى الى منزل ابن هرمز وأقيم عنده الى صلاة الظهر ، ولهذا ساد مالك أهل عصره وسمى امام دار الهجرة •

وهكذا يجب على طالب العلم أن يتحلى بالصبر والمثابرة فى طلب العلم وتحصيله وعلى المعلم أن يساعد تلاميذه على تكوين الاتجاهات الصحيحة نحو العلم وتحصيله وأن يبين لهم أن بقوة الارادة والعزيمة يستطيع الانسان أن يتغلب على صعاب العلم وأن يصل فى النهاية الى المكانة التى يريدها •

الدولة والتربية فى الاسلام :

لفهم علاقة الدولة بالتربية فى الاسلام ينبغى منذ البداية أن نتذكر أن الاسلام دين ودولة • وهو بهذا يحتل مكانة متميزة بين الديانات السماوية الأخرى كما أنه يتميز أيضا عن النظم الوضعية الدستورية والمدنية • ومنذ العصور الأولى للاسلام كانت السلطة الدينية والمدنية تتمثل فى شخص واحد هو أمير المؤمنين فهو امامهم وحاكمهم العادل وعلى الرغم من التطور الذى حدث للاسلام فيما بعد فمازال حاكم المسلمين راعيا عليهم ومسئولا عن مصالحهم الدينية والدنيوية على السواء ويتضح الدور الهام للحاكم فى الاسلام مما ذكره الحسن البصرى لعمر بن عبد العزيز عندما طلب منه أن يصف له الامام العادل فكتب اليه الحسن البصرى يقول :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله قد جعل الامام العدل قوام كل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف . والامام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على ابله الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة . ويحميها من السباع ويكنها من أذى الحر والقر . والامام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته ، والامام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرها ووضعته كرها وربته طفلا تسكن بسكونه ترضعه تارة وتفطمه أخرى وتفرح بعافيته وتهتم بشكايته ، والامام العدل يا أمير المؤمنين موصى اليتامى وخازن المساكين يربى صغيرهم ويمون كبيرهم والامام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده ، والامام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ، ويسمعهم ، وينظر الى الله ويريهم ، وينقاد الى الله ويقودهم فلا تكن يا أمير المؤمنين كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال وشرد العيال ، فأفقر أهله وفرق ماله . وأعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزع بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف اذا أتاها من يليها ، وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف اذا قتلهم من يقتص لهم . واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، يسلمونك فى قعره فريدا وحيدا ، فتزود له بما يصحبك : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه » واذكر يا أمير المؤمنين اذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور ، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين وانك فى مهل ، وقبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل — لا تحكم يا أمير المؤمنين بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين

ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فانهم لا يرقبون فى مؤمن الا ولاذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك • ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بذهاب طيباتك فى آخرتك لا تنظر الى قدرتك اليوم ، ولكن انظر الى قدرتك غدا ، وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقف بين يدى الله فى مجمع الملائكة والنبيين والمرسلين « وعنت الوجوه للحى القيوم » وانى يا أمير المؤمنين ، وان لم أبلغ بعظمتى ما بلغه أولو النهى من قبلى لم آل من شفقة نصحا ، فأنزل كتابى عليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكزيهة لما يرجو له من العافية والصحة والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » •

وهكذا يتضح الدور الهام الذى يلعبه حاكم المسلمين فى تصريف شئونهم والرعاية على مصالحهم ومنها بالطبع ما يتعلق بالتربية والتعليم وغيرها من أمور العباد •

فولاة أمور المسلمين رعاة على أمورهم وهم مسئولون عن رعيتهم فى تصريف أمور دينهم ودنياهم وحياتهم على السواء • ويعتبر فقهاء المسلمين أن أوجب حقوق الأمة على الخليفة « نشر العلوم والشريعة وتعظيم العلم وأهله ورفع مناره ومحله ومخالطة العلماء الأعلام النصحاء لدين الاسلام ومشاورتهم فى موارد الأحكام ومصادر النقض والابرام » • وهذا يعنى أن على الدولة فى الاسلام مسئولية تعليم أبناء المسلمين وكانت الدولة فى صدر الاسلام بالفعل تخصص نفقات لدور العلم وان كانت هذه النفقات فى صدر الاسلام قليلة وذلك يرجع الى زهد القائمين بالتعليم واعتبار ما يقومون به واجبا دينيا ، فقد لعن الاسلام من يخفى علمه على الناس كما أنهم اكتفوا بما كانوا يصيبونه من الفىء والصدقة • وكان الخلفاء يقدمون مساعدات مالية للعلماء والزهاد الذين حبسوا أنفسهم فى المساجد للعبادة وقد أثر عن عمر ابن عبد العزيز أنه كتب الى والى حمص : أنظر الى القوم الذين نصبوا

أنفسهم للفقه وحبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا فاعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت المال حتى يأتيك كتابى هذا فان خير الخير أعجله والسلام[١] .

ومن المعروف أن عمر بن الخطاب أمر ببناء بيوت المكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم .

وقد نشأت المدارس مرتبطة بالحكم من ناحية وبهدف الترويج لمذهب دينى معين من ناحية أخرى ، ولعل من الأمور المتميزة فى علاقة الدولة بالتربية فى الاسلام أن الخلفاء والحكام أنفسهم كانوا يهتمون بالعلم والثقافة ويسعون اليها وكان منهم العلماء والشعراء والأدباء وكانوا يجعلون من قصورهم منتدى للفكر والثقافة والأدب يجتمع فيها العلماء والأدباء . وكانت تعقد المناظرات العلمية والأدبية بين هؤلاء العلماء والأدباء كما كان يلقى بها الدروس أيضا ، ومن أشهر هذه المجالس العلمية والأدبية ما كان يعقده الخلفاء الأمويون والعباسيون من أمثال هارون الرشيد وولده المأمون وسنوا بذلك تقليدا اتبعه من جاء بعدهم من الحكام والأمراء الذين كانوا يبعثون فى استقدام مشاهير العلماء والأدباء الى قصورهم .

والى جانب هارون الرشيد والمأمون كان هناك خلفاء آخرون كثيرون اهتموا بالعلم والتعليم منهم نظام الملك الذى كان أول من أنشأ المدارس فى الاسلام ونور الدين زنكى والحاكم بأمر الله وصلاح الدين الأيوبى . وفى الأندلس البعيدة كان الحاكم المستنصر صاحب المكتبة المعروفة فى قصره بقرطبة والذى يصفه المقرى بأنه كان غزير العلم واسع الاطلاع ذا معرفة بالأخبار والأنساب .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى : مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٧٤ ، جـ ١ ، ص ٥٢٣ .

وقد ارتبطت علاقة الدولة بالتربية باعتبار أن الاسلام دين ودولة. الا أن هذه العلاقة كانت مرهونة باحتياجات نشر الدين الجديد وتثبيته. فالنبى صلى الله عليه وسلم ترك معاذ بن جبل فى مكة بعد فتحها ليعلم المسلمين فيها مبادىء الدين الاسلامى . وعمر أرسل بعض الصحابة الى الأمصار الاسلامية لنشر مبادىء الدين الجديد وتعليمها .

وكانت الدولة هى التى تنشىء المساجد وتساعد العلماء القائمين بالتدريس فيها لكن ليست بصورة منتظمة ، كما أن الدولة أيضا كانت تقوم ببناء المكتبات ، والرباطات وكلها كانت تقوم بخدمات تثقيفية وتعليمية ، وقد أصبح للدولة دور رئيسى فى التربية مع حركة انشاء المدارس فالدولة هى التى قامت بانشاء هذه المدارس للدعاية لمذهبها وهى التى كانت تنفق على أجور المعلمين ونفقات الطلاب ومعيشتهم وكان يخصص لهذه المدارس ميزانيات سنوية وقد ورد أن — نظام الملك كان ينفق على التعليم ٦٠٠ ألف دينار سنويا كما كان للمدارس أوقاف تدر عليها أموالا سنوية ، وظلت علاقة الدولة بالتربية تتدعم على مر الأيام الى أن أصبحت الدولة الآن فى البلاد الاسلامية هى التى تتولى شئون التعليم العام بكل أنواعه بل يمتد سلطانها أيضا الى ميدان التعليم الجامعى .

أهل الحسبة ورعاية المصالح العامة والتعليم :

الحسبة كما يقول ابن خلدون هى وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهله . ويحدد ابن خلدون الوظائف التى يقوم بها أهل الحسبة فيما يأتى :

١ — البحث عن المنكرات وتعزير وتأديب من يرتكبها .

٢ — حمل الناس على المصالح العامة فى المدينة مثل منع المضايقة فى الطرقات ومنع الحمالين من الاكثار فى الحمل .

٣ ــ الحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمهـا وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة •

٤ ــ الضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب وغيرها لمبالغتهم فى ضرب الصبيان المتعلمين •

٥ ــ الحكم فى دعاوى الغش والتدليس فى المعايش والمكاييل والموازين •

٦ ــ حمل المماطلين على الانصاف والوفاء بالتزاماتهم •

وهكذا نجد أن وظيفة الحسبة متعلقة بالعدل والقضاء فيما يتعلق بالمصالح العامة للمسلمين ومنها « التعليم » •

أساليب التربية الاسلامية :

يقوم منهج التربية الاسلامية على أساليب متنوعة بحسب مناسبتها لتحقيق الغرض المطلوب منها • على أن هذه الأساليب تتكامل فيما بينها لتناسب كل المواقف وتتكيف حسب الأغراض ومن أهم هذه الأساليب :

١ ــ أسلوب القدوة الصالحة :

للقدوة الصالحة أهمية كبرى فى تربية الفرد وتنشئته على أساس سليم لا سيما فى الفترة الأولى من حياة الانسان حتى مرحلة النضـج والبلوغ • فالطفل منذ ولادته يكتسب ألوان السلوك من خلال تقليده ومحاكاته للآخرين • ويتوقف ما يكتسب الطفل من عادات مرغوب فيها أو غير مرغوب فيها على نوع القدوة التى تعرض لها فى تربيته وهذا يؤكد أهمية القدوة فى تحديد سلوك الانسان والعادات التى يكتسبها • وتؤكد التربية الاسلامية أهمية أسلوب القدوة الصالحة فى تنشـئة الأجيال الاسلامية تنشئة سليمة يتحقق معها الخير لأنفسهم والمسلمين جميعا • وقديما قال الشاعر العربى : وكل قرين بالمقارن يقتدى •

وينشـأ ناشىء الفتيان منا   على ما كان عـوده أبوه

وقد دعانا الاسلام الى الاقتداء بالرسول نبينا الكريم « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » وضرب الرسول عليه السلام مثل الجليس الصالح والجليس السوء وشبههما ببائع المسك ونافخ الكير ٠ وهذا يعنى أن نتخير لأبنائنا ولأنفسنا القدوة الصالحة التى يكون فى تقليدها الخير والمنفعة والابتعاد عن مخالطة قرناء السوء تجنبا للشر ودفعا للمضرة ٠ كما يجب أن يكون الأبوان فى المنزل والمعلمون فى المدرسة نماذج طيبة فى السلوك حتى يساعدوا الناشئة على تشرب العادات الاسلامية الطيبة منذ نعومة أظفارهم وينبغى أن يدرك المعلمون ذلك تماما وأن يتعدوا حدود النظرة الضيقة التى تحدد ميدان تأثيرهم على تلاميذهم فى مادة تخصصهم التى يدرسونها لهم ٠

٢ — أسلوب الترغيب والترهيب :

يعتبر أسلوب الثواب والعقاب من الأساليب الطبيعية التى تستند اليها التربية فى كل زمان ومكان ٠ فهذا الأسلوب يتمشى مع طبيعة الانسان حيثما كان وأيا كان جنسه أو لونه أو عقيدته فالانسان يتحكم فى سلوكه ويعدل فيه بمقدار معرفته بالنتائج الضارة أو النافعة والسارة أو المؤلمة التى تترتب على عمله وسلوكه ٠ والتربية الاسلامية تستخدم أسلوب الترغيب والترهيب لما له من أهمية بالغة فى التنشئة الصالحة لأبنائنا ٠ فأسلوب القرآن الكريم فى تصوير الجنة ونعيمها والنار بأهوالها وعذابها انما هو أسلوب مناسب لطبيعة الانسان التى تسعى دائما وراء المنفعة وتبتعد ما أمكن عن المضرة ٠ وهكذا يصبح الجزاء من جنس العمل وهو مبدأ منطقى لا يستطيع أحد أن يجادل فيه « يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ٠

والآباء فى تعاملهم مع أبنائهم والمعلمون مع تلاميذهم بل والمجتمع الاسلامى الكبير يستخدم هذا الأسلوب التربوى على أوسع نطاق ٠ بيد

أنه ينبغى أن نشير الى أن الأسلوبين وان كانا لازمين فى الاستخدام لتفاوت طبائع الناس واختلافهم فى الامتثـال للاصـول والقـواعد الاسلامية لا يتساويان فى قيمة الأثر الذى يحدثه كل منهما • فأسلوب الترغيب أفضل من أسلوب الوعيد والترهيب لأن الأسلوب الأول ايجابى وأثره باق لأنه يعتمد على استثارة الرغبة الداخلية للانسان فى حين أن الأسلوب الثانى سلبى وأثره موقوت لأنه يعتمد على الخوف • وقد ضرب الله لنا مثلا بأنه وان كان يحاسب الناس على ذنوبهم يترك الباب مفتوحا أمامهم للتوبة والعودة الى الله « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فان الله يتوب عليه » • « وان الله يحب التوابين » وفى حين أن الله سبحانه وتعالى يضاعف الحسنات لأصحابها فانه يتجاوز عن السيئات فى الحدود التى أوضحها لنا ويكون استخدام العذاب أو العقاب بعد أن تكون الأساليب الأخرى من نصح وهداية وارشاد قد عجزت عن أن تحقق المطلوب منها • وهذا يعنى أن يعول فى التربية الاسلامية على أسلوب الترغيب بصورة أكثر « قل ادعو الى سبيل ربك بالحـكمة والموعظة الحسنة » •

ان الانسان معرض للخطأ والوقوع فيه • فجل من لا يخطىء ومن منا كملت صفاته ؟ ولذلك نجد أن الأسلوب الاصلاحى للتربية الاسلامية بفتح الباب أمام العودة الى الطريق السليم • وفى هذا صلاح للمذنب أو المخطىء والا تمادى فى خطئه • قال تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله • ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » وفى الحديث الشريف : « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابين » •

٣ — أسلوب الموعظة والنصـح :

وهو من الأسـاليب المعروفة فى التربية الاسـلامية وله تأثيره الحسن فى النفوس • لأنه يتطرق الى النفس الانسانية من مداخلها الحقيقية • ويجعل الناصح فى نظر المنصوح شخصا طيب النوايا حريصا

على المصلحة • ومن هنا يكون لكلامه قبول حسن • ويكون هذا الأسلوب فعالا وتؤتى ثماره عندما يكون النصح صادرا من القلب • لأن ما يصدر عن القلب يصل الى القلب • وفى القرآن الكريم عظات كثيرة « ان الله نعما يعظكم به » • بل ان القرآن كله موعظة وهدى ورحمة للمؤمنين •

وفى أسلوب العظة والنصح مجال كبير للمعلمين فى توجيه طلابهم الى ما فيه خيرهم وصلاحهم والى ما فيه رقى مجتمعهم وأمتهم • الا أنه ينبغى على المعلم أن يكون ذكيا لبقا فى نصحه وأن يبتعد عن أسلوب الأوامر والنواهى على طريقة اعمل كذا ولا تعمل كذا • فان هذه الطريقة الى جانب أنها قد تكون منفردة للمتعلم لا تحقق الهدف المنشود منها • وأولى للمسلم أن يستخدم الأسلوب غير المباشر فى النصح والتوجيه كأن يستعين بالقصص • وللقصص كما هو معروف أثر فى النفوس • ويمكن أن تتضمن القصة المغزى الأخلاقى أو التربوى المرغوب • وقد جاء القرآن الكريم بالقصص المعلمة ذات المغزى « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن » و « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » •

ويمكن للمعلم أيضا أن يستعين بدروس من التاريخ وما فيه من عظات وعبر • فكم من أمم هوت لفساد أخلاق أبنائها وكم من حضارات انهارت لتفكك مجتمعاتها وانحلالها • وكم من أناس هلكوا لطغيانهم وكفرهم وغير ذلك من الدروس التاريخية التى يمتلىء بها القرآن الكريم وكتب التاريخ •

٤ ـ أسلوب المحاورة والمناقشة :

من الأساليب التى تقوم عليها التربية الاسلامية فى توجيه الانسان نحو الحق والخير أسلوب المحاورة والمناقشة والاقناع والاقتناع عن طريق العقل والمنطق • والقرآن الكريم ملىء بالأمثلة التى تؤكد أهمية الصيغة العقلية للانسان • وعلينا كمسلمين أن نستخدم عقولنا فى التمييز

بين الصواب والخطأ وبين الصالح والطالح من الأمور • وقد ضرب الله مثلا لرسوله الكريم بأن يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة « لا اكراه فى الدين » •

ويتضمن أسلوب المحاورة والمناقشة فى التربية الاسلامية ضرورة تعريف الناشئة بالأساس العقلانى والمنطقى لأى قضية مطروحة أمامهم وألا يرددوا المعلومات ترديدا أعمى دون فهم لمضمونها الحقيقى أو دون ادراك لارتباطها بواقعهم الفردى ، والاجتماعى • كما يجب أن تتاح لهم الفرصة للمناقشة الجادة البناءة التى تحلل أبعاد الموضوع المطروح للمناقشة وتلقى الضوء على جوانبه المختلفة • ومن الطرق التى يمكن أن يلجأ اليها المعلم لاقناع التلاميذ فى الأمور الدينية لا سيما فى الغيبيات أن يوضح لطلابه أن هناك أنواعا مختلفة من المعرفة من بينها المعرفة اللدنية الغيبية والنقل عن السلف الصالح وأن هذا اللون من المعرفة قد يقصر عقل الانسان عن فهمه وتصوره وما أكثر الأمور التى تبين ذلك حتى فى ميدان العلم الطبيعى أو التجريبى والكون من حولنا ملىء بالظواهر التى لا نراها ولا نحسها ولا نسمعها ومع ذلك لا يستطيع أحد أن ينكر وجودها ومن أمثلتها الموجات الصوتية والضوئية فهناك كائنات متناهية فى الصغر لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة وهناك أصوات متناهية فى الدقة مثل دبيب النمل لا يمكن سماعه بالأذن العادية • وهذه أمور موجودة لم يكن يعلم الانسان من قبل عنها شيئا • وقد يصعب على العقل مثلا تصور اختراق الأشعة السينية للاجسام الصلبة • وليس من الضرورى أن نستدل على الشىء بوجوده المباشر وانما عن طريق آثاره فقديما قالوا البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير •

ومظاهر ابداع الكون تدل بالتالى على عظمة خالقه • والعلم الحديث يأخذ بهذا الأسلوب من التفكير فالطاقة مثلا هى موضوع علم الطبيعة برمته ومن الصعب تعريفها تعريفا مباشرا الا من خلال آثارها التى تحدثها أو من خلال ما يعرف « بالتعريف الاجرائى الذى يعرف

الظاهرة باجراءاتها وعملياتها التى تضمنها • ونحن فى التربية لا نعرف على وجه التحديد ماذا يحدث فى عقل الانسان نتيجة لعملية التعلم • نحن نسلم بأن الانسان يتعلم ألوانا من المعارف والسلوك والمهارات أما كيف يحدث هذا التعلم فى الانسان وما الأثر الذى يحدثه فى عقله ؟ فهذا اجتهاد لانظريات الكثيرة التى تحاول تفسير التعلم عند الانسان •

والحياة نفسها فيها المعقول واللامعقول • ونحن قد نرفض قبول الجانب اللامعقول فيها عندما نفكر بطريقة عقلية منطقية • ومع ذلك نحن نعيش هذا الواقع ونتأثر به • كم منا مثلا من يسلم علميا أو منطقيا بما يقال أحيانا « من عاش بالصحة مات بالمرض » أى أن من يعيش ملتزما تماما بالأصول الصحية لابد وأن يموت مريضا ومع ذلك فان الحياة قد تظهر لنا فى بعض الأحيان أنه أحد قوانينها • والنظرية العلمية نفسها ليست خالدة وكم من نظريات العلم التى سادت التفكير فى فترة ما ثبت خطؤها أو عدم صحتها فيما بعد • وأرجو ألا يفهم من ذلك أننى أشكك فى العلم أو أقلل من أهمية منجزاته فاننى أردت من كلامى السابق أن أبين اختلاف أساليب الاقناع وأن العقل الانسانى نفسه محدود والانسان قد يصل الى الاقتناع العقلى ومع ذلك يكون أسيرا لعادة تحكمت فيه • فكثير منا مثلا مقتنع بمضار التدخين ومع ذلك لا يستطيع أن يمتنع عنه • وقد يكون الانسان مقتنعا بشىء من الناحية العقلية المنطقية لكنه غير مقتنع من الناحية العاطفية أو الوجدانية مما يحول بينه وبين السير فى الطريق الذى يمليه التفكير العقلى أو المنطقى ويبدو هذا الأمر بوضوح فى المسائل التى تتصل بعواطف الانسان ولذلك تهتم التربية الاسلامية بتربية الانسان المسلم تربية سليمة تمكنه من التحكم فى عواطفه والسيطرة عليها والبعد به عن التعصب الأعمى • ويجب أن يهتم المعلم فى اقناعه لتلاميذه بالأساس العقلى الذى يساعد تركية العواطف النبيلة لدى الانسان ومثله العليا فى الحق والخير والجمال •

ويؤكد ابن خلدون أن الطريقة الصحيحة فى التعليم هى التى تهتم بالفهم والوعى والمناقشة لا الحفظ الأعمى عن ظهر قلب ويشير الى أن « ملكة العلم » انما تحصل بالمحاورة والمناظرة والمفاوضة فى مواضيع العـام ٠

وهو يعيب طريقة الحفظ عن ظهر قلب ويعتبرها مسئولة عن تكوين أفراد ضيقى الأفق عقيمى التفكير لا يفقهون شيئا ذى بال فى العلم ٠

والواقع أن المربين المسلمين قد اهتموا بأسلوب المناظرة والحوار فى التدريس واعتبروه أسـلوبا مفضلا مجديا فى التعليم ٠ يقـول الزرنوجى ان قضاء ساعة واحدة فى المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من قضاء شهر بأكمله فى الحفظ والتكرار ٠

وقد احتاط المربون المسلمون من سوء استخدام أسلوب المناظرة والحوار بأن له بعض الشروط التى تجعل منه أسلوبا فعالا للتعـلم والبحث العلمى من أهمها أن يكون هدف المناظرة الوصول الى الحقيقة لا التضليل وحب الانتصار بالباطل ٠ كما يشترط فى المتناظرين الالمـام بموضوع المناظرة والتحلى بالهدوء وسعة الصدر وعدم التكلف وغيرة الصدر ٠ ومع أن أسلوب المناظرة هو أقرب الى الدراسات العالية فاننا نجد صورة مبسطة منه فى أسلوب الحوار والنقاش الذى يديره المعلم مع تلاميذه ليحفزهم على التفكير ٠

٥ ــ أسلوب المعـرفة النظـرية :

يعتبر أسلوب المعرفة النظـرية من أقـدم وأشيع الأسـاليب المستخدمة فى التربية ٠ وهو يعتبر من الأساليب التى تقوم عليها التربية الاسلامية ٠ وللمعرفة والعلم قيمة حقيقية فى الاسلام فلا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون بصرف النظر عن ماذا يعلمون ٠ وقد أشرنا فى مكان آخر الى أن الاسلام اعتبر العلم طريقا لطاعة الله وخشيته ٠ كما سبق لنا أن بينا بالتفصيل مكانة العلم فى الاسلام ٠

والمعرفة النظرية مهمة فى حد ذاتها لأنها تنمى عقل الانسان وفكره وتساعده على تكوين خلفية ثقافية تمكنه من التعامل مع مجتمعه وتساعده على القيام بدور المواطنة الصالحة فيه ولقد تعالت الصيحات من جانب المربين يتساءلون حول جدوى المعرفة النظرية وانتقدوا التعليم المعاصر لأنه تعليم لفظى نظرى يفتقر الى مغزاه الوظيفى والتطبيقى ، وقد ترتب على ذلك عزلة التعليم عن مجتمعه ونفور الطلاب فى بعض الأحيان منه وعزوفهم عنه • وقد حدا هذا الوضع ببعض المربين الى وصف المعلمين بأنهم أناس يحاولون أن يعلموا أناسا آخرين أشياء لا يرغبـــون فى تعلمها • وقد يكون فى هذا الأمر بعض المبالغة التى تغلف ما فى هذه الدعوى من صحة • ولكن ذلك لا يقلل بأى حال من الأحوال من المعرفة النظرية • ولن يكف التعليم المدرسى فى يوم ما عن تقديم هذا اللون من المعرفة لضرورته وأهميته • ان أية فكرة عملية لابد أن تبدأ بفكرة فى عقل الانسان والانسان يفكر بالرموز •

والاسلام كما أشرنا يحترم العلم وأهله ويقدرهم • كما أنه يعتبر المعرفة أساس المساءلة « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » • ولكن التربية الاسلامية فى اهتمامها بأسلوب المعرفة النظرية كأحد الأساليب التى تستخدمها فانها أيضا تؤكد أهمية الأساليب الأخرى التى تتكامل فيما بينها لتكون المنهج الشامل للتربية فى الاسلام •

٦ ــ أسلوب الممارسة العملية :

من الأساليب التى تهتم بها التربية الاسلامية أسلوب الممارســة العملية • وقد سبق أن أشرنا الى أن التكاليف الاسلامية كلها والمبادىء الرئيسية للاسلام من شهادة بواحدانية الله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم واقامة الصلاة وايتاء الزكاة والحج وصوم رمضان انما تتطلب ممارسة وأسلوبا عمليا من جانب الانسان • ويجب أن يتطابق سلوك المسلم الحق مع ما فى ضميره وقلبه « انما الأعمال بالنيات وانما لكل

امرىء ما نوى » • وأن الله سبحانه وتعالى يحاسبنا على أعمالنا بمقدار ما ترتبط هذه الأعمال بنوايا الانسان وسرائره • فالله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور • وينبغى على المربى المسلم أن يهتم بتنمية السلوك العملى الرشيد وأن يدرك أن تلاميذه انما يحسن تعليمهم اذا هم مارسوا ما تعلموه من خلال خبرتهم وتجربتهم المباشرة• كما يجب أن يهتم المعلم باظهار الجوانب الوظيفية والتطبيقية لما يتعلمه التلميذ فى واقع حياته كفرد وفى واقع المجتمع الاسلامى الكبير • ان الناشئة الصغار لا يمكن أن يتعلموا ألوان السلوك الدينى والاجتماعى الا اذا مارسوها وأصبحت عادة لديهم • وهذا يعنى ألا يقتصر المعلم على المعرفة اللفظية وانما يجب أن يتعدى ذلك ليربط بين الفكر والعمل والنظرية ، والتطبيق •

٧ ــ أسلوب التلقين والحفظ :

ساد أسلوب التلقين والحفظ فى الممارسات التعليميـــة القديمة ومازال يمارس حتى الآن • ويرجع ذلك بالطبع الى التصور الذى كان يؤمن به المعلمون بالنسبة لعملية التعلم فقد كان الهدف من التعليم فى نظرهم حشو عقل التلميذ بالمعلومات عن طريق الحفظ والتلقين• وكأن التحصيل الدراسى غاية فى ذاته وقيمة التلميذ تقاس بمقدار ما حفظه من معلومات وتحصل فى عقله من معارف وليست التربية الاسلامية وحيدة زمانها فى ذلك وانما هى ممارسة شاعت فى التعليم فى مختلف المجتمعات وعلى مر العصور والأزمان •

وتركز الطريقة التلقينية على تعليم المواد الدراسية وتعطيها كل عنايتها دون اهتمام خاص أو عناية بالمتعلم نفسه • وقد انتقد المربون المسلمون الطريقة التلقينية وطريقة الحفظ بدون فهم وفضلوا عليهـــا طريقة المناقشة والحوار •

الفصل الثانى

تربية الطفل فى الاسلام

مقدمة :

تمتاز التربية الاسلامية بكثير من ميزات التربية الحديثة فى شمولية النظرة الى التربية كعملية ونتيجة معا . وتعنى التربية الاسلامية فى مفهومها المطلق بلوغ الكمال الانسانى بالتدريج . والكمال لله وحده عز وجل وهو مسألة نسبية لذلك قلنا فى مفهومها المطلق . ويبرر هذا الكمال قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » كما أن الاسلام آخر الديانات وأكملها وأتمها . يضاف الى ذلك أيضا التشريف والتكريم الذى خص الله به الانسان وحده دون غيره من سائر المخلوقات وتفضيله اياه على كثير من خلقه . بل وجعله خليفته فى الأرض بما تتضمنه هذه الخلافة من رسالة انسانية سامية .

وقلما نجد نظيرا للتربية الاسلامية فى الاهتمام بالطفل وتكريمه فقد أوجب الاسلام العناية به حتى وهو جنين فى بطن أمه وحرم ايذاءه أو الحاق الضرر به بأى شكل من الأشكال بما فى ذلك الاجهاض .

وعند مولده يحتفى به ويكرم . ومن مظاهر هذا التكريم ما يعرف فى اصطلاح الفقهيين « بالعقيقة » وهى شاة تذبح له فى اليوم السابع احتفاء بمولده .

وقد اعترف الاسلام بحقوق الطفل منذ لحظة خروجه حيا الى الدنيا فأوجب له حق الميراث كالكبير كما أوجب اختيار أحسن الأسماء له .

واذا مات الطفل فانه يعامل معاملة الكبير فيغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن • واذا كان الاسلام قد حرم قتله قبل خروجه الى الدنيا فمن الطبيعى أن يمتد هذا التحريم الى ما بعد خروجه اليها• قال تعالى: « لا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا » •

ومن أهم الأشياء التى أوجبها الاسلام للطفل حق الرعاية والتربية حتى ولو كان الطفل لقيطا أو منبوذا • فقد أوجب الاسلام تربية الطفل اللقيط أو المنبوذ ورعايته والاحسان اليه حتى يكبر •

وهناك كثير من الأدلة التى تؤكد أن تربية الطفل هى من أوجب الأشياء على ولى الأمر نحو ولده • والأحاديث النبوية التالية هى بعض أمثلة على ذلك :

— قال صلى الله عليه وسلم :

« ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن » •

— وقال صلى الله عليه وسلم :

« رحم الله عبدا أعان ولده على بره بالاحسان اليه والتآلف له وتعليمه وتأديبه » •

— وقال صلى الله عليه وسلم :

« لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق كل يوم بنصف صاع على المساكين » •

ويتساوى فى هذا الاهتمام بالتعليم الولد والبنت على السواء ، فتعليم البنت حق كالولد ، ويعترف المربون المسلمون ومنهم القابسى وغيره بحق البنت فى التعليم انطلاقا من أن التكاليف الدينية واجبة على الرجل والمرأة • وهذا يتفق مع روح الاسلام الحقيقية التى جعلت

من طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة • ومع تسليم المربين المسلمين بهذا الحق للبنت فان بعضهم ومنهم ابن سحنون والقابسى على سبيل المثال ، يذهب الى عدم الخلط بين الصبيان والاناث فى التعليم لاعتبارات أخلاقية تربوية ، كما ينبغى أن تعلم البنت ما فيه صلاحها ويبعدها عن الفتنة •

من أين نبدأ :

من الأمور الطبيعية أن تبدأ تربية الطفل بتنمية الجسم حتى يشب صحيحا قويا • أما التعليم المنظم فيبدأ عندما يصل الطفل الى سن العقل أو التمييز ، ولنستعرض أولا هذه النصوص :

ــ قال عليه الصلاة والسلام :

« مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع » •

ــ مما يروى :

« لاعب ولدك سبعا وأدبه سبعا وصاحبه سبعا ثم اترك حبله على غاربه » •

ــ يقول ابن سينا :

« اذا فطم الصبى عن الرضاع بدأ تأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة • فان الصبى تتبادر اليه مساوىء الأخلاق فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مقاومة •• » •

« واذا أتى عليه (الطفل) من أحواله ست سنين فيجب أن يقدم الى المؤدب والمعلم » لأن فى هذه المرحلة « تشتد مفاصل الصبى ويستوى لسانه ويتهيأ للتلقين ويعى سمعه » •

ــ مما يروى أيضا : « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » •

ويذكر ابن أبى أصيبعة فى « عيون الأنباء » فى ترجمته لعلى ابن رضوان المصرى نصا قاله عن نفسه ذكر فيه أنه بدأ تعليمه فى السادسة فيقول : « فلما بلغت السادسة أسلمت نفسى فى التعليم » .

— ويقول أبو بكر بن العربى فى أحكام القرآن : « وللقوم فى التعليم سيرة بديعة وهى أن الصغير منهم اذا عقل بعثوه الى المكتب ».

من هذه الأمثلة السابقة يتضح أن سن التربية فى الاسلام بمفهومها الواسع الشامل يبدأ منذ لحظة الميلاد أما بداية سن التعليم المنظم فتكون عند بلوغ سن العقل والادراك والتمييز . وهذا السن تتراوح عادة بين سن السادسة والسابعة . وليس هناك ما يمنع من أن تكون قبل ذلك اذا كان هناك ما يبرر ذلك أو ما يقتضى ذلك من مصلحة أو منفعة . ومن المعروف أن علم وظائف الأعضاء قد توصل الى أن اكتمال نمو العين عند الأطفال يكون فى سن السادسة وقبل هذه السن يكون الطفل اما طويل النظر أو قصير النظر . أليس ذلك مبررا لجعل هذا السن بداية سن التعليم المدرسى المنظم فى كثير من النظم التعليمية المعاصرة .

تبعا لاختلاف نمو الصبيان فى بلوغ سن العقل والتمييز ، ومع تقدم السن تزداد مطالب التعليم وتنمية العقل .

كما يتضح أيضا أن مرحلة ما قبل سن التعليم المنظم تنصرف الى تنمية الجسم وبنائه بناء صحيحا قويا . وهكذا تبدأ تربية الطفل بتربية الجسم وتحقيق مطالب نموه ، وفى هذه المرحلة تكون تربية الجسم موزعة بين الغذاء واللعب والاستجمام والراحة كمطالب رئيسية .

يقول ابن سينا :

« اذا انتبه الصبى من نومه فالأحرى أن يستجم ثم يخلى بينه وبين اللعب ساعة ثم يطعم شيئا يسيرا ثم يطلق له اللعب وقتا أطول ثم يستجم ثم يغذى » .

نشــاط الطفل دليل صــحة :

أدرك المربون المسلمون أن من طبيعة الطفل أن يكون نشيطا كثير الحركة وأدركوا أن نشاط الطفل دليل على صحة جسمه ويقظــة عقله وصفاء ذهنه •

واذا بدأ الطفل هادئا قليل النشاط فان ذلك يعتبر أمرا غير طبيعى بالنسبة له وقد يرجع ذلك لمرض أصابه أو أمر أحل به ، وهكذا عكس ما هو شائع لدى الكثير من الناس اذ ينظرون الى الأطفال كثيرى الحركة على أنهم « أشقياء » وأما قليلو الحركة والنشاط فينظرون اليهم على أنهم «عقلاء » ومتزنون •

فطرة الطفــل محايدة :

ـ قال صلى الله عليه وسلم :

« ما من مولود الا ويولد على الفطرة وانما أبواه يهــودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » •

ـ قال ابن مسكويه فى : « تهذيب الأخلاق » عن نفوس الأطفال فى مرحلة المهد انها : « ساذجة لم تنتبش بصورة » •

ـ وقال « ابن الجزار » عالم القرن الرابع الهجرى فى « سياسة الصبيان » وتدبيرهم :

« وليس لهم (الصبيان) عزيمــة تصرفهم عما يؤمرون به من المذاهب الجميلة والأفعــال الحميدة فمن عود ابنــه الأدب والأفعــال الحميدة والمذاهب الجميلة فى الصغر حاز بذلك الفضيلة ونال المحبــة والكرامة وبلغ غاية السعادة » •

ـ ويقول الغزالى فى نفس المعنى :

« الصبى أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة

خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ومائل الى كل ما يقال فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخـرة وشاركه فى ثوابه كل معلم له ومؤدب وان عود الشر وأهمل اهمـال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والوالى له » .

التعليم فى الصـغر كالنقش على الحجر :

يرى كثير من علماء المسلمين منهم الغزالى وابن خلدون وغيرهما، ان التعليم فى الصغر يكون أشد رسوخا كما أنه يكون أصلا لما بعده .

وهكذا ينبغى أن يبدأ تعليم الصبيان من صغرهم وقديما قالوا : « التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر » وقد سبق أن أشرنا الى ما يؤكده الغزالى على سبيل المثال عندما يقول عن الصبى « وقلبـه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش عليه » .

وقد ردد هذا القول « جون لوك » بعد حوالى ١٣ قرنا من الزمان عندما ذهب الى أن عقل الطفل صفحة بيضاء تنقشه الخبرة والتعليم .

ليس الكـل سـواء :

تسلم التربيةالاسلامية بأن الأطفال يختلفون فىاستعدادتهم وما هيئوا له وأن بينهم فروقا فى القدرة على التعلم وأن بعض الأطفال أقدرمن غيرهم فى تعلم مجالات معينة من العلم . كما أن منهم من لا يصـلح تعليمه الا لحد معين لا يتعداه . ويرى المربون المسلمون ضرورة توجيه الطفل أو الصبى الى ما يناسبه من تعليم وأن يترك ما لا يقدر عليه الى ما يقدر عليه .

— ويقول أبو يحيى الأنصارى فى اللؤلؤ النظيم فى روم التعليم :

« ان على كل صبى أن يعرف طرفا من العلوم الضرورية فى الحياة

كالقراءة والكتابة والحساب • ثم عليه بعد ذلك أن يتجه الى العلم ، الحرفة على حسب استعداده وتكوينه اذ ليس كل أحد يصلح لتعلم العلوم فاذا اتجه الى العلم فليقصد العلم الذى يقبله طبعه فما كل من يصلح لتعلم العلوم يصلح لجميعها » •

— ويقول الزرنوجي فى « تعليم المتعلم طريق التعلم » :

« انه لا ينبغى على المتعلم أن يختار نوع العلم بنفسه بل يفوض أمره الى الأستاذ فان الأستاذ قد حصل له من التجارب فى ذلك ما يفيد فهو أعرف بما ينبغى لكل واحد وما يليق بطبيعته •

— وقال ابن جماعة :

« واذا علم المعلم أن تلميذا لا يصلح فى فن أشار عليه بتركه والانتقال الى غيره مما يرجى فيه فلاحه » •

— وقد قال الشاعر :

اذا لم تستطع شيئا فدعه   وجاوزه الى ما تستطيع

— ويقول ابن سينا :

« ليست كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مواتية ولكن ما شاكل طبعه وأنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة ما كان أحد غفلا من الأدب • واذن لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات • فينبغى لمدرب الصبى اذا رام اختيار صناعة أن يزن أولا طبع الصبى ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه مبينا له الصناعات طبقا لذلك » •

كما يرى ابن سينا أن بعض الناس لا يصلحون للتعليم فيقول :

« وربما نافر طباع انسان جميع الآداب والصنائع فلم يعلق منها بشىء » • ويضرب لذلك مثلاً فيقول :

« ان أناسا من أهل العقل رأوا تأديب أولادهم واجتهدوا فى ذلك وأنفقوا فيه الأموال فلم يدركوا من ذلك ما حاولوا » .

التــدرج فى تربية لطفــل :

التربية الاسلامية تربية متدرجة تتمشى مع طبيعة نمو الانسان وقد جاء الاسلام نفسه متدرجا فى أحكامه التى ربى عليها المسلمون الأوائل . ومن مظاهر تدرج التربية الاسلامية الاهتمام بتربية الجسم فى السنوات الأولى من حياة الطفل حيث تكون هذه التربية ألزم ما تكون لنموه الجسمى السريع فى هذه المرحلة . ثم تأتى مرحلة التــأديب والتهذيب والتعليم بعد هذه المرحلة عندما يصل الطفل الى سن العقــل والتمييز ، ولهذا تكون التربية فى هذه المرحلة تربية عقلية أخلاقية . وأخيرا تأتى مرحلة النضج والاكتمال حيث يكون الانسان قد وصــل الى المرحلة التى يتحمل فيها المسئولية كاملة ويقوم بواجباته وأدواره الاجتماعية فى الحياة كراشد مســئول يتحمل فيها نتــائج تصرفاته وأعماله .

وعلى مستوى تعليم الصبيان أشار علماء المسلمين الى ضروره التدرج فى تعليم الصبى والبدء بالأشياء السهلة ثم الانتقال منها الى ما هو أصعب ويطالبون المعلم بألا يخوض فى العلم دفعة واحدة بل يتدرج فيه مع مراعاة الترتيب بالأهم وكذلك ينبغى عليه ألا يخوض فى علم الا بعد أن يستوفى ما قبله فالعلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق بعض .

ويميز ابن خلدون بين ثلاث مراحل سماها « تكرارات » فى التعليم المرحلة الأولى يكون التعليم فيها اجمالا والثانية تفصيلا والثالثة تتناول ما استشكل فى العلم ومسائل الخلاف فيه . وقد سبق أن أشرنا الى تفصيل رأى ابن خلدون .

ويؤكد الغزالى على ضرورة فهم المعلم لطبيعة الصبى وهذا يتأتى من دراسته لنفسية الصبيان الذين يعلمهم فهم ليسوا سواء وهــذه

الدراسة تساعده من ناحية أخرى على ايجاد الصلة الانسانية بينه وبينهم وعلى المعلم أن يتدرج فى تعليم الصبى وأن يبدأ معه من السهل الى الصعب • وفى ذلك يقول الغزالى :

« ان أول واجبات المربى أن يعلم الطفل ما يسهل عليه فهمه لأن الموضوعات الصعبة تؤدى الى ارتباكه العقلى وتنفره من العلم » •

تعلم أدب الطعام :

يرى بعض علماء المسلمين منهم الغزالى وابن مسكويه أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام ولذلك ينبغى أن يؤدب فى ذلك وأن يعود آداب الطعام من صغره • وفى ذلك يقول ابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق :

« اذا جلس مع غيره لا يبادر الى الطعام ولا يديم النظر الى ألوانه ولا يحدق اليه شديدا ويقتصر على ما لديه ولا يسرع فى الأكل ولا يوالى بين اللقم بسرعة ولا يعظم اللقمة ولا يبتعلها حتى يجيد مضغها ولا يلطخ يده ولا ثوبه ولا يلحظ من يؤاكله ولا يتتبع بنظره مواقع يده من الطعام ويعود أن يؤثر غيره بما يليه ان كان أفضل ما عنده ثم يضبط شهوته حتى يقتصر على أدنى الطعام وأدونه » •

تعلم أدب الاستئذان :

ومن الآداب التى يتعلمها الطفل من صغره أيضا أدب الاستئذان ، اذ يجب عليه أن يتعلم الاستئذان فى الدخول على أهله لا سيما فى أوقات معينة مثل وقت الراحة ، والنوم حين يكون الانسان معرضا لظهور عورته فيطلع عليها الطفل •

قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم

يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم » .

واذا بلغ الطفل الحلم وبلغ مبلغ الرجال فليستأذن :

قال تعالى :

« واذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلكم » .

الدين أصـــل الأخـــلاق :

يعتبر المربون المسلمون الدين أصل الأخلاق فالدين أساس التربية الخلقية فى الاسلام ولذلك يجب أن يعمل التعليم على تهذيب الأخلاق وأساس الأخلاق عنده الضمير الخلقى الحى المستمد من الدين الذى يعتمد على ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم عندما سئل ما الاحسان قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فهو يراك » . ويكون اكتساب الأخلاق عن طريق التعليم والقدوة ، ولذلك كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ذات فائدة تعليمية خلقية عظيمة . قال تعالى : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . وقال تعـــالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليـــوم الآخر » .

وبين ابن مسكويه أثر الدين فى أخلاق الصبيان فقال :

« والشريعة هى التى تقوم الأحداث وتعودها الأفعال المرضـــية وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ الى الســعادة الانسانية » .

« وعلى الوالدين أخذهم بها وبسائر الآداب الجميـــلة بضروب السياسات من الضرب اذا دعت اليه الحاجة أو التوبيخات أو الأطمـــاع فى الكرامات أو غيرها ممن يميلون اليه من الراحات أو يحذرونه من

العقوبات حتى اذا تعودوا ذلك واستمروا عليه مدة من الزمان كثيرة أمكن فيهم حينئذ أن يعلموا براهين ما أخذوه تقليدا » •

الطاعة أســاس الفضائل :

تعتبر الطاعة أساس الفضائل فى التربية الاسلامية وقد أوجبها الله عز وجل بقوله : «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم»• فالطاعة لكل هؤلاء مظهر للخلق الكريم ويقول ابن مسكويه « وينبغى أن يعود (الطفل) طاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظم ويهابهم » •

الفضائل والرذائل :

ان الفضائل من تمام كمال الانسان وقد تنبه المربون المسلمون الى أثر تكوين العادة فى اكتساب الفضائل لدى الانسان ولذا يوصون المعلم بتوجيه الصبيان الى العادات الحسنة وابعادهم عن العادات الرذيلة وأول الصــفات الطيبــة التى يتحلى بها الصــبيان فى نظرهم الطــاعة كما سبق أن أشرنا •

ومن الصفات الطيبة النظام ، فالفوضى مفسدة للصبيان ويقتضى النظام من الصبيان الانتظام فى الحضور وعند الانصراف من الدرس والتحلى بالنظام فى الدرس والأعمال المدرسية •

والعبادات الاسلامية خير ما يعود الانسان على الطاعة والنظام ولذا كانت ممارستها واجبة • والمعلم مطالب بتعليمها للصبيان باعتبارها أصل الفضائل وعصمة من الرذائل — كما أشرنا أيضا •

العــدل فى المعــاملة :

ان أساس المعاملة فى الاسلام هو العدل ، يستوى فى ذلك الصغار والكبار على السواء •

فقد أوجب الاسلام على الآباء العدل بين أولادهم . قال صلى الله عليه وسلم « اعدلوا بين أولادكم كما تحبون أن يعدل بينكم » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« اتقوا الله وأعدلوا فى أولادكم » .

كما أوجب على الآباء المساواة بين الأبناء وعدم التمييز بينهم فى المأكل والملبس والعطاء والمحبة والتقدير .

احترام الطفل ومعاملته باللطف :

تؤكد التربية الاسلامية على ضرورة احترام الطفل واحتـــرام شخصيته وعدم التقليل من شأنه لصغره ، كما يجب معاملته باللطف واللين ، ومن الشواهد على ذلك :

— ان النبى عليه الصلاة والسلام كان اذا مر على الصبيان سلم عليهم واقتدى صحابته به فى ذلك .

— وفى حديث للنبى صلى الله عليه وسلم :

« ليس منا من يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا » .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يلاطف الأطفال ويمازحهم ليدخل السرور على قلوبهم كما كان يهش ويبش فى وجوههم .

— ويروى أن أناسا من الأعراب قدموا على الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ قال : نعم . قالوا : لكنا والله ما نقبل . قال صلى الله عليه وسلم « أو أملك أن نزع الله الرحمة من قلوبكم » .

— وقال صلى الله عليه وسلم « من كان له صبى فليتصاب له » .

الرفق فى المعاملة :

من الاعتبارات الاسلامية الهامة فى معاملة الصبى الرفق به وعلى المعلم أن يترفق بتلاميذه ولا يتشدد معهم ومن حسن رعايته لهم أن يكون بهم رفيقا وعليه أن يجريهم منه مجرى بنيه •

واذا ما أخطأ الصبى منتهكا الطريق السوى راضه المعلم مبينا له السبيل التى ينبغى سلوكها وأول سبل الرياضة والافهام والتنبيه • يقول ابن مسكويه :

« واذا أخطأ الصبى فأولى ألا يوبخ عليه ولا يكاشف بأنه أقدم عليه بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه قد تجاسر على مثله ولا هم به لا سيما ان ستره الصبى واجتهد فى أن يخفى ما فعله عن الناس •

« فان عاد فليوبخ عليه سرا •• ويحذر من معاودته فانك ان عودته التوبيخ والمكاشفة — حملته على الوقاحة وحرضته على معاودة ما كان استقبحه وهان عليه سماع الملامة » •

« والذنب الأول الذى يرتكبه الصبى يعفى عنه والثانى يعتب عليه عتابا غير مباشر كأن يقال له : ان فعل كذا وكذا قبيح والثالث يعاتب مباشرا • فان عاد الى ذلك ضرب ضربا خفيفا • فاذا استعمل المعلم هذه الطرق ولم ينته الصبى فعليه أن يتركه مدة ثم يعود اليه بنفس الطرق •

الشدة مضرة بالمتعلم :

عقد ابن خلدون فصلا فى مقدمته عن الشدة على المتعلمين وأنها مضرة بهم قال فيه :

« ان ارهاق الجسد فى التعليم يضر بالمتعلم لا سيما فى أصاغر الولد لأن من كان مرباه بالعنف والقهر من المتعلمين ذهب نشاط نفسه

ودعاه ذلك الى الكسل وحمله على الكذب والتظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه وربما صارت له هذه عادة وخلقا فتفسد معانى الانسانية عنده وتكسل نفسه عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل » •

ضرورة المدح والتشجيع :

يتفق المربون المسلمون على ضرورة مدح الطفل وتشجيعه اذا ما أظهر أى شىء يستحق المدح وذلك تشجيعا له •

ويقول ابن مسكويه فى « تهذيب الأخلاق » :

« ويمدح الصبى بكل ما يظهر فيه من خلق جميل وفعل حسن يكرم عليه » •

« وعلى المعلم أن يغبطه على احسانه •• ليعرف وجه الحسن من القبح فيدرج على اختيار الحسن » •

آخر العقاب الضرب :

ان العقوبة مشروعة فى الاسلام وجعل لنا الله فى القصاص حياة • وقد أقر المربون المسلمون مبدأ عقاب الصبيان لكنهم اشترطوا الرفق بهم تمشيا مع روح الاسلام التى تتسم بالرحمة والعفو • كما أن منزلة المعلم من الصبى هى منزلة الوالد • وهو مطالب بأن يكون رفيقا به عادلا فى عقابه غير متشدد فيه ومن الرفق ألا يبادر المعلم الى العقاب اذا أخطأ الطفل وانما ينبهه مرة بعد أخرى فاذا لم ينتصح لجأ الى العقاب • وقد نهى المربون المسلمون عن استخدام أسلوب الحرمان من الطعام والشراب فى العقاب ، لما له من أثر على صحة الطفل فى هذه المرحلة ونهوا المعلم عن الانتقام فى العقاب وضرب الصبيان فى حالة الغضب حتى لا يكون « ضرب أولاد المسلمين لراحة نفسه » •

وأشاروا الى اتباع أسلوب الترغيب والترهيب فى معاملة الصبيان . فأقروا الضرب كعقوبة الا أنهم اشترطوا لهم شروطا من أهمها :

١ ـ لا يجوز ضرب الأطفال قبل العاشرة لقوله تعالى : « واضربوهم لعشر » .

٢ ـ لا يجوز ضرب الطلاب الذين تقدمت أعمارهم .

٣ ـ ألا يوقع المعلم الضرب الا على ذنب وللضرورة القصوى ولا يكثر فيه .

٤ ـ أن يكون العقاب على قدر الذنب لا للتشفى .

٥ ـ أن يكون الضرب من واحدة الى ثلاث ، ويستأذن ولى الأمر فيما زاد عن ذلك .

٦ ـ أن يقوم المعلم بالضرب بنفسه ولا يوكله لواحد من الصبيان .

٧ ـ أن يكون الضرب على الرجلين ويتجنب الضرب على الوجه والرأس أو الأماكن الحساسة من الجسم .

٨ ـ أن تكون آلة الضرب هى الدرة أو الفلقة ، ويجب أن يكون عود الدرة رطبا مأمونا .

ضرورة الترويح واللعب :

تهتم التربية الاسلامية بضرورة الترويح عن نفس الطفل ، وفى تربية الولد يشير الغزالى الى ضرورة الترويح عن الصبى وأشار الى موضوع اللعب الذى قال ان له ثلاث وظائف :

ـ يروض جسم الصغير ويقويه .
ـ يدخل السرور على قلبه .
ـ يريح الصبى من تعب الدروس ، ويروح عن تعب النفس كللها ومللها .

ويقول ابن مسكويه فى نفس المعنى :

« وينبغى أن يؤذن له فى بعض الأوقات أن يلعب لعبا جميلا ليستريح اليه من تعب الأدب ولا يكون فى لعبه ألم ولا تعب شديد » •

تربية بالقدوة :

للقدوة دور هام فى التربية لا سيما فى مرحلة الطفولة فالطفل يقتدى بمن يراهم ويقلدهم فى أعمالهم وسلوكهم ، ولذلك عنيت التربية الاسلامية بالقدوة الحسنة •

وقد قال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده :

« ليكن أول اصلاحك لولدى اصلاحك لنفسك فان عيونهم معقودة بك فالحسن عندهم ما تركت • علمهم كتاب الله •• وروهم من الحديث أشرفه ومن الشعر أعفه ولا تنقلهم من علم الى علم حتى يحكموه فان ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم وعلمهم سنن الحكماء وجنبهم محادثة النساء » •

وينصح ابن المقفع من نصب نفسه للناس اماما فى الدين أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها فى السيرة والرأى واللفظ فيكون تعليمه للناس بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه ••

قال تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » •

وقديما قال الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره
هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى
كيما يصح به وأنت سقيم

ونراك تصـــــــلح بالرشـــــاد عقــولنا
أبــدا وأنت من الرشـــــاد عـــديم
لا تنـــه عن خلـــق وتأتى مثـــــله
عـــار عليـــك اذا فعـــلت عظـيم

وتربية بالمخالطـــة :

تهتم التربية الاسلامية بالأثر الذى تحدثه مخالطة الصبى لرفاقه وتأثير هؤلاء الرفاق على سلوكه وشخصيته • ولذلك نحرص على حسن اختيار الرفاق الذين يصاحبهم أو يخالطهم ، واشترطت أن يكونوا من ذوى الأدب والخلق حتى ينشأ الصبى نشأة صالحة لأنه فى مخالطته لهم يقتدى بهم فى سلوكهم كما أن هذا الاختلاط يساعد بعضهم بعضا على التعلم • وقد ضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم مثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير •

ويقول ابن ســـينا :

« ينبغى أن يكون مع الصبى فى مكتبه صبية من أولاد الجلة حسنة آدابهم مرضية عاداتهم • فان الصبى عن الصبى ألقن وهو عنه آخذ وبه آنس • وانفراد الصبى الواحد بالمؤدب أجلب الأشياء لضجرهما فاذا راوح المؤدب بين الصبى والصبى كان ذلك أنتى للسآمة وأبقى للنشاط وأحرى للصبى على التعليم والتخرج فانه يباهى الصبيان ، والمحادثة تفيد انشراح العقل وتحل منعقد الفهم لأن كل واحد من أولئك انمـــا يتحدث بأغرب ما رأى وأغرب ما سمع فتكون غرابة الحديث ســـببا للتعجب منه والتعجب منه سببا لحفظه وداعيا الى التحدث به • ثم انهم يترافقون ويتعارضون الزيارة ويتكارمون ويتعاوضون الحقوق وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة وفى ذلك تهـــذيب لأخلاقهم وتحريك لهممهم وتمرين لعاداتهم •

وينصح الزرنوجى فى « تعليم المتعلم » الطالب بألا يصادق من زملائه الا المجد الورع وصاحب الطبع المستقيم وأن يفر من الكسلان والمعطل والمكثار •

خاتمـــــة :

فهذه لمحات عن تربية الطفل فى الاسلام حاولنا خلالها أن نتحدث بلسان ، النصوص القرآنية والأحاديث وما ورد عن علماء المسلمين ومربيهم السابقين • ولقد أردنا أن نؤكد أن فى هذه النصوص زاد لكل مرب معاصر يستطيع أن يجد فيها أصول الفكر التربوى الحديث • وأردنا من ناحية أخرى أن نبين أن ميدان التربية الاسلامية ميدان خصيب يحتاج الى جهود مخلصة للكشف عنه والغوص فى جوهره • فحركة العلم دائمة لا تتوقف وهى متجددة باستمرار ومن تعاليم ديننا الحنيف أن الانسان يظل عالما طالما أنه يطلب العلم • وفى هذا فليتنافس المتنافسون •

الفصل الثالث

تعليم المرأة فى الاسلام

قلما نجد فى أى دين من الديانات أو نظام من المجتمعات ذلك التكريم الذى أعطاه الاسلام للمرأة •

ففى كل المجتمعات التى سبقت ظهور الاسلام على اختلاف زمانها ومكانها لم تكن المرأة تتمتع بنظرة محترمة وكانت مكانتها الاجتماعية تتسم بالدونية بدرجات متفاوتة فى هذه المجتمعات تشتد حينا وتخف حينا آخر •

ففى الهند القديمة كان ينظر الى المرأة على أنها دورة للروح فى حياة شريرة وكان الهنود يؤمنون بتناسخ الأرواح وفى مصر الفرعونية كانت المرأة أقل من الرجل فى قيمتها ومكانتها الاجتماعية رغم أننا نجد نساء وصلن الى مرتبة الحكم مثل : حتشبسوت وكليوباترا • وفى وصية الحكيم آنى لابنه يقول له : « أحذر أن تمشى فى طاعة أنثى أو تسمح لها بأن تسيطر على رأيك » •

وعند اليونان والرومان كانت المرأة ظلا للرجل ومجرد تابع له ولا تملك من أمرها شيئا •

وفى المسيحية كان ينظر للمرأة على أنه فخ نصبه الشيطان للرجل وأنها سلاح ابليس للفتنة والاغراء ورغم أن تقديس العذراء مريم قد رفع من النظرة الى المرأة فان ذلك لم يغير شيئا كثيرا من الوضع الاجتماعى للمرأة • وفى أوروبا لم يكن للمرأة أى حقوق حتى العصور

الحديثة وكان القانون الانجليزى فى أوائل القرن التاسع عشر يبيح للزوج أن يبيع زوجته بمبلغ زهيد •

وفى الجاهلية كانت المرأة فى وضع لا تحسد عليه فقد كانت مخلوقا للخدمة والمتعة للرجل •

وجاء الاسلام ليشرع للمرأة أول قانون كامل يضمن لها منزلتها وكرامتها ويحقق لها حياة تتفق مع طبيعتها ورسالتها •

وكان النبى صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى معاملة زوجاته • ويقول فى ذلك « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا من زوجة صالحة ، ان أمرها أطاعته وان نظر اليها سرته ، وان أقسم عليها أبرته ، وان غاب عنها حفظته فى ماله وعرضه » • ويقول أيضا : « أكمل المؤمنون ايمانا أحسنهم خلقا » ، « وخياركم خيارهم لنسائهم » وقوله فى آخر خطبة له « استوصوا بالنساء خيرا » • وقد أسهمت المرأة المسلمة فى كثير من جوانب الحياة الاسلامية منها السياسة وشئون الحكم وادارة شئون الدولة والاصلاح الاجتماعى والحروب وغيرها من المجالات التى تزخر بها كتب التاريخ وسنعرض لبعض الأمثلة فى كلامنا عن المرأة والتعليم •

المرأة والحجاب :

من الأخطاء الشائعة التى روج لها المغرضون أن حجاب المرأة نظام جاء به الاسلام وأصبحت المرأة المحجبة رمزا للمرأة المسلمة •

والواقع أن حجاب المرأة كان معروفا فى المجتمعات القديمة قبل الاسلام ففى الهند القديمة كان نظام « البردة » Purda معروفا • وتعنى البردة « الستار » أو « الطرحة » تغطى بها المرأة وجهها عند خروجها من المنزل • كما كان لها فى المنزل مكان خاص لها تتعزل فيه •

وكان حجاب المرأة وعزلتها فى المنزل وخارجه معروفا لدى اليونان القدماء • ويشير هوميروس فى « الأوديسة » الى « بنيلوب » زوجة يوليسيس كمثال على الزوجة الشابة المخلصة لزوجها الواقرة فى منزلها• وكان الرومان يحرمون على المرأة الظهور متزينة فى الشـــارع • بل وحرموا عليها المغالاة فى التزين فى البيوت •

وكان حجاب المرأة معروفا عند العبرانيين من عهد ابراهيم عليـه السلام وظل معروفا عندهم الى ما بعد المسيحية • وقد تكررت الاشارة الى « البرقع » فى العهد القديم ، والتوراة و « العهد الحديث » أى « الانجيل » •

ففى الاصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين عن « رفقة » أنها رفعت عينيها فرأت اسحاق « فنزلت عن الجمل وقالت للعبد : من هذا الرجلّ الماشى فى الحقل للقائى ؟ فقال العبد : هو سيدى •• فأخذت البرقع وتغطت » •

ويقول « بولس » الرسول فى رسالة « كورنثوس الأول » أن النقاب شرف للمرأة فان كانت ترخى شعرها فهو مجد لها لأن الشـــعر بديل من البرقع •• » •

وكانت المرأة عندهم تضع البرقع على وجهها حين تلقى الغرباء وتخلعه حين تنزوى فى الدار بلباس الحداد[1] •

ويقول العقـــاد :

« جاء الاسلام والحجاب فى كل مكان وجد فيه تقليد سخيف وبقية من بقايا العادات الموروثة لا يدرى أهو أثرة فردية أم وقاية اجتماعية• بل لا يدرى أهو مانع للتبرج وحاجب للفتنة أم هو ضرب من ضروب

---

(١) عباس محمود العقاد : المرأة فى القرآن ــ دار الهلال ، ص ٦٣.

الفتنة والغواية . فصنع الاسلام بالحجاب ما صنعه بكل تقليد زال معناه وتخلفت بقاياه بغير معنى ، فأصلح منه ما يفيد ويعقل ولم يجعله كما كان عنوانا لاتهام المرأة أو عنوانا لاستحواذ الرجل على ودائعه المخفية، بل جعله أدبا خلقيا يستحب من الرجل ومن المرأة ولا يفرق بين الواجب على كل منهما الا لما بين الجنسين من فارق فى الزينة واللباس والتصرف بتكاليف المعيشة وشواغلها »[١] .

وقد نهى الاسلام الرجال عن الزينة المخلة بالرجولة ونهى النساء عن التبرج وعدم ابداء زينتهن الا ما ظهر منها . قال تعالى :

« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن .. » الى آخر الآية الكريمة .

وقال تعالى :

« يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفاً . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

وقد استدعت هذه الآية الأخيرة اجتهاد المفسرين فجمهور المفسرين وغالبيتهم يفهمون من قوله تعالى « وقرن فى بيوتكن » أنه أمر بالقرار أو الجلوس فى البيت . وبعضهم يرى أن هذا الأمر مقصور على نساء النبى صلى الله عليه وسلم فقط لأنهن المخاطبات فى هذه الآية الكريمة . وبعض آخر يرى تعميم هذا الأمر على كل النساء باعتبار أن نساء النبى قدوة حسنة لغيرهن من المسلمات وبعض

---

(١) المرجع السابق ص ٦٤ .

الشراح أو المفسرين استنتج من ذلك أن المكان الطبيعى للمرأة هو المنزل وقيدوا خروجها منه •

وهناك تفسير آخر يورده أبو الأعلى المودودى فى كتابه «الحجاب» ولم أقرأه عند أحد غيره هو أن الأمر فى قوله تعالى « وقرن فى بيوتكن » يعنى الأمر بالوقار أى الاحتشام والتأدب وهذا تخريج لطيف لمعنى الفعل « وقر » الذى يحتمل المعنيين كما جاء فى المعاجم اللغوية • تقول وقر فى بيته وقرا وقورة أى جلس ووقر فلان وقارا أى رزن رزانة[١] •

وقد استخدمت الكلمة بهذا المعنى الأخير فى القرآن فى قوله تعالى : « ما لكم لا ترجون لله وقارا » •

ويقول العقاد أن المفهوم من الحجاب فى الاسلام ليس اخفاء المرأة وحبسها فى المنزل • فلا حجاب فى الاسلام بمعنى الحبس والحجر والمهانة ولا عائق فيه لحرية المرأة حيث تجب الحرية وتقضى المصلحة • وانما هو الحجاب مانع الغواية والتبرج والفضول وحافظ الحرمات وآداب العفة والحياء[٢] •

المرأة والتعليم :

لم يرد نص من القرآن أو السنة يحرم تعليم البنت أو يفرض قيودا على تعليمها بل اننا نجد على العكس من ذلك حث على طلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم • وتنكير كلمة مسلم هنا يفهم منها الاستغراق كما يقول علماء البلاغة بمعنى أن نستغرق كل المسلمين وتشمل الذكر والأنثى على السواء •

وهناك كثير من الأمثلة والشواهد التى تلقى الضوء على تعليم المرأة فى عصور الاسلام الأولى منها :

---

(١) انظر المعجم الوسيط جـ ١ ص ١٠٤٩ •
(٢) العقاد : المرجع السابق ص ٦٦ •

١ — يروى البلادرى فى فتوح البلدان أنه عند مجىء الاسلام كان هناك خمسة من نساء العرب يقرأن ويكتبن منهن الشفاء بنت عبدالله العدوية التى كانت تعلم حفصة واستمرت فى تعليمها بناء على طلب الرسول صلى الله عليه وسلم حتى بعد زواجه منها • وروى الواقدى أن عائشة وأم سلمة زوجتى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلمتا القراءة والكتابة •

٢ — وقد ورد عن النبى صلى‌الله عليه وسلم قوله: «خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء يقصد زوجته عائشة التى روت عنه ألف حديث رواية مباشرة وهو ما لم يتوفر لسواها • كما أنها برعت فى قول الشعر وروايته ونقده •

٣ — وقد عقد محمد ابن سعد جزءا من كتابه « الطبقات الكبرى » لرواية الأحاديث عن النساء ذكر فيه ما يزيد على سبعمائة امرأة روين عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه الثقات •

٤ — ترجم ابن حجر فى كتابه « الاصابة فى تمييز الصحابة » لكثير من النساء المحدثات الثقات العالمات •

٥ — خصص كل من النووى فى كتابه « تهذيب الأسماء » والخطيب البغدادى فى كتابه « تاريخ بغداد » والسخاوى فى « الضوء اللامع » حيزا كبيرا للحديث عن النساء اللائى كن على ثقافة عالية لا سيما فى العلوم الدينية ورواية الحديث • ومن بين هؤلاء الشهيرات فى العلوم الدينية نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على وكانت من خيرة المحدثات فى عصرها وسمع عنها الامام الشافعى عندما حضر الى مصر •

كما كان هناك عالمات يجلسن للتدريس فى المساجد للرجال والنساء على السواء • وكان يجلس فى حلقاتهن مشاهير العلماء والمجتهدين •

٦ — كان عيسى بن مسكين (٢٧٥ هـ) يعلم طلبته في الصباح وبعد العصر كان يعلم بنتيه وبنات أخيه وحفيداته • وكذلك علم أسد ابن الفرات بنته أسماء وعنى الامام سحنون بتعليم بنته خديجة وكانت لها حلقة لتعليم النساء •

٧ — يذكر ياقوت فى معجم الأدباء أن الخطيب البغدادى صاحب تاريخ بغداد قرأ صحيح البخارى على كريمة بنت أحمد المروزى وأنه كان لها دور كبير فى تكوين هذا العالم الكبير كما يذكر أيضا أن ابن عساكر فى تعداده لأساتذته وشيوخه الذين تلقى عنهم العلم ذكر من بينهم احدى وثمانين امرأة •

٨ — وهناك أدلة كثيرة على وصول النساء العربيات الى مكانة عالية فى العلوم والمعارف المختلفة وكان من بينهن عالمات فاضلات تعلم على أيديهن كثير من رجالات الاسلام • فقد ذكر ابن خلكان أن السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور التى يرجع نسبها الى الحسن بن على بن أبى طالب والتى ولدت بمكة المكرمة (١٤٥ هـ) وتوفيت بمصر سنة ٢٠٨ هـ ولها مقام معروف باسمها — كان لها فى مصر مجلس علم حضره الامام الشافعى نفسه وسمع عليها فيه الحديث • وذكر أبو حيان من بين أساتذة ثلاثا من النساء هن : مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل أخى صلاح الدين الأيوبى ، وشامية التيمية وزينب بنت المؤرخ والرحالة المعروف عبد اللطيف البغدادى صاحب كتاب « الافادة والاعتبار » •

٩ — كتب التاريخ والأدب حافلة بأسماء مشاهير النساء المسلمات اللائى برعن فى الأدب والشعر وقد ترجم السيوطى فى مخطوطه « نزهة الجلساء فى أشعار النساء » لسبع وثلاثين شاعرة • كما كان هناك نساء مسلمات برعن فى صناعة الطب والجراحة والمداواة ، وكانت لهن شهرة كبيرة وقد ترجم ابن أبى أصيبعة لبعضهن فى كتابه « طبقات الأطباء » •

واشتهرت كثيرات فى الطرب والغناء وقد عرض الأصفهانى فى كتابه الأغانى لذكر أسماء كثير منهن .

آراء علماء المسلمين فى تعليم المرأة :

كان من الطبيعى بالنسبة لموضوع حساس مثل تعليم المرأة أن تكثر حوله الآراء وتتباين ويمكن بصفة عامة أن نقسم هذه الآراء الى مجموعتين :

المجموعة الأولى :

تمثل آراء غريبة عن روح الاسلام وتراثه وتاريخه تفرض قيودا كثيرة على تعليم المرأة لا سيما فى الأمور التى تزيد من حريتها كتعليم القراءة أو الكتابة أو الأمور التى يخشى منها فتنتها وانحرافها مثل قرض الشعر أو دراسته بل ان التحفظ بلغ أشده فى تحريم تعليم المرأة لبعض سور القرآن الكريم مثل سورة يوسف لما يخشى عليها من الغواية . بل ان بعض الآراء تذهب الى الاقتصار على تعليمها « سورة النور » من بين القرآن الكريم كله .وواضح أن كل هذه الآراء تحركها دوافع الغيرة الشديدة على المرأة والتخوف الشديد من كل ما يحتمل فيه مجال الغواية والانحراف لها .

المجموعة الثانيــة :

تمثل الآراء المعتدلة لعلماء المسلمين التى تتمشى مع روح الاسلام وتقاليده وتسلم بتعليم المرأة فى اطار من الثقة الكاملة بأن تعليمها هو خير ضمان لعصمتها وحمايتها من الانحراف والزلل .

وسنعرض فى السطور التالية لكل مجموعة من هذه الآراء :

أولا — آراء غريبة عن الاســلام :

ترددت بعض الآراء عن تعليم المرأة تعتبر غريبة عن روح الاسلام بل وعن تراثه وتاريخه كما أشرنا • فلقد رأينا كثيرا من النماذج لمسلمات مشهورات كان لهن باع طويل فى العلم والتعليم • ومن هذه الآراء الغريبــة :

١ — لا تعلموا بناتكم الكتاب (أى الكتابة) ولا ترووهن الشعر وعلموهن القرآن ومن القرآن « سورة النور » •

وقد أورده الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين (جـ ١ ص ١٨٠) وكأنه يتهكم عليه • كما فند شمس الحق العظيم أبادى أحاديث النهى عن تعليم المرأة الكتابة واعتبرها كلها باطلة وموضوعة وألف فى الرد على ذلك رسالته المسماة « عقود الجمــان فى جــواز تعليم الكتابة للنسوان » •

٢ — ذهب القابسى الى أن تعلم المرأة القرآن والعلم أما ان تعلم الترسل والشعر وما أشبهه فهو مخوف عليها •

٣ — ذهب أبو الثناء الألوسى الى تحريم تعليم البنت الكتابة وقد ألف كتابا فى هذا المعنى سماه « الاصابة فى منع النساء من تعليم الكتابة »[١] ويسمى كتابه الاصابة أى وجه الصواب • وهو ليس كذلك كما سنرى من رد علماء المسلمين على ذلك •

٤ — أباح بعض علماء المسلمين تعليم الجوارى دون الحرائر لأن تعليم الجارية يرفع ثمنها • واذا كان التعليم يرفع من ثمن أو قيمة الجارية أليس تعليم الحرائر أولى وفيه أى التعليم كمال صفاتهن وخلقهن كما سنرى فى كلام الشيخ الطهطاوى فيما بعد •

---

(١) ابراهيم العبيدى التوزرى : تاريخ التربية بتونس، جـ ١، ص ١٢٢ •

ثانيا ــ آراء معتدلة تتفق مع روح الاسلام :

١ ــ يعترف المربون المسلمون بحق البنت فى التعليم انطلاقا من أن التكاليف الدينية واجبة على الرجل والمرأة وهذا يتفق مع روح الاسلام الحقيقية التى جعلت من طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة .

٢ ــ وكان الامام محمد عبده من المؤمنين بضرورة تعليم المرأة وتنوير عقلها فقد رأى أن المرأة قد ضرب بينها وبين العلم بما يجب عليها فى دينها ودنياها . ونادى بتكوين جمعية نسائية تقيم المدارس لتعليم البنات . وقد دافع عن تعليم المرأة مع تلميذه قاسم أمين فيما جاء بكتاب « تحرير المرأة » عن تعليمها .

٣ ــ يعتبر الطهطاوى التربية أساس صلاح المرأة وتمام كمالها ويرفع قدرها فى نظر الرجل والتعليم يزيل عنها سخافة العقل والطيش الذى يصيب المرأة الجاهلة . كما أن التعليم يمكن المرأة من العمل على قدر قوتها وطاقتها . وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فان فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهــواء وافتعال الأقاويل . فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة. ويرد الطهطاوى على التخوف من تعليم المرأة فيقول :

« ان التجربة فى كثير من البلاد قضت أن نفع تعليم البنات لا ضرر فيه ويستعين أيضا بما روى فى كتب الأحاديث وما كان فى زمن الرسول من تعليم النساء » .

والتعليم الذى يليق بالبنات فى نظره هو القــراءة والكتــابة والحساب وبعض الصنائع كالخياطة والتطريز .

وهو يرد على من ذهب الى تحريم تعليمهن القراءة والكتــابة والحساب وبعض الصنائع وأنها مكروهة فى حقهن لما قد يؤدى اليــه تعلمها من اساءة استخدام بأن ذلك لا ينبغى أن يكون على عمومه .

ويضرب أمثلة بمن كان يعرف القراءة والكتابة من زوجات النبى صلى الله عليه وسلم وغيرهن من النساء فى كل زمان •

ويرجع التشدد فى عدم تعليم المرأة الى المبالغة فى الغيرة عليها وفى ذلك يقول :

« وليس مرجع التشدد فى حرمان البنات من الكتابة الا التغالى فى الغيرة عليهن من ابراز محمود صفاتهن أيا ما كانت فى ميدان الرجال تبعا للعوائد المحلية المشبوبة بجمعية جاهلية « ولو جرب خلاف هذه العادة لصحت التجربة » •

الفصل الرابع

المعلم فى التربية الاسلامية

مقـــــــدمة :

اعتبر المسلمون التعلم من جملة الصنائع التى تحتاج الى المعرفة والدربة التى تؤهل صاحبها للاشتغال بهذه الصناعة .

قال ابن عبدون فى رسالته :

« والتعليم صناعة تحتاج الى معرفة ودربة ولطف فانه كالرياضة للمهر الصعب الذىيحتاج الى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم » .

وعقد ابن خلدون فصلا خاصا فى مقدمته عن أن « التعليم للعلم من جملة الصنائع » قال فيه :

« وذلك أن الحذق فى العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه انمـــا هو بحصول ملكة فى الاحاطة بمبـــادئه وقواعـــده والوقوف على مســـائله واستنباط فروعه من أصوله ولهذا كان السند فى التعليم فى كل علم أو صناعة الى مشاهير المعلمين فيها معتبرا عند كل أهل أفق وجيل ... ويدل أيضا على أن تعلم العلم صـــناعة اختلاف الاصـــطلاحات فيه . فلكل امام من الأئمة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختص به شـــأن الصنائع كلها » .

ولم تكن صناعة التعليم فى البداية وظيفـــة حكـــومية كالقضـــاء والحسبة وغيرها وانمـــا كان الشـــيوخ والمعلمون يقـــومون بالتدريس

احتسابا لوجه الله وابتغاء لمرضاته فمن أنس منهم فى نفسه المقدرة على تعليم العلم حبس للتدريس • وهكذا كان التعليم فى الملة الاسلامية واجبا من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهو كالجهاد فرض كفاية ان قام به البعض سقط عن الكل • وكل هؤلاء الشيوخ يتكسبون ويعيشون من كد يمينهم أو من مساعدة الملوك والأمراء وأهل الخير من العامة • كما أن الشيوخ والعلماء يتلقون أحيانا الهدايا والعطايا السخية من رجال الدولة وكبار الأعيان • وكانت الهدايا تشمل فى بعض الأحيان حمولة دواب من الطعام والعسل والزيت الى جانب النقود والمال • وكان الموسرون من الطلبة لا يبخلون بمالهم على مشايخهم ويقدمون لهم الهدايا وكان الشيوخ والعلماء لا يجدون غضاضة فى قبول هذه الهدايا (١) •

أهمية المعلم ومكانته :

يحتل المعلم مكانة رئيسية فى التربية الاسلامية اقتداء بسيد الخلق (ص) معلم هذه الأمة فيما ورد عنه قوله « انما بعثت معلما » فالمعلم عنصر رئيسى وهو أحد الأركان الرئيسية للعملية التعليمية ولذلك أوجب المربون المسلمون أن يؤخذ العلم من شيخ لا من كتاب وسموا من يأخذ من صفحات الكتب فقط صحفيا ولم يعولوا عليه •

وروى عن سلمان الفارسى أنه كتب الى ابن الدرداء « انما مثل المعلم كمثل رجل عمل سراجا فى طريق مظلم ليستضىء به من مر به وكل يدعو الى الخير » •

وهناك كثير من الأمثلة التى تعلى من شأن المعلمين وتضعهم فى مكانة محترمة لائقة بالمهنة الشريفة التى ينتمون اليها • وقد ورد عن النبى (ص) قوله :

« انما بعثت لأكون معلما » •

---

(١) ابراهيم العبيدى التوزرى : تاريخ التربية بتونس جـ١ صص ١٤٢ — ١٤٣ •

ويروى الثعالبى عن النبى (ص) قوله : « خير الناس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلمون » .

ويؤكد الغزالى أهمية الاشتغال بالتعليم ويعلى من قدر أصحابها ويعظم من شأن وخطر المسئولية الملقاة عليهم وفى ذلك يقول الغزالى :

« فمن علم وعمل بما علم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماوات فانه كالشمس تضىء لغيرها ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما » . والمعلم فى نظره « متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم » وهو يمارس أشرف الصناعات بعد النبوة .

ويقول الغزالى « ان أشرف مخلوق على الأرض هو الانسان وان أشرف شىء فى الانسان قلبه والمعلم مشتغل بتكميله وتطهيره وسياقته الى القرب من الله عز وجل » .

وقد دافع الجاحظ عما يتهم به معلمو الكتاب من الحمق حتى ضرب بهم المثل « أحمق من معلم كتاب » فقال « وكيف نظن الظنون بمعلمى الكتاب جميعا وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء مثل الكميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد ، وحسين المعلم وأبى سعيد المعلم. وما كان عندنا بالبصرة رجلا أدرى بصنوف العلم ولا أحس بيانا من أبى الوزير وأبى عدنان المعلمين » .

وقد كان الحجاج بن يوسف الثقفى معلم كتاب وهو الخطيب المفوه والسياسى المحنك صاحب الفضل فى ارساء قواعد الدولة الأموية .

ولا ينكر الجاحظ وجود عناصر سيئة بين المعلمين وهو يبرر ذلك بقوله : « ففى كل طائفة أشرافها وسفلتها فلا يدفعنا ذلك الى اطلاق الحكم على الطائفة بأسرها بسوء الخلق وصغار النفس والحمق » .

ويجب أن نميز بين معلمى الكتاب ومعلمى المساجد والمدارس

والمؤدبين الذين كانوا يؤدبون أبناء الحكام والأمراء . ومن المؤدبين المشهورين المفضل الضبى الذى كان مؤدبا للمهدى العباسى والكسائى مؤدب الأمين والفراء مؤدب ابن المأمون وابن السكيت مؤدب أبناء الخليفة العباسى المتوكل والمبرد مؤدب ابن المعتز . وكان هؤلاء المؤدبون يحصلون على أجور مرتفعة ويغدق عليهم الهبات والعطايا من جانب الخلفاء والأمراء ولهذا كانوا يحيون حياة رخاء . فى حين أن أجور معلمى الكتاب كانت بسيطة متواضعة . ويمكن القول بصفة عامة أن أجور المعلمين بصفة عامة كانت تتفاوت وتتوقف على قيمتهم ومكانتهم العلمية.

ويستمد المعلم مكانته وأهميته من تأثيره على تلاميذه ذلك أن للمعلم تأثيرا كبيرا فى نفوس الصبيان فهو قدوة لهم يتأثرون به وبشخصيته . وقد روى الجاحظ من كلام عقبة بن أبى سفيان لمؤدب ولده قوله :

« يكون أول ما تبدأ به من اصلاح بنيك اصلاح نفسك فان أعينهم معقودة بعينك فالحسن عندهم ما استحسنت والقبح عندهم ما استقبحت » .

ويستمد المعلم أهميته من دوره فى العملية التعليمية . واذا كان الناس قد اختلفوا حول امكانية حصول العلم بدون المعلم فان الواقع فى مجارى العادات أن لابد من المعلم كما يقول الشاطبى فى «الموافقات» وقد قالوا أن العلم كان فى صدور الرجال ثم انتقل الى الكتب وصارت مفاتيحه بأيدى الرجال وهذا يقضى بأن لابد فى تحصيله من الرجال .

« ان أنفع طرق العلم الموصلة الى غاية التحقق به أخذه عن أهله المتحققين منه على الكمال والتمام » . ويقول الشاطبى :

« واذا ثبت أنه لابد من أخذ العلم عن أهله فلذلك طريقان أحدهما : المشافهة وهى أنفع الطريقتين وأسلمهما لوجهين :

الأول : خاصية جعلها الله تعالى بين المعلم والمتعلم يشهدها كل من زاول العلم فكم من مسألة يقرؤها المتعلم فى كتاب ويحفظها ويردده على قلبه فلا يفهمها فاذا ألقاها اليه المعلم فهمها بغتة ، وحصل له العلم بها بالحضيرة ••• وهى من فوائد مجالسة العلماء اذ يفتح للمتعلم بين أيديهم ما لا يفتح له دونهم •• ويبقى ذلك النور لهم بمقدار ما بقوا فى متابعة معلمهم وتأدبهم معه واقتدائهم به • فهذا الطريق نافع على كل تقدير •

الثانى : مطالعة كتب المصنفين ومدونى الدواوين • وهو أيضا نافع فى بابه فى الشرطين :

الأول : أن يحصل له فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب ومعرفة اصطلاحات أهله وما يتم له به النظر فى الكتب • وذلك يحصل بالطريق الأول من مشافهة العلماء أو مما هو راجع اليه • وهذا معنى قول من قال « كان العلم فى صدور الرجال ثم انتقل الىٰ الكتب ومفاتحه بأيدى الرجال » • والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئا دون فتح العلماء وهو شاهد معتاد •

الشرط الثانى : أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد فانهم أقعد به من غيرهم من المتأخرين ••• » (١)

وبالنسبة لمكانة المعلمين فمن المعروف أن المكانة الاجتماعية للمعلمين تتحدد بكثير من العوامل منها مقدار ما يأخذه من أجر ومنها سن التلاميذ الذين يعلمهم — فكلما زدات سن التلميذ زادت مكانة الأستاذ فمعلم الصبية أقل من معلم الفتيان ومنها أيضا الطبقة الاجتماعية للتلاميذ • فاذا كان التلاميذ الذين يعلمهم المعلم من طبقة أعلى زادت قيمته فمعلم أولاد العامة أقل من معلم أولاد الخاصة • وفى ذلك يقول الجاحظ فى البيان والتبيين (حـ ١ — ص ١٤٠ — ١٤١) :

---

(١) الشاطبى « أبو اسحاق ابراهيم بن موسى اللخمى الغرناطى » : الموافقات فى أصول الأحكام — مكتبة صبيح وأولاده — ١٩٦٩ جـ ١ صص ٥١ — ٥٨ .

« والمعلمون عندى على ضربين • فمنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة الى تعليم أولاد الخاصة فالى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة فان ذهبوا الى معلمى كتاتيب القرى فان لكل قوم حاشية وسفلة فما هم فى ذلك الا كغيرهم ... » •

واجبات وأدوار المعلم :

تتعدد الواجبات والأدوار التى يقوم بها المعلم فهو يقوم بدور الوسيط بين الأجيال ودور ناقل الثقافة وشارحها ومفسرها وهو رسول المعرفة وبانى البشر وهو فى كل هذه الأدوار يعتمد على ما لديه من امكانيات تؤهله للقيام بهذه الأدوار • ان فاقد الشىء لا يعطيه ولا يمكن للمعلم أن يعطى ما لم يكن لديه ما يستطيع أن يقدمه لتلاميذه من زاد فكرى وثقافى وتربوى • ولهذا اشترط المربون المسلمون فى المعلم أن تكون لديه القدرة التى تؤهله للتدريس • وأوجبوا على المعلم ألا يتصدى للعمل بالتدريس الا اذا كان أهلا لذلك وآنس فى نفسه المقدرة والكفاءة للقيام به •

وقد كتب عن واجبات المعلم كثير من علماء المسلمين منهم عبد الله بن المقفع فى أوائل القرن الثانى للهجرة فى كتابيه « الأدب الصغير » و« الأدب الكبير » وابن سحنون عالم القرن الثالث الهجرى فى رسالته «آداب المعلمين والمتعلمين» والقباسى عالم القرن الرابع الهجرى فى رسالته المفصلة عن « آداب المعلمين والمتعلمين » والامام أبو الحسن الماوردى عالم القرن الخامس الهجرى فى « أدب الدنيا والدين » والامام أبو طاهر اسماعيل بن موسى الجيطالى عالم القرن الثامن الهجرى فى كتابه « قناطر الخيرات » والشيخ عبد الباسط العلموى عالم القرن العاشر الهجرى فى كتابه « المعيد فى أدب المفيد والمستفيد » والنمر القرطبى فى كتابه « جامع بيان العلم وفضله » وبرهان الاسلام الزرنوحى فى كتابه « تعليم المتعلم طريق التعليم » وغيرهم •

وهناك اتفاق كثير بين هؤلاء جميعا على واجبات المعلم . وسنحاول فى السطور التالية أن نلخص أهم واجبات المعلم ، كما وردت عند هؤلاء العلماء وهى :

— أن يكون تقيا ورعا قائما بفروض دينه .

— أن يكون على معرفة بأصول دينه ومجيدا للعلم الذى يدرسه .

— أن يكون عاملا بعلمه لئلا يكون كما قال الله تعالى : « أتامرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » .

— أن يجرى المتعلمين منه مجرى بنيه فى التعهد لأحوالهم لقوله (ص) « انما أنا لكم مثل الوالد لوالده » وأن يوقرهم ويحترمهم لقوله (ص) : « وقروا من تتعلمون منه ووقروا من تعلمونه العلم » .

— أن يستعلم أسماء طلبته وحاضرى مجلسه وأنسابهم ومواطنهم وأحوالهم .

— أن يكون وقورا مع تلاميذه فلا يرفع التكليف بينه وبينهم ولا يتبسط معهم ولا يضاحك أحدا بشرط ألا يكون عبوسا فذلك من الفظاظة المقوتة .

— أن يكون رفيقا بتلاميذه وألا يعنف متعلما ولا يحقر ناشئا ولا يستصغر مبتدئا لقوله (ص) : « علموا ولا تعنفوا ، فان المعلم خير من المعنف » وقوله (ص) « لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون » .

— أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف . قال (ص) « لو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه الا وفيه شىء » .

— أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى اليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقوله لقوله (ص) « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم » .

— أن يكون عادلا بين تلاميذه وأن يعاملهم معـــاملة سواء دون اعتبار للمكانة الاجتماعية أو الجاه أو السلطان قال (ص) : « أيما مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه الأمة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين » •

— ألا يطيل الحديث ويكثر القول فى الأمر لدرجـــــة تبعث الملل والسأم فى نفس تلاميذه وتفقدهم الاهتمام بما يقول • فالانسان يشبع من الكلام كما يشبع من الطعام وما زاد على ذلك تزهد فيه النفس • وقد قال بعض الحكماء «خير العلماء من لا يقل ولا يمل» وورد على المبرد قوله : « من أطال الحديث وأكثر القول فقد عرض أصحابه للملال وسوء الاستماع ولئن يدع من حديثه فضله يعاد اليه أصلح من أن يفضل عنه ما يلزم الطالب استماعه من غير رغبة فيه ولا نشاط له » •

— أن يخلص فى تعليم تلاميذه وألا يبخل عليهم بتعليم ما يحسن لقوله (ص) « لا تمنعوا العلم أهله فان فى ذلك فساد دينكم والتباس بصائركم » • «ولا يمنع من افادة ما يعلم وأن يجيب ما سأله متعلما وأن يفيد من عاوده مستفهما ولا يضجر منه وأن يسهل لتلاميذه سبيل طلب العلم ويبذل كل جهده من أجل معاونتهم ومســاعدتهم • قال (ص) : « تصدقوا على أخيكم بعلم يرشده وردى يســدده » وقوله (ص) « تعلموا وعلموا فان أجر المعلم والمتعلم سواء » قيل وما أجرهما قال : « مائة مغفرة ومائة درجة فى الجنة » •

— أن يكون أوسع الناس صدرا وأكثرهم صبرا وأجملهم لقـــاء وأحسنهم أخلاقا لأن المتعلمين منهم يحذون خلائقه ويتخذون طريقه • فلا يمنع طالبا ولا يثبط راغبا ولا ينفر متعلما لما فى ذلك من قطع الرغبة منه والزهد فيما لديه •

— ألا يعجل بالجواب اذا سئل وان كان له حافظا حتى يفكر فيه ويعرفه معرفة صحيحة فيجيب بعلم ويقين فان ذلك من آداب العلماء لقوله (ص) « المؤمن وقاف والمنافق وثاب » •

— ألا ينشغل عن تعليم تلاميذه بأى شىء آخر •

— ألا يستخدم تلاميذه لقضاء مصالحه وأغراضه الشخصية •

— ألا يقبح فى نفس المتعلم العلوم الأخرى التى يدرسها غـيره فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين •

— أن يكون المعلم قدوة حسنة لتلاميذه فى كل شىء •

أخلاق المعلمين :

تختلط الآراء فيمـا كتب عن أخـلاق المعلمين فمنهم من يتهمهم بالحمق وروجوا عنهم الأمثال التى تصفهم بذلك مثل قولهم « أحمق من معلم كتاب » وقد رد الجاحظ على هذا الزعم وقال كيف نستطيع أن نزعم أن الكسائى وقطرب وأتباعهما يقال لهما حمقى ونفى هذه الصفة عن المعلمين بصفة عامة بقوله : « ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التى دونهم •

وأمير الشعراء أحمد شوقى مع أنه عظم المعلم بقوله :

قم للمعلم وفـه التبجيـلا كاد المعلم أن يكون رسـولا

يقول فى قصيدته بعنوان « صحبة المكتب » أن عدوى الصبية تمتد الى المؤدب فتقلبه صبيا مثلهم • يقول شوقى فى ذلك :

ألا حبـذا صـحبة المكتب وأحـبب بأيامـه أحـبب
ويا حبـذا صـبية يمرحـون عنـان الحيـاة عليهم صـبى
خليـون من تبعـات الحيـاة عـلى الأم يلقـونها والأب
كـأنهم بعـد تلقى الـدروس مهـار عرابيـد فى الملعب

***

عدا فاسـتبد بعقـل الصـبى وأعيى المـؤدب حتى صـبى

وقد ورد أيضا أن معلم الكتب لا تقبل شهادته وقد يكون تفسير ذلك على أنه تشكك فى ذمة المعلم وضميره وانما على أنه سد الباب أمام ترك المعلم لتلاميذه وعمله للادلاء بالشهادة •

ومن المعروف أن معلم الكتاب كان يحـرم عليه ألا يترك عملـه ولا ينشغل عن تلاميذه لأى سبب من الأسباب ولذلك حرم عليه — الا فى حالة الضرورة — أشياء منها عيادة المريض والصلاة على الجنازة أو السير فيها أو الادلاء بالشهادة فى البيع أو النكاح لأن هذه الأشـياء تجعله يترك عمله وتلاميذه • بل ولا يجوز للمعلم أن ينشغل عن تلاميذه بأن يكتب لنفسه أو لغيره كتب الفقة وغيرها الا بعد انتهاء عمله مـع الصبيان •

فالمعلمون كغيرهم من الناس يختلفون فى الأخلاق باعتبارهم أفرادا لا كمعلمين •

أجـر المعـلم :

اختلف المربون المسلمون حول أجر المعلم وهل يجوز له أن يأخـذ أجرا على التعليم أم لا ؟ فذهب فريق منهم وهم قلة وعلى رأسهم الامام الغزالى والحيطالى الى أنه لا يجوز للمعلم أن يأخذ أجرا عن التعليم وانما يبتغى به مرضاة الله أما معظم علماء المسلمين فيجيزون للمعلم أن يأخذ أجرا على تعليم القرآن وغيره وذلك استنادا الى ما ورد عن النبى (ص) قوله « أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله تعالى » • وذهب كل من ابن سحنون والقابسى الى القول بهذا الرأى وهما سابقان للغـزالى والجيطالى ويبدو أن الغزالى كان متأثرا بأفلاطون فى القـول بهذا الرأى كما كان متأثرا به أيضا فى كلامه عن النفس وتقسيماتها كما يبدو أن الجيطالى تأثر بالغزالى • ويبرر القابسى اعطاء المعـلم أجرا عن التعليم بقوله : لو اعتمد الناس على التطوع لضاع كثير من الصـبيان ولمـا تعلم القـرآن كثير من النـاس فتكون هى الضرورة القـائدة

الى السقوط فى فقد القرآن من الصدور والداعية الى تثبت أبناء المسلمين بالجهالة • فلا وجه لتضيق ما لم يأت فيه ضيق » •

ويروى عن ابن مسعود قوله : ثلاث لابد للناس منهم : أمير يحكم بينهم ولولاه لأكل بعضهم بعضا وشراء المصاحف وبيعها ولولاه لقل كتاب الله ومعلم يعلم أولادهم ويأخذ على ذلك أجرا ولولا ذلك لكان الناس أميين • ويروى أيضا أن سعدا بن مالك قدم برجل من العراق يعلم أبناءهم الكتاب بالمدينة ويعطونه الأجر • ويروى عن مالك قوله : لا بأس بما يأخذ المعلم على تعليم القرآن وان اشترط شيئا كان حلالا جائزا ولا بأس بالاشتراط فى ذلك وحق الختمة سواء اشترطها أم لم يشترطها • وهذه كلها أمثلة تؤكد استحقاق المعلم للأجر على اشتغاله بالتعليم •

وكان الامام مالك وجميع علماء المدينة يجيزون أخذ الأجر على تعليم الصبيان القرآن والكتابة •

فقد ورد عن ابن وهب صاحب الموطأ قوله : « سئل مالك عن الرجل يجعل للرجل عشرين دينارا يعلم ابنه الكتاب والقرآن حتى يحذقه• فقال لا بأس بذلك وان لم يضرب أجلا • ثم • قال : والقرآن أحق ما يعلم » وقد ورد فى فتح البارى بشرح البخارى ٥/٣٦٠ (كتاب الاجارة) قول الحكم « لم أسمع أحدا كره أجر المعلم » •

وأورد ابن وهب فى موطئه عن عبد الجبار بن عمر قوله : كل من سألت بالمدينة لا يرى لتعليم المعلمين بالأجر بأسا •

ورد الطهطاوى فى العصور الحديثة على من قال بعدم جواز أخذ أجر عن التعليم وذهب مذهب جمهور المسلمين فى القول بأن يأخذ المعلم أجرا على التعليم وقد كان المعلم فى العصور الاسلامية لا سيما معلم الكتاب يأخذ أجرا يتفق عليه مع أولياء التلاميذ وكان هذا الأجر يدفع عادة اما مشاهرة (بالشهر) أو مساناة (أى بالسنة)

وقد يكون نقديا بالمال أو عينيا بالغلال والحبوب وغيرها من الخيرات أو بهما معا • وقد يترك أمر الأجر لتقدير الآباء وحسب كرمهم وأريحتهم •

أما المعلمون أو العلماء الذين كان يعينهم الولاة والحكام فى مدارسهم التى كانوا ينشئونها كالفاطميين فى مصر ونظام الملك فى بغداد ونور الدين زنكى فى الشام وصلاح الدين الأيوبى فى مصر فكانت لهم أجور منتظمة تدفع لهم من خزانة الدولة ومن بيت المال •

متى بدأ ترتيب الأجور للمعلمين ؟

هناك اختلاف بين المؤرخين حول مسألة بدء ترتيب أجور منتظمة للعلماء والمعلمين • فهناك رأى يقول أن نظام الملك هو أول من رتب الأجور للعلماء والمدرسين فى مدارسه النظامية ورأى آخر يقول أن ترتيب الأجور للمعلمين بدأ قبل نظام الملك •

وهناك رأى يقول أن الفاطميين أول من رتب أجورا منتظمة للعلماء والمعلمين ولكن من المعروف أن العباسيين شيدوا بيت الحكمة فى بغداد وعينوا له العلماء والمترجمين والنساخ ورتبوا لهم المرتبات والأجور •

ومن بعدهم بنى الفاطميون الأزهر لخدمة المذهب الشيعى ووكلوا الى رجالهم وعلمائهم الاشراف عليه وتوجيهه •

ثم أنشأ نظام الملك عدة مدارس عرفت باسمه أشهرها نظامية بغداد وكان الهدف من انشائها مقاومة المذهب الشيعى الذى كان منتشرا فى عهد البويهين وعملت هذه المدارس على ترويج المذهب السنى • وقد عين لهذه المدارس العلماء والمعلمون ورتبت لهم المرتبات والأجور •

ويصدق ذلك أيضا على المدارس التى أنشأها كل من نور الدين زنكى فى الشام وصلاح الدين الأيوبى فى مصر فكانت هذه المدارس تروج لمذهب فقهى معين تسير الدراسة وفقا له ويقوم بالتدريس فيها علماء المذهب وشيوخه •

الفصل الخامس

تطور التربية الاسلامية
وأهم سماتها فى العصور الوسطى

يمكننا أن نميز بين أربع مراحل متميزة مرت بها التربية الاسلامية فى تطورها هى :

المرحلة الأولى : هى مرحلة البنـــاء :

وتبدأ منذ ظهور الاسلام حتى نهاية الدولة الأمـــوية • وأهم السمات العامة للتربية الاسلامية فى تلك الفترة هى :

١ — أنها كانت تربية عربية اسلامية خالصة •

٢ — أنها استهدفت ارساء قواعد الدين الجديد •

٣ — أنها اعتمدت أساسا على العلوم النقلية واللسانية •

٤ — أنها اهتمت بالكلمة المكتوبة كوسيلة هامة للاتصال •

٥ — أنها أفسحت المجال لتعلم اللغات الأجنبية •

٦ — اعتمادها على الكتاب والمسجد والمكتبة كمراكز للتعليم •

المرحلة الثانية : هى مرحلة العصر الذهبى :

وتبدأ بالعصر العباسى حتى انهيار الخلافة العباسية وسقوط بغداد وأهم السمات العامة للتربية الاسلامية فى هذه الفترة هى :

١ — دخول العلوم العقلية •

٢ — انشاء المدارس •

٣ — ظهور الآراء التربوية المتميزة •

المرحلة الثالثة : هى مرحلة التدهور والانحطاط :

وتبدأ بالحكم التركى العثمانى حتى استقلال البلاد العربية وأهم السمات العامة للتربية الاسلامية فى هذه الفترة هى :

١ ـــ تجمد الفكر الاسلامى •

٢ ـــ العودة الى الاقتصار على العلوم النقلية •

٣ ـــ جمود المؤسسات التعليمية •

٤ ـــ غلبة الثقافة التركية •

٥ ـــ التميز الثقافى للأقليات الدينية غير الاسلامية •

٦ ـــ دخول المؤثرات التربوية الغربية •

المرحلة الرابعة : هى مرحلة التجديد واعادة البناء :

وتشمل هذه الفترة بداية استقلال البلاد العربية من الحكم التركى وتمتد حتى العصر الحاضر وأهم السمات العامة للتربية فى هذه الفترة هى :

١ ـــ اقتباس النظم التعليمية الغربية •

٢ ـــ العناية بالعلوم العقلية والحديثة •

٣ ـــ تغلغل الثقافة الغربية •

٤ ـــ محاولة تطوير مؤسسات التعليم التقليدية •

وسنحاول أن نفصل الكلام فى الصفحات التالية عن التربية الاسلامية ، خلال المرحلتين الأوليين باعتبار وقوعهما زمنيا فى العصور الوسطى مرجئين الكلام عن المرحلتين الأخيرتين الى فترة العصور الحديثة •

المرحلة الأولى للتربية الاسلامية : مرحلة البناء :

مقدمة : بين العروبة والاسـلام :

كان العرب قبل الاسلام يعيشون فى المنطقة التى تعـرف الآن بشبه الجزيرة العربية وكانت حياتهم حياة بداوة بسـيطة تحكمها الصحراء بجدبها والقبيلة بعصبيتها • ولم تكن هناك وحدة سياسية تلم شملهم وانما عاشوا فى حالة تفكك اجتماعى وسياسى كبير • ولم يكن يوجد بينهم الا اللغة والشعر يتطارحونه فى أسواقهم الأدبية المعروفة وهى عكاظ ومجنه وذى المجاز • ولم يكن لهم غير ذلك من نصيب كبير فى مجال العلوم والفنون كما أشرنا • وكانوا يعبدون الأصنام ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ، ويؤمنون بالتطير ويتاجرون فى العبيـد وكانت مكة تحظى بأهمية خاصة لوجود البيت الحرام بها وهـو البيت الذى بناه ابراهيم عليه السلام الى جانب أنها كانت أهم مركز تجـارى • وكانت التجارة أهم الوسائل التى تربط العرب بالمجتمـع الخارجى • وتمثلت الطبقة الغنية هناك فى طبقة التجار الذين كانوا يجلبون التجارة من بلاد الفرس والشام واليمن • وكانت تجاور العرب فى تلك الفترة دولتان كبيرتان على حظ كبير من الحضارة أولهما دولة الفرس فى الشرق وثانيهما دولة الروم أو الدولة البيزنطية فى الغرب وكانت هذه الدولة الاخيرة تسيطر على العراق والشام ومصر وشمال افريقيا •

وجاء الاسلام ، وكان ثورة اجتماعية شاملة ضد التفكك والتخلف وسرعان ما وحد العـرب تحت لوائه • ولكن الاسـلام لم يكن لأهل الجزيرة العربية فحسب وانما للناس قاطبة من عرب وعجم • ومن ثم بدأت رسالة الاسلام تأخذ طريقها الى خارج الجـزيرة لتبشر بالدين الجديد • وقداستطاع العرب تحت لواء الدين الجديد أن يهزموا أكبر دولتين فى عصرهما (أى أوائل القرن السابع الميلادى) • ولم يمض على وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام سـوى حوالى ثلاثة أرباع قرن من الزمان الا وكان الاسلام يرفرف على رقعة هائلة تمتد من المحيط

الهندى شرقا حتى المحيط الاطلسى غربا • فقد فتح العرب دمشق سنة ٦٢٥ م والعراق سنة ٦٣٧ م ومصر وفارس سنة ٦٤١ م وبرقة سنة ٦٤٣ م وواصلوا فتحهم لشمال أفريقيا سنة ٦٤٤ م ولم تأت سنة ٧٠٨ م الا وكانت لهم السيطرة عليها تماما ودخل العرب اسبانيا سنة ٧١١ م وقد انتشر الاسلام بسرعة كبيرة فى مناطق أخرى من العالم حتى أصبح يضم اليوم ما يقرب من خمسمائة مليون مسلم فى جميع أنحاء العالم • وقد صاحب المد العربى انتشار الاسلام بل وعندما انحسر الامتداد العربى بقى الاسلام كما هو بل واتسعت رقعته •

والمهم من كل هذا هو أن نبين أن ما يعرف الآن بالوطن العربى دخل الى العروبة عن طريق الاسلام • ومع حركة التعريب اللغوى والثقافى التى شملت هذا الوطن انصهر فى بوتقة العروبة على مر الزمن وكون معها وحدة عضوية متجانسة وقد ساعد على ذلك وحدة الأرض والتاريخ والآمال والانتماء المصيرى •

وهكذا يتضح أن كلمة عرب بمعناها الواسع لا يقصد بها أساس عرقى عنصرى وانما هو مفهوم ثقافى يطلق على الشعوب والأقوام التى دخلت فى الاسلام وانصهرت فى بوتقة الثقافة العربية من خلال الاسلام واتخذوا اللغة العربية ميراثا مشتركا وكتبوا بها مؤلفاتهم فى مختلف العلوم والفنون والآداب فى عصر ازدهار الاسلام •

ان التمييز الحادث بين العروبة الاسلام لا يمكن أن نفهمه •الا من خلال النظرة الفاحصة المتمهلة للاصول التاريخية التى تكون بها العالم الاسلامى • ان الاسلام فى جوهره الأساسى لم يقم على دعوة عنصرية عرقية كاليهودية مثلا التى يدعى أبناؤها أنهم شعب الله المختار وانما كان الاسلام للناس كافة • ومن هنا كان لابد أن يمتد الاسلام خارج جزيرة العرب كما قلنا • وكان حماة لوائه هم العرب أنفسهم لأنه جاء قرآنا عربيا بلسانهم وعلى يد نبى عربى من بنى جلدتهم • وهكذا كان المد الدينى ، الاسلامى مقترنا بالمد الثقافى العربى • وكان هذا

المد هائلا وشمل مختلف أرجاء المعمورة ولكن النتيجة لم تكن واحدة بالنسبة لكل أرجاء العالم الاسلامى • ذلك أنه حيثما تم انصهار الشعوب فى بوتقة العروبة والاسلام تكونت الثمرة الناضجة التى تمثل الآن ما يعرف بالعالم العربى أما حيثما لم يكتمل الانصهار فى بوتقة العروبة والاسلام انحسر مد العروبة لكن بقى مد الاسلام وهذه المناطق تعتبر ثمرة لم تنضج بعد • وقد ترتب على هذا الوضع وجود تمييز درج الناس عليه بين العالم العربى والعالم الاسلامى ومثل هذا التمييز أوجد كثيرا من البلبلة فى العقول • واذا أردنا أن نضع الامور فى مكانها الصحيح قلنا العالم الاسلامى الناطق بالعربية والعالم الاسلامى غير الناطق بالعربية • ولو تصورنا أن العالم الاسلامى غير الناطق بالعربية أصبح يتحدث العربية لاختفى هذا التمييز ومن هنا يمكن أن نفهم الوحدة الاسلامية الحقيقية • ان انضمام الصومال وموريتانيا الى عضوية الجامعة العربية حدث له معناه وفحواه وهو يؤكد القضية التى نحن بصددها ونتمنى أن نرى العالم الاسلامى كله وقد تحققت وحدته الفكرية على أساس من اللغة العربية • لقد عرف العالم الاسلامى قمة ازدهاره ومجده عندما كانت اللغة العربية أساس هذه الوحدة الفكرية وكانت اللغة الراقية للعالم والجنس البشرى طيلة أربعة قرون من الزمان منذ القرن الثامن حتى القرن الثانى عشر • وتعلمها كثير من غير أبنائها باعتبارها لغة الثقافة والعلم وقد كتبوا وألفوا بها • ولم يكن علماء المسلمين من مختلف الأجناس يشعرون بأى غضاضة بالكتابة بالعربية • ولذا نجد جميع علماء الاسلام من عرب وفرس وترك يؤلفون مؤلفاتهم بالعربية مع أنهم كانوا يعرفون لغاتهم الأصلية • وقد روى عن العالم الاسلامى الكبير البيرونى قوله : « والله لأن أهجى بالعربية أحب الى من أن أمدح بالفارسية » • يضاف الى ذلك أن اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تتقون » وتعلمها من كمال تمام الدين • وقد روى عن عمر بن الخطاب قوله : « تعلموا العربية فانها من دينكم » • ولا شك أن الأمر

هنا موجه الى كل المسلمين • ويقول العـــلامة ابن تيميـــة : « ان اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب • ذلك أن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم الا باللغة العربية وما لا يتم الواجب الا به فهـــو واجب » • ويرى الامام الشافعى أن على كل مسلم أن يتكلم العربية وأن تعلم اللغة العربية فرض على كل مسلم •

وهكذا يصبح من واجب كل مسلم أن يتعلم العربية • واذا كان غير المسلم يتحتم عليه أن يتعلم اللغة القومية لدولته الى جانب لغته الأم لدواعى الحياة والمعيشة كما فى دول مختلفة من العالم فى سويسرا أو الاتحاد السوفيتى أو الهند وغيرها فما بالك بالمســـلم الذى يعتبر تعلم اللغة العربية بالنسبة له من تمام دينه ؟

ان على العالم الاسلامى غير الناطق بالعربية أن يســـعى ســـعيا حثيثا لا هوادة فيه الى نشر تعلم اللغة العربية بين أبنائه بنشر مراكز تعليمها على أوسع نطاق • كما يجب أن يجعل تعلم اللغة العربية اجباريا من السنوات الأولى للتعليم فى مدارسه ويجب على العالم الاســـلامى العربى أن يشجع كل خطوة فى هذا الاتجاه وأن يقدم لها العون المـــادى والبشرى على الســـواء •

السمات العامة للتربية الاسلامية فى فترة البناء :

تميزت الفترة الأولى من ظهور الاسلام بفترة الحكم الشـــورى للخلفاء الأربعة الأوائل الذين عاصروا الرسول الكريم وتأثروا به كما أنهم قادوا الفتوحات الأولى للاسلام • وعملوا على تثبيت أركان الدين والدولة وفى العصر الأموى أصبح منصب الخليفة وراثيا، فالخليفة يوصى بمن يخلفه• واستمرت خلافتهم ما يقرب من تسعين عاما بين عـــام ٤٠—١٣٢ هـ و٦٦١ — ٧٥٠ م• وفى بداية حكمهم نقلوا عاصمة الدولة من المدينة الى دمشق وكانت الدولة الأموية دولة عربية خالصة عـــلى

الرغم من أنها نقلت عاصمتها من قلب العروبة الى منطقة تلتقى فيهـا الحضارة الرومانية والفارسية • وقد ازدهر الادب ، والشعر وتجلت روائع الفن الاسلامى فى مسجد دمشق • كما شهد العصر الأموى بداية حركة الترجمة الى العربية الا أنها كانت مقصورة على أفـراد وتمثل اهتمامات فردية أو جهودا شخصية أما فى العصر العباسى فكانت تمثل مدرسة كاملة ترعاها الدولة وتباركها • كذلك اهتمت الترجمة فى العصر الأموى بالعلوم مثل الطب والكيمياء ولم تتعداها الى العلوم العقلية فى الرياضيات والمنطق والفلسفة • ولذا كانت هذه العلوم العقلية وليدة الدولة العباسية ذاتها وسيأتى تفصيل الكلام فيما بعد •

وقد سبق أن أشرنا الى أهم السمات العامة للتربية الاسلامية فى فترة البناء وسنحاول فى السطور التالية أن نفصل الكلام عنها :

١ ــ كانت عربية اسـلامية خالصة :

تميزت هذه الفترة من التربية الاسلامية التى تمتد منـذ ظهـور الاسلام حتى نهاية الدولة الأموية بأنها كانت اسلامية عربية خالصـة وقد يرجع ذلك الى غلبة العرب وأن العناصر الاسلامية الجديدة لم تكن قد انقهرت انقهارا ثقافيا كاملا كما أن العناصر ، العربية هى التى كانت توجه الحكم والسياسة والدين والثقافة بصورة رئيسية • وفى هـذه الفترة لا سيما فى عهدالأمويين نظمت حلقات الدروس فى المساجد وقد ساعد على ذلك ظهور المذاهب والفرق الاسلامية والدينية المختلفة ومنها الخوارج والشيعة والمعتزلة وقد اعتنق بعض الخلفاء الأمويين مذهب الاعتزال الذى يعتبر من المدارس التقدمية فى الاسلام وهو مذهب النزعة العقلية، وقد عمل انتشار المذاهب والفرق الاسلامية على زيادة اهتمام العلماء ببحث المسائل الدينية المختلفة ومنها مسائل القضاء والقدر والجبر والاختيار وارتكاب الكبيرة وهكذا كان الاهتمام مركزا على الجـوانب

الدينية فى الاسلام كما أن المسلمين يشتغلوا بشىء الا بلغتهم وثقافتهم وفى ذلك يقول صاعد الأندلسى فى كتابه طبقات الأمم[1] :

« كانت العرب فى صـــدر الاسلام لا تعنى بشىء من العلم الا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعةالطب فانها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكره عند جماهيرهم لحاجة الناس طرا اليها ولما كان عنـــدهم من الأثر عن النبى (ص) فى الحث عليها حيث يقول : « ياعباد الله تداووا فان الله عز وجل لم يضـــع داء الا وضـــع له دواء الا داء واحدا وهو الهرم » أى الكبر والشيخوخة .

٢ ــ استهدفت ارساء قواعد الدين الاسلامى الجديد :

كان من الطبيعى أن تستهدف التربية الاســـلامية فى هذه الفترة الأولى من حياة الاسلام العمل على نشر الدين وتعاليمه ولذلك نجـــد أن هـــذه الفترة تميزت بالفتـــوحات الاســـلامية لنشر الدين وتثبيت أركانه والى جانب ارساء قواعد الدين وتثبيت أركانه شـــغل خلفـــاء المسلمين الأوائل بارساء قواعد الحكم أيضا باعتبار أن الاسلام دين ودولة فالحاكم هو فى نفس الوقت خليفة المؤمنين . وفى عهـــد عمر بن الخطاب كان من الطبيعى أمام اتساع الدولة أن يهتم بالامور الدينيـــة والشرعية والاصلاحات الادارية وفى عهـــده انشئت الدواوين ووضعت سجلات لدخل الدولة وفى صدر الاسلام ظهرت الخطابة كفن هام له دوره فى نشر الدعوة الاسلامية وعلا شأنها على الشعر ولاسيما بعد أن هاجم القرآن الشعراء بقوله « والشعراء يتبعهم الغاوون ألا انهم فى كل واد يهيمون ويقولون مالا يفعلون الا الذين آمنوا » وكان الرسول هو وأصحابه يبثون الدعوة ويعلمون الناس فى المدينة وكان يرسل دعاته ورسله الى الجهات النائية من شبه الجزيرة ليعلموا الناس ويقرءوهم القرآن الكريم .

وكان الخلفاء يرسلون العلماء الى الأمصار ومع الجيوش لنشر

(١) صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ص ٤٧ .

الدعوة الاسلامية فيها • كما كانوا أيضا يوصون ولاتهم فى الأمصـــار بضرورة الاهتمام بنشر الدين وتعاليمه •

وقد أرسل الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز الى شمال أفريقية عشرة من الفقهاء لتعليم أبناء البربر تعاليم الدين الاسلامى •

٣ ــ اعتمدت اساسا على العلوم النقلية واللسانية :

اعتمدت التربية الاسلامية خـــلال هذه الفترة على العلوم النقلية وتشمل علوم الدين المختلف من قراءات وتفسير وحديث وفقه وما يتصل بها من علوم لسانية وهى النحو واللغة والأدب ، وهذه النزعة النقلية واللسانية للجانب الثقافى من التربية الاسلامية يتمشى مع ما سبق أن أشرنا اليه من كون التربية فى هذه الفترة عربية اســلامية خالصـــــة واستهدفت ارساء قواعد الدين بصورة رئيسية •

٤ ــ اهتمت بالكلمة المكتوبة كوسيلة هامة للاتصال :

الى جانب ما أشرنا اليه من استخدام الخطابة كأســـلوب هام فى التربية الاسلامية فى صدر الاسلام برزت أيضا أهمية الكلمة المكتوبة كوسيلة هامة للاتصال ولم تكن هذه الأهمية موجودة من قبل •

فقد كان مجىء الاسلام عاملا هاما فى ظهور أهمية الكتابة • وبرزت أهميتها أول ما برزت عندما أراد النبى (ص) كتابة الوحى وما ينزل عليه من آيات القرآن الكريم وقداستعان بمن كانوا يعرفون الكتابة آنذاك•

وكـــان أول من كتب له أبى بن كعب الانصـــارى وزيـــد بن ثابت الانصارى اذ كانا يقومان بكتابة ما يوحى اليه به (ص) وممن كتب له أيضا عبد الله بن سعد بن أبى سرح القرشى قبل أن يرتد ، وعثمان بن عفان وشرحبيل بن حسنة وأبان بن سعيد والعلاء بن الحضرمى ومعاوية ابن أبى سفيان وحنظلة بن الربيع• ويروى أن هؤلاء الكتبة للوحى لم يكونوا مهرة فى الكتابة ولم تكنكتابتهم تسير على نمط واحد أو تخضع

لقواعد واحدة من الكتابة أو الاملاء فكانوا لا يميزون بين مواضع الألف بحذفونها فى موضع ويضيفونها فى موضع آخر مع تساوى الموضعين فى الاملاء وكتبوا التاء المربوطة مفتوحة وغير ذلك ويقول ابن خلدون فى تعليل ذلك : هو ضعفهم فى صناعة الخط والكتابة وانهم لم يبلغوا حد الاجادة فيها •

وكان كتبة الوحى يكتبون على الرقاع والأضلاع وسعف النخل والحجارة الرقائق : كذلك كان نشر الدين الاسلامى عاملا هاما فى ظهور أهمية القراءة والكتابة فالمسلمون الاوائل بدأوا يحسون بالحاجة الى القراءة والكتابة ليعرفوا أمور دينهم على الوجه الصحيح وآيات القرآن الكريم كانت تكتب ويتلوها من يعرف القراءة على من لا يعرف • وكان من الطبيعى اذن أن يحس المسلمون بحاجتهم الى تعلم القراءة والكتابة • وقد أقبل الناس على القرآن يقرأونه ويفهمون معانيه ويفسرون آياته ويستنبطون منه الأحكام •

كما أن حاجة الرسول (ص) الى نشر الدين تطلبت منه الاتصال بمن جاوره من الملوك والأمراء عن طريق الكتابة اليهم وبعث الرسائل لهم • وفى ذلك يقول ابن هشام :

« فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا من أصحابه ، وكتب معهم كتبا الى الملوك يدعوهم فيها الى الاسلام • فبعث دحية بن خليفة الكلبى الى قيصر ملك الروم ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمى الى كسرى ملك فارس ، وبعث عمرو بن أمية الضمرى الى النجاشى ملك الحبشة ، وبعث حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية ، وبعث عمرو بن العاص السهمى الى جيفر وعباد ابنى الجلندى الأزديين ملكى عمان ، وبعث سليط بن عمرو أحد بنى عامر بن لوى الى ثمامة بن أثال وخوذة بن على الحنفيين ملكى اليمامة ، وبعث العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين ، وبعث شجاع بن وهب الأسدى الى الحارث بن شمر الغسانى ملك تخوم الشام •• وبعث المهاجر بن أبى أمية المخزومى الى الحارث بن عبد كلال

الحميرى ملك اليمن » • وهذه الرسائل مكتوبة بالعربية لكنه احتاج الى من يحسن الرومية والفارسية والحبشية والقبطية لترجمة مضمون هذه الرسائل الى من وجهت اليهم من غير العرب • ولم تقتصر كتابة الرسائل على الملوك وانما شملت أيضا كثيرا من رجال العرب وأقوامهم •

وقد خصص « ابن سعد » فى طبقاته كلاما مفصلا عن الرسائل العديدة التى بعث بها الرسول (ص) الى أولئك الرجال والأقوام [١] •

ومن ناحية أخرى نجد أن الحاجة الى كتابة معاهدات الصلح والمواثيق والعهود منذ بداية عهد النبى (ص) كانت عاملا آخر فى تأكيد أهمية الكتابة ولم تكن هذه الحاجة موجودة بهذه الدرجة من قبل •

وقد اتخذ النبى (ص) له كثيرا من الكتاب الذين يكتبون القرآن ويحررون الكتب التى كان الرسول يرسلها الى الملوك والأمراء وغيرهم من الأقوام •

وقد عدد ابراهيم الابيارى فى موسوعته القرآنية أربعة وعشرين كاتبا لرسول الله (ص) منهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وعلى بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص ومعاوية بن أبى سفيان وزيد بن ثابت وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص[٢] •

ولما تولى أبو بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتبا له واتخذ عمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم واتخذ عثمان مروان بن الحكم • وروى الجهشيارى أن عليا كرم الله وجهه قال لكاتبه عبد الله بن رافع « ياعبد الله ليف دواتك (أى اجعل لها ليفة أو خرقة توضع فى المداد) وأطل

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى — دار صادر بيروت جـ١ ص ٢٥٨ — ٢٩١ •

(٢) ابراهيم الابيارى : الموسوعة القرآنية الميسرة — مؤسسة سجل العرب ١٩٧٤م جـ١ ص ٢٩١ •

وانظر ايضا : الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٢ — ١٤ •

شباة قلمك (أى سنه ومقدمته) وفرج بين السطور وقرمط بين الحروف (ويعنى بها التقريب بين الحروف مع الدقة) [١] .

ولما انتقلت الخلافة الى بنى أمية تعدد الكتاب لتعدد مصالح الدولة وأصبح الكتاب خمسة : كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القاضى . وكان كاتب الرسائل أهم هؤلاء الكتاب فى الرتبة . وكان الخلفاء لايولون هذا المنصب الا أقرباءهم وخاصتهم وظلوا على ذلك الى أيام العباسيين [٢] .

وقد ازدادت أهمية الكتابة العربية مع تعريب الدواوين فى الأمصار الاسلامية فى عهد عبد الملك بن مروان . وقد حذا الوليد حذو أبيه عبدالملك (شوال ٨٦ هـ ــ جمادى الآخرة ٩٦هـ) وحول كتابة الدواوين فى مصر الى العربية بعد أن كانت باليونانية التى كانت اللغة الرسمية فى مصر حتى عهده .

وهكذا نجد أن انشاء الدواوين فى الاسلام وتعريبها قد تطلب الاهتمام بالكتابة العربية أيضا .

ومن المعروف أن عمر بن الخطاب هو أول من أنشأ الدواوين أى الادارات الحكومية فى الاسلام وفى ذلك يقول محمد كرد على : « وما تعلقت به همة عمر احداث أوضاع جديدة اقتضتها حالة التوسع فى الفتوح ، فهو أول من حمل الدرة وهو أول من دون الدواوين على مثال دواوين الفرس والروم دونها له عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش لهم علم بالأنساب وأيام الناس » .

---

(١) الجشهيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٢ — ١٤ نقلا عن : حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ط ٨ ، ١٩٧٤ ، جا ، ص ٤٥٢ .

(٢) المرجع السابق .

« والديوان الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية . وعرفوا الديوان بأنه موضع لحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال وأطلق بعد حين على جميع سجلات الحكومة وعلى المكان الذى يجلس فيه القائمون على هذه السجلات والأضابير والطوامير » (١) .

ومن المعروف أن أول ديوان وضع فى الاسلام هو ديوان الانشاء وكانت دواوين الشام تكتب بالرومية ودواوين العراق بالفارسية ودواوين مصر بالقبطية يتولاها النصارى والمجوس دون المسلمين . وهكذا فرضت الحاجة الى تعريب هذه الدواوين أهمية خاصة على الكتابة العربية وضرورة قيام نفر من المسلمين بأمرها وقد تطلب ذلك الاهتمام بها وتعلمها .

٥ ــ أفسحت المجال لتعليم اللغات الاجنبية :

ظهرت الحاجة الى تعليم اللغات الاجنبية منذ أيام الاسلام الاولى وان كان ذلك على نطاق ضيق . فقد كان نتيجة لاتصال المسلمين بالأقطار الأخرى واتساع رقعة الاسلام خارج حدود الجزيرة العربية أن برزت الحاجة الى تعلم اللغات الأجنبية وقد حث النبىّ (ص) بعض أصحابه على أن يتعلموا اللغات الاخرى غير العربية لدواعى الحاجة اليها وفى الحديث الشريف أنه « من تعلم لغه قوم أمن من شرهم » .

ويقول ابن سعد فى « الطبقات الكبرى » أن النبى (ص) لما رجع من «الحديبية» فى ذى الحجة سنة ست أرسل الرسل الى الملوك يدعوهم الى الاسلام وكتب اليهم كتبا . فقيل يا رسول الله ان الملوك لا يقرأون كتابا الا مختومة . فاتخذ رسول الله (ص) يومئذ خاتما من فضة فصه منه نقشه ثلاثة أسطر : « محمد رسول الله » وختم به الكتب فخرج سنة

---

(١) محمد كرد على : الادارة الاسلامية فى عز العرب ١٩٣٤ .

منهم فى يوم واحد وذلك فى المحرم سنة سبع وأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه اليهم » (١) .

وقد دعا النبى أصحابه لتعلم العبرية والسريانية ليدون بها رسائله ، ويروى عن زيد بن ثابت أن النبى (ص) قال له « انى أكتب الى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا فتعلم السريانية فتعلمها فى سبعة عشر يوما » .

كما يروى عن زيد بن ثابت أيضا ان النبى (ص) طلب منه أن يتعلم الكتابة اليهودية (العبرية) ليتولى مراسلات النبى معهم ففعل زيد وكان يقوم بالكتابة لهم على لسان النبى كما كان يقرأ للنبى ما يرسلون له .

وهكذا كان تعلم اللغات الاجنبية مطلبا للتربية الاسلامية منذ ظهورها للوفاء باحتياجاتها التى فرضتها عليها الطبيعة الانسانية العالمية للدين الاسلامى .

٦ ـ اعتمدت على الكتاب والمسجد :

اعتمدت التربية الاسلامية على الكتاب والمسجد بصورة رئيسية كمراكز للتعليم ولم تكن المدارس قد أنشئت بعد . كما أن المكتبات لم يكن لها شأن كبير فى هذه الفترة وقد لعب الكتاب والمسجد دورا هاما فى التربية الاسلامية فى هذه الفترة . ونظرا لأن هذه المراكز قد استمرت تلعب هذا الدور الهام فيما بعد فاننا سنؤجل تفصيل الكلام عن مراكز التعليم .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ـ مرجع سابق ص ٢٥٨

المرحلة الثانية : مرحلة العصر الذهبى أو الازدهار :

مقــدمة تاريخية :

فى هذه الفترة من التربية الاسلامية بلغت أملاك الاسلام أقصى حدودها من المحيط الأطلسى فى أقصى الغرب الى حدود الصين فى أقصى الشرق ومن وسط آسيا فى الشمال الى وسط أفريقيا فى الجنوب وامتد الاسلام فى أوروبا حتى جبال البرانس وبلاد الغال جنوب فرنسا وصهرت أمم هذه الاقطار الواسعة البالغة ، الكثيرة فى بوتقة الاسلام فأسهمت فى حضارة تعد من أسطع ما عرف العالم من الحضارات الفكرية والمادية على السواء •

وكان أكثر أدوار الحضارة الاسلامية ازدهارا هو دور الخلافة العباسية ببغداد التى امتدت خمســـة قرون (٧٥٠ ـــ ١٢٥٨) ودور الأمويين بأســـبانيا (٧١١ ـــ ١٤٩٢) الذى امتد ما يقرب من ثمانية قرون •

يقول غوستاف لوبون « كانت بغداد وقرطبة هما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للاسلام من مراكز الحضارة التى أضاءت العـــالم بنورها الوهاج » ولهذا سنخصص هذه المقـــدمة التاريخية للكلام عن الدولة الاسلامية فى المشرق والدولة الاسلامية فى المغرب •

أولا ـــ الدولة الاسلامية فى المشرق :

ترتبط هذه الفترة التاريخية فى المشرق بالدولة العباسية كما قلنا •

وفى هذه الفترة انتشرت اللغة العربية فى جميع انحـــاء آســـيا انتشارا سريعا فحلت محل اللغات القديمة بها حتى أصبحت اللغـــة العربية بالنسبة لدول المشرق كاللاتينية بالنســـبة لدول المغرب وهو ما سبق أن أشرنا اليه •

وقد تمكن العباسيون بفضل الازدهار الذى غمـــرهم من القيام بكثير من الاعمال العظيمة ذات النفع العام فى شتى الميادين منها شق

الطرق التى تربطها بجميع البلاد وانشاء مرابط للخيل والاستراحات أو الفنادق للقوافل وحفر صهاريج المياه التى تزود المسافرين بالماء •

وتقدمت الزراعة والصناعة واستغلت الثروات الطبيعية التى كانت تملأ الخلافة شرقا وغربا فاستغلت مناجم الحديد بخراسان ومناجم الرصاص بكرمان ورخام طوروس كما استغلت مصادر النفط والأحجار الكريمة •

وازدهرت الفنون والآداب وظهرت ألف ليلة وليلة غذت خيال الشعراء والأدباء ، وارتبطت بهارون الرشيد ، وبنيت المدارس والمستشفيات والمختبرات الطبية والمراصد الفلكية ومن أئمة علماء هذه الفترة فقيها الاسلام العظيمان أبو حنيفة ومالك اللذان عاشا أوائل الحكم العباسى وعاشا فى عهد الخليفة العباسى الثانى المنصور (٧٥٤ — ٧٧٥) وكانا يقومان بالقاء دروسها ••

ويبرز الخليفة المأمون شديد الاهتمام بالتعليم والأدب وكان يجمع من الاقاليم التابعة له كسوريا وأفريقيا ومصر ما يوجد منها من كتب بدلا من الضرائب وكانت مئات الجمال ترى وهى تدخل بغداد حاملة ورقا وكتبا فقط • وكانت تترجم ، للعربية الكتب القيمة • وكان بلاط المأمون يبدو وكأنه مجلس للعلوم والأدب أكثر من كونه مركزا للحكومة والخلافة اذ كان يتألف من الأساتذة والنقاد والمترجمين والشراح •

وكان المأمون يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم ايمانا منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر فأوحشت الدنيا لفقدهم ، بل ان المأمون لما فرض السلم على قيصر الروم طلب أن تكون الجزية مجموعة من الكتب وازدهرت بغداد لا كعاصمة الخلافة العباسية بل كمركز للثقافة والفنون والآداب لم تشهد له البشرية مثيلا وحملت بغداد شعلة العلم والمعرفة الى كل ربوع آسيا : فى الهندوستان تحت

رعاية الغزنويين فى مطلع القرن ١١ على يد البيرونى ولدى السلاجقة فى أواخر القرن ١١ على يد عمر الخيام ولدى المغول حوالى منتصف القرن ١٣ على يد نصر الدين الطوسى مرصد مراغة وفى الصين حوالى أخريات القرن ١٣ على يد « كوشو كينج » ولدى العثمانيين فى النصف الأول من القرن الرابع عشر .

ثانيا ــ الدولة الاسلامية فى المغرب :

يتضمن الكلام عن الدولة الاسلامية فى المغرب فى العصور الوسطى الكلام عن شمال أفريقيا والأندلس .

(أ) فى شمال أفريقيـــا :

قبل الفتح الاسلامى كان ما يعرف الآن بالمغــرب جــــزءا من الامبراطورية الرومانية كما كانت مصر وبلاد الشـــام جزءا من هذه الامبراطورية أيضا .

وقد عمل الرومان على نشر ثقافتهم اللاتينية فى بلاد شمال أفريقيا ونقلوا اليها مدارسهم وانظمتهم التعليمية وكما كانت الآداب والفنون اليونانية مزدهرة فى روما فانها قد وجدت لها مراكز خصبة فى شـــمال أفريقيا طيلة القرنين الأولين من استيلاء الرومان على أفريقيا .

وكانت قرطاجنة التى بعثت من جــديد بعد أن دمرهـــا الرومان مركزا هاما للثقافة والفنون الهلينية ــ وقد ذاع صــيتها وعلا كعبهـــا كجامعة فى العلوم والآداب والفنون الهلينية فى العـــالم الرومانى حتى أصبحت تفاخر وتنافس جامعتى روما وأثينا . وكانت اللغتان اليونانية واللاتينية تحيان بها جنبا الى جنب .

والى جانب المدارس ومراكز الثقافة الرومانية كانت هناك أيضـــا المعابد والهياكل الدينية بما فيها من مكتبات وما كان يعقد فيهــــا من

محاضرات وندوات وكذلك المسارح والملاعب التى عمت القرى والمدن الافريقية وعملت على نشر الثقافة الرومانية وفيما بعد مع بداية القرن الثالث الميلادى أنه قد تعاقب على عرش روما أباطرة أفارقـة من آل البينوس مواليد « سوسة » وآل سفيروس من أبناء طرابلس الغرب ومكرينوس الشرشابى وآل غرديانوس القرطاجنى •

وكان هؤلاء الأباطـرة شـغوفين بالعلم مكرمين لأهله كما كانوا يعتزون بأفريقيتهم ويحنون لوطنهم ويعطفـون على أبنـاء جلدتهم فاغدقوا عليهم العطايا وخلعوا عليهم الوظائف السامية كما بنوا المدارس والمعابد بافريقيا •

وابان القرن الرابع الميلادى والنصف الأول من القرن الخامس الميلادى بدأت المسيحية بعد أن اعترف بها دينا رسميا فى روما تغـزو شمال أفريقيا وتجد هناك من يروجون لها •

ولما احتل البيزنطيون شمال أفريقيا ابان القرن السادس الميلادى لم يعنوا كثيرا بالثقافة والعلم اذ كان عصرهم عصر حروب ومقاومـة وثورات وانحطاط فكرى وثقافى (١) وكان ذلك ايذانا بميلاد عصر جديد برز نوره وأخذ يمتد سناه نحو الغـرب وكان ذلك مع بشـائر الفتح العربى الاسلامى •

وبدون الدخول فى تفصيلات تاريخية يمكن القول بأنه عندما تقدمت الجيوش العربية فى شمال افريقيا أقام القائد العربى عقبـة بن نافـع مدينة القيروان عام ٥٠ هـ (٦٧٠ م) وأصبحت مركزا سياسيا وحربيـا هاما للعرب وتم لهم السيطرة على البرابرة الذين دخلوا فى دين الله وأقبلوا على تعلم اللغة العربية وأصبحت القيروان الى جانب كونها عاصمة

---

(١) رجعنا فى كلامنا فى السطور السابقة .
ابراهيم العبيدى التوزرى : تاريخ التربية بتونس — جـ١ ، ص ٢٨—٧٣ .

سياسية ودينية منتجعا للعلم والثقافة يفد اليها طلاب العلم من مختلف الأصقاع •

وفى عهد الدولة الأغلبية التى أسسها ابراهيم بن الأغلب التميمى الوالى العربى فى القيروان فى الفترة من ١٨٥هـ — ٨٠٠ الى ٢٩٥ هـ — ٩٠٩م انتشرت اللغة العربية وازدهرت العلوم وخلفت الدولة الاغلبيــة الدولة الفاطمية العبيدية التى عملت على تشجيع العلوم والمعارف على الرغم من الصراعات والفتن المذهبية التى كانت تقلقها وتعكر صفوها •

وبلغت العلوم والمعارف أوج ازدهارها فى عهد الدولة الصنهاجية البربرية (الزيرية) التى خلفت الفاطميين بعد رحيلهم الى مصر عام ٣٦٢هـ — ٩٧٣م •

وانقـــــرضت هـــذه الدولة على يد الموحـــدين المغــاربة عام ٥٥٦هـ — ١١٦٠م عندها اختفت هذه النهضة الثقافية الفكرية • وهكذا كانت مدينة القيروان مركزا هاما من مراكز الثقافة العربية الاســلامية خلال العصور الوسطى وسنشير الى بعض جوانب الحركة الثقافية فيها فيما بعد •

(ب) فى الأندلس :

نعنى بالكلام عن الدولة الاسلامية فى المغرب « الأندلس » بصفة خاصة وقد فتحها العرب فى القرن الاول الهجــرى (أوائل الســـابع الميلادى) وكان العرب يطلقون اسم « الأندلس » على جميـــع بقاع أسبانيا التى خضعت للمسلمين وترجع التسمية العــربية الى القبائل التى كانت تسكن أسبانيا •

فقد ظلت أسبانيا تحت حكم الرومان حتى أغارت عليها قبائل تعرف بقبائل الوندال فى القرن الخامس الميلادى • ومنـــذ ذلك الوقت

أطلق على هذه البلاد وندالوسيا أى بلاد الوندال فأطلق عليهــا العرب « الأندلس » •

ويورد ليفى بروفنسال فى كتابه : « حضارة العرب فى أسبانية » القاهرة ١٩٣٨ دليلاً على لسان « ألفارو » القرطبى المسيحى الذى كان من غلاة المتعصبين فى شبه الجزيرة الاندلسية فى القرن التاسع يوضح فيه مدى انتشار الثقافة العربية بين المسيحيين ويصرخ مما أصاب أهله من انتشارها يقول فيها : « أبناء دينى يحبون انشاد الأشعار العربية بل انهم يدرسون مؤلفات علماء الكلام لا ليدحضوها ويفندوها وانما ليقوموا نطقهم العربى تقويما صحيحا •• ان جميع شبان النصارى بما لهم من نبوغ لا يعرفون غير اللغة العربية وآدابها وانهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها باهتمام بالغ وكونوا لأنفسهم مكتبات منها أنفقوا عليها أموالا كثيرة معلنين فى كل مكان اعجابهم بهــذه الكتب والآداب واحسرتاه ، لقد نسى النصارى لسانهم الدينى ولا تكاد تجد بين كل ألف منا واحدا يستطيع أن يكتب بصورة لائقة رسالة باللاتينية الى صديق له • أما اذا كان الأمر يتعلق بكتابة رسالة بالعربية وجدت الكثير من الناس قادرا على التعبير بهذه اللغة تعبيرا مناسبا بل ان من بينهم من يقدر على نظم القصائد بالعربية بصورة قد تفوق من الناحية الفنيــة ما ينظم العرب أنفسهم » • وهذا يوضح مدى انتشار الثقافة العربية فى الاندلس آنذاك • ومع أن الأندلس لم يكن لها صلة بالشرق الا لمــدة حوالى ٤٤ سنة من آخر سنوات الدولة الأموية وقطعت هذه الصــلة بقيام الدولة العباسية فان العرب فى أسبانيا استطاعوا فى أقل من قرن بالأندلس أن يحيوا ميت الأرض ويعمروا أخراب المدن ويقيموا أفخم المبانى ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بجميع الأمم •

ومن الأندلس كان العرب يصدرون منتجــات المناجم ومعــامل الأسلحة ومصانع الحرير والجلــود والســكر الى الشرق وأفريقيا •

وأنشأوا المدارس والمساجد والفنادق والمستشفيات فى كل مكان الى جانب أنهم شقوا الطرق والجسور •

وكانت الزراعة موضع عناية خاصة بهم فقد درس العرب أمـــر الزراعة دراسة قائمة على معرفة تامة بالاقليم والأرض ونمو النبات وتكاثر الحيوان لدرجة يقال معها أحيانا انه لم يتوفر لأى أمة متمدنة فى أوروبا وآسيا أو أفريقيا من أصول فن الزراعة بمثل ما توفر لعرب الأندلس ولم تصل أى بلد من الازدهار الزراعى درجة أعلى مما وصلت اليه الأندلس العربية لا سيما مملكة غرناطة •

فقد كان اقليم الأندلس يدر ثلاثة محاصيل فى كل عام • وكان العرب أول من أدخل الى الاندلس زراعة الأرز والموز واللوز والفستق والنخيل وقصب السكر وجلبوا اليها الزهـــور والخضر التى لم تكن معروفة ومنها انتشرت فيما بعد الى أوروبا ولا تزال معظم أســماء الزهور المزروعة فى اللغةالأسبانية شاهدا على ما اســتعير مباشرة من العرب والمسلمين •

كما كان للصناعة نهضة فاستغلت مناجم الزئبق والياقوت كمـا استخرج اللؤلؤ والمرجان من الشواطىء • وطورت صـناعة الجلـود ودباغتها ونسج القطن والكتان والقنب •

أما الناحية العقلية والفكرية فكان للأندلس نشاط بالغ فى ميدان العقل والفكر الى جانب الازدهار المادى • وبلغت أسماء ابن رشــد وابن ماجه وابن عربى وابن حزم شهرتها وكانت الاندلس فى عهد العرب أعظم دول الغرب فى هذا العصر ازدهارا وحضارة وظهرت قرطبة أكبر عواصم أوروبا آنذاك نورا وكثرت القصور والمدارس ، والمراصـــد والمكتبات وقد أنشأ العرب مدرسة الطب فى مونبليه فى جنوب فرنسا • ويروى مؤلفو الغرب أنه كان يوجد فى الأندلس فى ذلك الحين سبعون مكتبة عامة وأن مكتبة الخليفة « الحكم » بقرطبة كانت تشتمل على أربعمائة ألف مجلد منها ٤٤ مجلدا للفهارس وحدها • وكانت بلاطات

ملوك المسلمين فى المدن الأندلسية المختلفة مثل طليطلة وبطليموس وبلنسية والمرية وغرناطة وأشبيلية على الخصوص ندوات يعمل فيها الشعراء والأدباء والعلماء والفلاسفة والأطباء والمتخصصون فى العلوم المختلفة وكانوا يحصلون على مكافآت مادية مجزية يدفعها لهم أمراء متنورون نصراء للعلم والأدب ٠

وقد ظلت الحياة الفكرية مزدهرة واستمرت بالرغم من التدهور السياسى حتى انقراض امارة غرناطة التى كانت آخر الامارات الاسلامية وقد كانت الحياة العقلية والفكرية مزدهرة فى هذه الامارة لا سيما فى مدينتيها الكبيرتين « مالقة والمريه » وجاءت النهاية الحزينة فى الثانى من يناير ١٤٩٠ الذى كان يوما حزينا مشئوما استسلمت فيه غرناطة آخر الامارات الاسلامية وبعدها بدأ اضطهاد العرب بل والموريسيكيين منهم (وهم المسلمون الذين تنصروا سرا) واستمر الاضطهاد طيلة حوالى قرن من الزمان بلغ ضحاياه فى تقدير المؤرخين ثلاثة ملايين من العرب ٠٠ وينتهى دور الاضطهادات عام ١٥٥٦ بطرد جميع العرب من الأندلس الى أفريقية ونقل مليون منهم بطريقة بالغة القسوة ويروى المؤرخون أنه ذبح فى الطريق أكثر من ثلاثة أرباعهم وحرقت الكتب والمخطوطات العربية الثمينة وفى غرناطة وحدها أحرق ما يقرب من ثمانين ألف مخطوط عربى وقد كانت هذه النهاية نهاية الأندلس الاسلامية ونهاية أسبانيا المسيحية أيضا اذ خسرت بفقد العرب شريان حياتها الدافق وترك العرب وراءهم فراغا كبيرا انعكس على الحياة فى أسبانيا لعدة قرون تالية ولم يكن يملأ هذا الفراغ كل الذهب الذى جمعه غزاة الأسبان من المكسيك وبيرو وجاءوا به الى أسبانيا وطنهم الأم ٠ لقد جفت المياه الجارية ونضبت الينابيع المتدفقة وجفت الزهور اليانعة وعم الأرض البور والخراب وخلت المدن من سكانها ، وتدهورت الفنون والحرف ولم تلبث الدولة التى كانت على رأس جميع الامم أن هوت الى الحضيض ويحدد القرن التاسع الهجرى

(السادس عشر الميلادى) النهاية الحزينة لسقوط الحضارة الاسلامية بعد أن كانت منارة الانسانية طيلة العصور الوسطى تلك سنة الله فى خلقه ولله فى خلقه شئون .

وفى الشرق قامت على أنقاض الدولة العباسية دول وامارات . وكانت مصر فى العهد الفاطمى فى القرن (١١ م) وارثة الخلافة فى بغداد بعد انحطاط مركزها السياسى والفكرى وقامت امارات آل سامان وآل بويه الفارسية ودول الأتراك السلاحقة والخوارزميين والمغول وامتدت الحضارة الاسلامية الى الهند والصين وحمل الأغالبة فى شمال افريقية حضارة العرب الى صقلية ، وكذلك كانت الدولة العثمانية وريثة أيضا للدولة العباسية وعرفت هذه الممالك الاسلامية كثيرا من الأدباء والعلماء .. والمفكرين الذين أسهموا فى بناء صرح الانسانية . ومن هؤلاء الفردوسى صاحب الشاهنامة، وأحد كبار الشعراء الحماسيين عاش فى بلاط السلطان محمود الغزنوى وفى دولة بنى بويه . وفى فارس السلجوقية ظهر الفيلسوف والعالم الاسلامى الشهير أبو حامد الغزالى الملقب بحجة الاسلام وابن سينا الذى ولد فى بخارى وتوفى فى همدان كما ظهر أيضا عمر الخيام العالم الرياضى المشهور أكثر بشاعريته لا سيما رباعياته التى لاقت شهرة كبيرة لا فى العالم الاسلامى فحسب بل فى دول الغرب أيضا .

السمات العامة للتربية الاسلامية فى العصر الذهبى :

كان من أهم السمات العامة للتربية الاسلامية فى هذه الفترة دخول العلوم العقلية وانشاء المدارس وظهور الآراء التربوية المتميزة وهو ما سنفصل الكلام عنه فى السطور التالية :

١ — دخول العلوم العقلية :

يقصد بالعلوم العقلية : علوم الفلسفة والرياضيات ، والهندسة والجبر والفلك والطب والطبيعة والكيمياء والموسيقى والتاريخ والجغرافيا .

وقد سبق أن اشرنا الى فضل المسلمين على هذه العلوم . بيد أنه لا يمكن أن نغفل أثر حركة الترجمة الهائلة التى قام بها المسلمون فى العصر العباسى لترجمة علوم الاغريق وكتبهم وقد بلغت الثقافة العربية قمة ازدهارها فى هذه الفترة عندما انفتحت على الثقافات الأخرى وتفاعلت معها وقد بدأ العرب فى نقل الترجمات ، الرياضية لعلوم اليونان والرومان الى العربية وكان الخليفة المنصور له شرف المبادرة فى اتخاذ الخطوة الأولى لترجمة كتب اليونان ودراستها وسار على نهجه الخلفاء المهدى والرشيد والمأمون .

ويقول ابن خلدون فى « المقدمة » فى كلامه عن العلوم العقلية : « واعلم أن أكثر من عنى بها فى الأجيال الذى عرفنا أخبارهم الأمتان العظيمتان فى الدولة قبل الاسلام وهما فارس والروم .. وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما ... ولما فتحت أرض فارس وجدوا فيها كتبا كثيرة » .

ومن المعروف أنه عندما نفى الامبراطور الرومانى جستنيان فلاسفة الاغريق وعلماءهم من « اثينا » لوثنيهم فروا الى بلاد الفرس لما وجدوه من ترحيب كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) . وكان كسرى قد أسس فى « جند يسابور » من أعمال خوزستان فى وسط آسيا دارا للعلم قام فيها هؤلاء العلماء بتدريس الفلسفة والطب وبقى أثرها فى تلك البلاد حتى ظهرت الدولة العباسية كما غدت « حران » مركزا من مراكز الثقافة اليونانية ببلاد العراق . وتكلم أهل « حران » وهم «الصابئة» اللغة العربية فى سهولة ويسر وساعدوا الى حد كبير على نشر الثقافة اليونانية من المسلمين . واليهم يرجع الفضل فى ترجمة كثير من الكتب عن اللغات الأجنبية(١) وشهد العالم الاسلامى حركة علمية كبيرة بلغت ذروتها فى القرن الرابع الهجرى . وكان قوام هذه

---

(١) حسن ابراهيم : مرجع سابق ، ص ٥٢٢ .

الحركة ترجمة العرب لعلوم الاغريق واليونان والرومان والفرس والهنود من علوم مختلفة فى الطب والفلسفة والرياضيات والطبيعة والفلك والموسيقى ، وقد تأثر المنهج المدرسى بهذه الحركة لا سيما منهج الدراسات العالية والمتقدمة • وقد أعجب المسلمون اعجابا كبيرا بهذه العلوم الجديدة وأقبلوا على دراستها بل ولقبوا أرسطو أحد مشاهير روادها بالمعلم الأول وابن الهيثم عاش فى القرن الخامس الهجرى ودرس العلوم المختلفة من طب وفلسفة ورياضيات والالهيات كتب يقول موضحا سر اهتمامه بهذه العلوم ومعلنا اعجابه بأرسطو :

« ازدريت أعوام الناس ولم ألتفت اليهم واشتهيت ايثار الحق وطلب العلم واستقر عندى أنه ليس ينال الناس من الدنيا شيئا أجود ولا أشد قربة من الله من هذين الأمرين • فخضت لذلك فى ضروب الآراء والاعتقادات وأنواع العلوم والبيانات ، فلم أحظ من شىء منها للحق منهجا ولا الى الرأى اليقينى مسلكا جدداً فرأيت أننى لا أصل الا عن آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الامور العقلية فلم أجد ذلك الا فيما قرره أرسطو من علوم المنطق والطبيعيات والالهيات ، فلما تبينت ذلك أفرغت وسعى فى طلب علوم الفلسفة وهى ثلاثة علوم رياضية وطبيعية والهية »(١) •

ولا شك أن العرب فى نقلهم لعلوم اليونان والرومان قد نقلوها بعد تطويعها لثقافتهم الاسلامية فالاسلام لا يعرف التعصب ولا يعرف الانغلاق وقد لعب العرب دور الوسيط فى نقل هذه العلوم • وقد عبر أحد المؤرخين بقوله وهى شهادة شاهد من غير أهله :

« كان العرب مستعدين استعدادا عجيبا لتمثيل دور الوسيط وكانوا ذوى نشاط منقطع النظير يعتبر آية على دورهم الممتاز فى تاريخ الدنيا

---

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٨٧٢ ، جـ ٢ ، ص ٩٢ — ٩٣ .

وكانوا على عكس بنى اسرائيل المتعصبين راغبين فى مصاهرة الامم المغلوبة من غير جحود لخلقهم القومى وتقاليدهم على الرغم من تغلبهم فى مختلف الامصار » •

ولو أن دور الحضارة الاسلامية اقتصر على انقاذ علوم القدماء وعلى الاحتفاظ بها ذخيرة كاملة تسلم الى الأجيال القادمة لاعتبر هذا الدور خدمة جليلة للانسانية لا تقدر بثمن • بيد أن دور العـــرب والمسلمين لم يقتصر على مجرد حفظهم لعلوم اليونان والرومان وانما أضافوا لها وزادوا عليها ذلك أنهم لم يتلقوا هذه العلوم كتلامذة وانما كأساتذة ويعتقد كثير من المؤرخين أنه بدون هذا الدور الذى قام به العرب بالنسبة لعلوم اليونان والرومان لتعـــذر ظهور عصر النهضـــة الأوروبية • ويقول المؤرخ الفرنسى سيديللو » فى كتابه عن تاريخ العرب (باريس ١٨٥٤ م) « ان العرب ، وحدهم كانوا ممثلى الحضارة فى القرون الوسطى فدحروا توحش أوروبا التى زلزلتها غارات أمم الشمال » • ومع هذا ردد كثير من الأوروبيين الدعوى القـــائلة بأن حضارة العرب فى القرون الوسطى لم تكن الا ظل الحضارة اليونانية وأن العرب كانوا مجرد ناقلين أو حافظين لهذه الحضارة • وفى هـــذه الدعوى كثير من الزيف والخطأ والتعصب وقد رفضها المنصفون من علماء الأوروبيين المنصفين أنفسهم وفى هذا يقول العـــلامة دربير Draper « ادعينا طويلا أن المسلمين ، لم يفعلوا شيئا أكثر من نقل علوم اليونان ونحن لا نستطيع أن نسير فى مثل هذا النهج الغامض دون أن نتهم بالجهل والخطأ » وفى هذا يقول جورج سارتون Sarton أنه من سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ فى بلاد الاغريق لأن المعجزة الاغريقية سبقتها آلاف الجهود العلميـــة فى مصر وفى بلاد ما وراء النهرين وغيرهما من البلاد ان العلم اليونانى كان احياء أكثـــر منه اختراعا وكفانا سوءا أننا أخفينا الأصول الشرقية المصرية والبابلية التى لم يكن التقدم الهلينى ممكنا بدونها •

ويقول العالم الفرنسى سيديللو Sidillot الذى سبقت الاشارة اليه فى كتابه ، « تاريخ العرب العام » أن العرب كانوا أساتذة أوروبا فى جميع فروع المعرفة وقد حاول الأوروبيون أن يقللوا من شأن العرب ولكن الحقيقة ناصعة وليس من مفر أمامنا الا أن ترد للعرب عاجلا أو آجلا ما يستحقونه من عدل .

وعلى كل حال فان دخول العلوم العقلية تمثل مرحلة جديدة فى التربية الاسلامية مكنت الفكر الاسلامى من القيـــام بدوره فى اثراء الفكر العالمى .

ودخلت هذه العلوم العقلية الى منهاج التربية الاسلامية فى مراكز التربية والتعليم المختلفة وفى مقدمتها المدارس .

٢ — نشأة المدارس :

شهدت هذه الفترة ظهور المدارس ولم تكن معروفة من قبل ويقال ان نظام الملك هو أول من أنشأ المدارس فى الاسلام فكان انشـــاؤها يمثل قمة التربية المدرسية الاسلامية . وسنتناول الكلام بالتفصـــيل عن المدارس فى كلامنا فيما بعد عن مراكز التعليم فى الاسلام .

٣ — ظهور الآراء التربوية المتميزة :

كان من أهم السمات التى تميزت بها التربية الاسلامية خـــلال هذه الفترة تصدى علماء المسلمين للكتابة عن موضوع التربية والتعليم كتابة مستفيضة تعكس اهتماما خاصا بها وكان أول المؤلفين فى هـــذا الموضوع ، ابن سحنون فى القرن الثالث الهجرى والقابسى فى القـــرن الرابع الهجرى وغيرهم كثيرون مما تناولوا الكلام فى هذا الموضوع من أشهرهم ابن مسكويه ، والغزالى فى القـــرن السادس الهجـــرى وابن خلدون فى القرن الثامن الهجرى وألف برهان الدين الزرنوجى المتوفى عام ٥٩١ هـ كتاب « تعليم المتعلم طريق التعلم » الذى ترجم

الى اللاتينية وحظى بشهرة كبيرة عند المسلمين • ويقول عنه الأهوانى ان قيمته ضئيلة الشأن لا تتعدى حجمه الصغير ويبرر ذلك بقوله ان صاحبه لم يأت بجديد وانه كثيرا ما كان ينزل الى مستوى العامة فى الاعتقاد بأوهام لا تستند الى أساس علمى[1] وربما كان هذا الحكم قاسيا على الزرنوجى فهو لا يقف وحيدا فى النقل عن السلف كما أن كتابه لا يخلو من قيمة تربوية وقد اعتبره ، ابراهيم سلامة واحدا من أهم كتابين فى التربية ثانيهما : هو كتاب القابسى كما أن المتأخرين من دارسى الزرنوجى قد اعتبروا كتابه ذا أهمية تربوية ونفسية •

ويلاحظ أن من ألف فى التعليم من المتأخرين اعتمد بصـــورة أساسية على تلخيص آراء المتقدمين وأحياناً بدون ذكر المصادر التى أخذوا عنها فالقابسى فى رسالته المفصلة لأحوال المتعلمين وأحـــكام المعلمين والمتعلمين نقل كثيرا من آراء ابن سحنون أول من ألف فى الموضوع « رسالة آداب المعلمين » • والغزالى نقل عن ابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق والعجيب أن ابن مسكويه فى تهذيب الأخـــلاق نقل عن بروسين وعن الاغريق وشمس الدين الانبـــابى فى رســـالته « رياضة الصبيان » نقل أيضا عن ابن مسكويه وشيخ الاسلام أبو يحيى زكريا الانصارى فى كتابه « اللؤلؤ النظيم فى روم التعلم والتعليم » نقل عن الغزالى • وهكذا كان الخلف ينقل عن السلف • كما لم يجد علماء المسلمين حرجا فى النقل عن الاغريق وفى مقدمتهم أرسطو الذى لقبوه بالمعلم الأول •

وسنتناول تفصيل الكلام عن بعض مشاهير علماء المسلمين الذين تحدثوا عن التربية والتعليم واهتموا بدراسة الموضوع دراسة تحليلية تفصيلية فيما بعد عند الكلام عن أعلام التربية فى الاسلام •

---

(١) احمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الاسلام ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٥ ، ص ٢١٠ •

الفصل السادس

مراكز التعليم الاسلامى

كان المسجد والكتاب من أهم مراكز التعليم الاسلامى فى العصور الأولى وعرفت المدارس فيما بعد وقامت بدور كبير فى التعليم فى البلاد الاسلامية والى جوار هذه المراكز كانت هناك أيضا المكتبات ودور الحكمة وبلاط الخلفاء وحوانيت الوراقين والرباطات والبيمارستانات كمراكز تعليمية مع تفاوت نسبى فى الأدوار بينها وسنفصل الكلام عن هذه المراكز فى الصفحات التالية .

أولا ــ المساجد :

لعبت المساجد دورا تربويا هاما فى أول الدعوة الاسلامية وكانت مركزا للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية وكانت تقوم بوظائف متعددة من أهمها :

١ ــ أنها كانت دورا للعبادة والصلاة .

٢ ــ أنها كانت مراكز تربوية وثقافية هامة يعقد بها حلقات العلماء لدراسة القرآن الكريم والفقه واللغة كما كانت أماكن للفتوى .

٣ ــ أنها كانت تستخدم أيضا كمعاهد لتعليم الناشئة أصول الدين واللغة والأدب .

٤ ــ كانت مكانا للتقاضى يجتمع فيه القضاة للفض فى الشكاوى والخصومات .

٥ — كانت مراكز لتصريف شئون الدولة قبل انشــاء الدوا[illegible] الحكومية فكان النبى صلى الله عليه وسلم يستقبل السفراء فى المساجد ويدير شئون الدولة فيها •

٦ — كان المسجد مكانا اعلاميا هاما فيه تذاع الأخبار الهامة التى تتعلق بالمصالح الهامة وفيه التجهيز للحروب والغزوات • ومن الأمثلة على ذلك أن عمر أعلن من على المنبر تقهقر جيوش المسلمين فى العراق واستحث قومه على السير الى هذه البلاد وعلى المنبر أيضا وقــف عثمان يدافع عن نفسه •

٧ — كان الخليفة بعد مبايعته يصعد المنبر ويلقى خطبته الأولى مضمنا اياها سياسته فى الحكم ، كما كان يلقى خطبه على الناس أثناء خلافته أو التشاور معهم فى الأمور الهامة التى تعينهم كما كان يجلس فيه للفض فى الخصومات بين الناس •

ومن أشهر المساجد والجوامع المعروفة : المسجد النبوى الشريف بالمدينة والجامع العتيق أو جامع عمرو (المؤسس سنة ٢١ هـ فى القاهرة وجامع ابن طولون فى القاهرة أيضا ، ومســجد الـكوفة (١٤ هـ) ، ومسجد البصرة (١٧ هـ) الذى كان يضم حلقات الشعر والأدب والجدل، ومسجد دمشق ويعرف الآن بالمسجد الاموى (بنى ١٩ هـ) ويضرب به المثل فى جماله وحسن نظامه • ومسجد القيروان لعقبة بن نافع (٥١هـ) فى تونس ، وجامع الزيتونة فى تونس وجامع القرويين فى فاس ، وجامع قرطبة فى الأندلس والجامع الكبير فى صنعاء ، والجامع الأزهر الذى بناه الفاطميون وسموه بالأزهر تيمنا بفاطمة الزهراء بنت الرسول (صــلعم) جدة الفاطميين وكان كعبة لكل طلاب العلم من مشرق العالم الاسلامى لغربه وكان يدعو لمذهب الفاطميين وهو أساس انشائه ، ولكن كان يدرس فيه الى جانب ذلك العلوم العقلية والنقلية بما فيها من فلسفة ومنطق وطب ورياضيات •

ويميز المؤرخون فى الاسلام بين نوعين من المساجد المسجد الصغير وهو لقضاء الصلوات العادية ، أما المسجد الجامع فهو مسجد كبير واسع الأركان تقام فيه الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وصلاة العيدين • وكان مركزا للحياة الدينية والسياسية والثقافية والاجتماعية والقضائية •

ويذكر ابن خلدون أن المساجد الكبرى العظيمة أو الجامعة هى التى كان يتولى شئونها الخلفاء أو الحكام فيعينون أئمتها وأهل العلم والفتوى والتدريس بها • أما المساجد الصغيرة فلم تكن تحظى بهذه الرعاية ويفصل ابن خلدون القول فيقول :

فاعلم أن المساجد فى المدينة صنفان : مساجد عظيمة ، كثيرة الغاشية معدة للصلوات المشهودة ؛ وأخرى دونها مختصة بقوم أو نحلة، وليست للصلوات العامة •

فأما المساجد العظيمة ، فأمرها راجع الى الخليفة أو من يفوض اليه ، من سلطان أو من وزير أو قاض فينصب لها الامام فى الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء • وتعين ذلك انما هو من طريق الأولى والاستحسان ، ولئلا يفتات الرعايا عليه فى شىء من النظر ، فى المصالح العامة •

وأما المساجد المختصة بقوم أو نحلة فأمرها راجع الى الجيران ، ولا تحتاج الى نظر خليفة ولا سلطان •

(وأما الفتيا) فللخليفة تصفح أهل العلم والتدريس ، ورد الفتيا الى من هو أهل لها واعانته على ذلك ومنع من ليس أهلا لها وزجره لأنها من مصالح المسلمين فى أديانهم ، فتجب عليه مراعاتها لئلا يتعرض لذلك من ليس له بأهل فيضل الناس ، وللمدرس الانتصاب لتعليم العلم وبثه والجلوس لذلك فى المساجد ، فان كانت من المساجد العظام التى للسلطان

الولاية عليها والنظر فى أئمتها كما مر فلابد من استئذانه فى ذلك ، وان كانت من مساجد العامة ، فلا يتوقف ذلك على اذن . على أنه ينبغى أن يكون لكل واحد من المفتين والمدرسين زاجر من نفسه ، يمنعه عن التصدى لما ليس له بأهل فيدل به المستهدى ويضل به المسترشد[1] .

المسجد كمركز تعليمى :

كان النبى صلى الله عليه وسلم أول من اتخذ المسجد مكانا للدعوة والتعليم ففى أول الأمر كان يتخذ من منزله ومن دار الأرقم بن أبى الأرقم مكانا لنشر الدعوة وبعد الهجرة كان انشاء المساجد فانتقل الرسول صلى الله عليه وسلم بنشاطه الدينى والتعليمى الى المسجد . وكان مسجد قباء أول المساجد التى بنيت فى الاسلام وأنشىء بعده مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمربد بالمدينة المنورة . وتوالى بعدها انشاء المساجد .

وكان التعليم فى المساجد يقوم على تعليم أمور الدين وتذكير الناس بالآخرة وكان التعليم فى هذه الأمور يعتمد على الأسلوب القصصى ممتزجا بالعلوم والحكمة والموعظة ، كما كانت تدرس ايضا العلوم الدينية من قرآن وتفسير وحديث .

وكان أصحاب المذاهب والملل والنحل المختلفة يجتمعون فى المساجد ويلقون الدروس وفقا لمذاهبهم وأحيانا كان يسير التدريس فى المساجد على مذهب معين كالشيعة مثلا وكان أحيانا يحرم التدريس فيها الا من كان على مذهب أهل السنة ، وقد اتسعت الدراسة بالمساجد وتنوعت فشملت علوم الكلام والفقه والفلسفة والنحو والأدب والتاريخ والحساب والفلك والطب والعلوم الطبيعية . وكان يقوم بالتعليم بالمسجد أحد الشيوخ من يأنس فى نفسه المقدرة على التعليم . وكان الشيخ يجلس

---

(١) المقدمة ص ١٩٥ — ١٩٦ .

على حصير أو بساط ووسادة وأحيانا كان يجلـس على كرسى مرتفع حتى يسمعه الحاضرون • وكان الطلاب يجلسون من حوله فى حلقـة تتفاوت فى حجمها حسب مكانة الشيخ العلمية وحسب ظروف العمـل للطلاب •

وكان الشيخ يفتتح الدرس بالبسملة والحمد لله والحوقلة والصلاة على النبى وقد يتلو آيات من القرآن الكريم أو الحديث الشريف تتصل بطلب العلم وتحث عليه •

ثم يبدأ فى الكلام عن موضوع درسه وكانت الدروس تتنوع فمنها ما يهدف الى التوعية العامة بأمور الدين وأصوله وأحكامه ومنها ما كان دروسا منظمة فى علم من العلوم وفى هذه الحالة كان الشيخ يستمد درسه من معلوماته أو من مذكرات كتبها لنفسه ويقوم باملائها على تلاميذه ومن أشهر الأمالى المعروفة أمالى أبى على قالى وأمالى سعيد ابن الحداد وأمالى بن الله بن طالب فى ثلاثة أجزاء •

وكان الشيخ يقوم باملاء بتؤدة وتأن وبترتيب المسائل والأمور ويقوم الطلاب بتسجيل ما يملى عليهم فى كناشاتهم وقد يقوم الشيخ بتملية النص ثم يقوم بشرحه ويقوم الطلاب بتسجيل هذا الشرح على هامش النص • وعندما يكمل الشيخ أماليه كانت تعرض عليه أو يقوم الطلاب بقراءتها عليه لتصحيح ما قد يكون بها من أخطاء ثم يوقع الشيخ على نسخة الطالب مجيزا اياه على روايته وتدريس هذه الأمالى من بعده • وكان للطالب أن يسأل استاذه بتأدب للاستيضاح وعليه أن يختار الوقت المناسب للسؤال وكان الاستاذ أحيانا هو الذى يوجه الأسئلة لاختبار فهم طلابه وكان يقوم بالاجابة على ما يصعب من الأشياء وكان الشيخ ينهى درسه عادة بعبارة « والله أعلم ورسوله » ثم تتلى فاتحة الكتاب وبعدها يتقدم الطلاب بشكر الشيخ والترحم على والديه والدعاء له وقد يقومون بالسلام عليه وتقبيل يديه •

وكان الشيوخ والعلماء يقومون بالتعليم فى المساجد احتسابا لوجه الله وتجنبا للعنة التى أوجبها الاسلام على من أخفى علمه عن الناس.

وكان الشيوخ يعيشون من التكسب من كد يمينهم وعلمهم كما كانوا يتلقون المساعدة والعطايا والهدايا من الملوك والأمراء والأعيان وأهل الخير من العامة . وكان الموسرون من الطلبة لا يبخلون بما لهم على مشايخهم كما كان المشايخ يقبلون الهدايا من طلابهم .

وفى تقويم اجمالى للمسجد كمركز تعليمى يمكن القول بأن العلماء المسلمين فى آلاف المساجد المنتشرة فى البلاد الاسلامية من قرطبة فى غرب أوروبا الى سمرقند فى وسط آسيا لم يكونوا فى عددهم أقل من عدد ما فيها من الأعمدة. وكانت ايواناتها تردد أصداء علمهم وفكرهم وبلاغتهم .

ثانيا ــ الكتــاب :

يقول ابن منظور فى كتابه لسان العرب « الكتاب » موضع تعليم الكتاب أى الكتابة وكان الكتاب أحد مراكز التعليم فى الاسلام ويقال انه عرف فى بلاد العرب قبل الاسلام على نطاق ضيق محدود وقد يطلق على الكتاب أحيانا اسم « مكتب » ، وكان الكتاب عبارة عن مكان مستقل أو غرفة فى منزل أو حجرة مجاورة للمسجد أو ملحقة به أو خيمة من جملة خيام الحى فى البادية (خيمة المؤدب) كما كان يعرف فى تونس فى شمال افريقية . واختلف حجم الكتاب من حجرة صغيرة الى مكان واسع يتسع لأعداد كبيرة من التلاميذ فقد روى ابن خلدون أن كتاب ابى قاسم البلخى كان به ثلاثة آلاف تلميذ وكان فسيحا جدا لدرجة أن البلخى كان يركب حمارا ليمر به على التلاميذ ويشرف على تعليمهم وقد انتشرت الكتاتيب منذ القرن الأول الهجرى فى الأمصــار الاســلامية ويروى أن الكتاتيب أنشئت فى مدينة القيروان منذ النصف الثانى من القرن الأول الهجرى .

هدف الكتــاب :

وكان الهدف الأساسى من الكتاب تحفيظ القرآن الكريم وتعليم القرآن والكتابة لأن حفظ القرآن لا يسهل الا بتعلمها وكان يشترط فى تعليم القرآن حسن الترتيل وجودة قراءته • ولما كانت معرفة القــرآن معرفة صحيحة تستلزم الالمام بقواعد الاعراب كان معلم الكتاب يعلم تلاميذه عبارات النحو واللغة وكان يدرس أحيانا الحساب وأيام العرب وتواريخها • وكان الكتاب يمثل بداية مراحل التعليم ينتقل منه الصبى الى اكمال تعليمه فى المسجد حيث يتوسع فى طلب العلم •

الدراســة فى الكتاب :

كانت الدراسة فى الكتاب عادة تمتد من يوم السبت الى الخميس باستثناء يوم الجمعة والنصف الثانى من يوم الخميس : وكان الصبيان يبدأون يومهم المدرسى بحفظ القرآن عندما يكونون مكتملى النشـــاط ويستمر ذلك الى الضحى ثم ينقلون بعد ذلك الى تعلم الكتابة حتى الظهر ثم ينصرف التلاميذ الى بيوتهم وكان فى بعض الكتاتيب فترة فى المساء يدرس فيها الصبيان النحو والحساب وأيام العرب وتاريخهم وكان يوم الخميس يخصص عادة للمراجعة كما كانت الدراسة تعطل بمناسبة الأعياد وكان التلاميذ يذهبون الى الكتاب فى الصباح الباكر فيجدون معلمهم جالسا فى المكان المخصص له فيجلسون من حوله على اليمين واليسار قعودا على الحصير المصنوعة من السمار أو نبات الحلفـــاء وقد كان ذلك الاثاث المتواضع الشائع للكتاب وكان كل منهم يضع فى حجره لوحه المصنوع من الخشب المصقول أو الصفيح وعلى اللــوح ما كتبه بالأمس فيشرع كل منهم فى الحفظ وتتصاعد أصواتهم متشابكة مختلطة لاختلاف ما يقرأه كل منهم عن الآخر لتفاوت مستوياتهم ويقوم معلم الكتاب بالاستماع الى كل واحد منهم بعد الآخر للتأكد من حفظهم لما كتبوه على الألواح يقوم بعدها الصبى بمسح اللوح بوضعه فى اناء به ماء طاهر ثم يجففه وفى بداية تعلم الصبى للكتابة كان المعلم يقــوم

باملاء آية أو آيات من القرآن على كل واحد ويطالبه بكتابتها ثم ينتقل الى صبى ثان ثم ثالث وهكذا ثم يعود الى الصبى الأول ليراجع له كتابته أما كبار التلاميذ فكانوا يقومون بنسخ كتابتهم على الألواح من المصحف مباشرة وكان المعلم يستعين بهؤلاء التلاميذ الكبار كعرفاء يساعدونه فى تعليم المبتدئين ولكل تلميذ لوح ودواة وقلم متواضع من القش أو القصب ومصحف فى بعض الأحيان •

وكان الصبى يتم دراسته فى الكتاب عادة بحفظ القرآن كله وهو ما يسمى (بالختمة) أى أن الصبى يختم القرآن كله وكانت تعتبر مناسبة سعيدة قد تشهد احتفالا متواضعا وقد تعطل الدراسة يوما أو يومين احتفاء بهذه المناسبة ، وأحيانا كثيرة كان الصبى يكتفى وفقا لقدرته بحفظ نصف القرآن أو ثلثه أو ما تيسر له منه •

نقد طريقة التعليم بالكتاب :

عرض ابن خلدون لاختلاف الأمصار الاسلامية فى تعليم الولدان ومع أن هذه الأمصار تختلف فيما بينها من حيث المواد التى تمزجها مع تعليم القرآن وتحفيظه كله أو جزئه وهو ما يمثل البرنامج الاجبارى الرئيسى للكتاب •

ويورد ابن خلدون طريقة أبى بكر بن العربى الاندلسى التى تقوم على ارجاء تعليم القرآن والبدء بتعليم العربية والشعر والحساب حتى يسهل على الطفل بعد ذلك فهم القرآن وحفظه • ومع ان ابن خلدون استحسن هذه الطريقة الا أنه يقول أن العوائد لا تساعد عليه وهى أملك بالاحوال •

كما انتقد ابن خلدون طريقة التلقين التى كانت سائدة فى التعليم وفضل عليها طريقة المحاورة والمناظرة وقد عرضنا لتفصيل ذلك عند الكلام عن آراء ابن خلدون وبالرغم من هذه الانتقادات فلا يمكن أن

ننكر الدور الهام الذى لعبه الكتاب فى الحياة الثقافية والفكرية وكان القاعدة العريضة التى تعلم فيها كثير من علمائنا النابهين ٠

معلم الكتـــاب :

كان من أهم الشروط التى ينبغى توافرها فى المعـــلم أن يكون حافظا للقرآن الكريم عالما بأمور الدين وعارفا بالقراءة والكتابة والنحو ولا بأس من المامه بفنون المعرفة الأخرى كالحساب واللغة والأدب ٠ والى جانب هذا الشرط الرئيسى كانت هناك أيضا شروط دينية وخلقية فمن الشروط الدينية أن يكون المعلم تقيا ورعا قائما بفروض دينـــه مشهودا له بالخلق الكريم ٠

ومن الناحية الخلقية يجب أن يكون رفيقا بالصبيان رحيما بهم وأن يسوى فى المعاملة بينهم ، وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وســـلم قوله « أيما مؤدب ولى ثلاثة من صبية هذه الأمة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين »٠ وكان المعلم يتخذ معه عريفا يساعده اذا زاد عدد التلاميذ واشترط فيه أن يكون قد حفظ القرآن وهو مستغن على التعليم ٠ وكان المعلم يلتزم بالوقار مع صبيانه فلا يتبسط فى الأمور معهم فيتجرءون عليه ، وعليه أن يحسن رعاية تلاميذه لأنه راع لتلاميذه وهو مسئول عن رعيتـــه ولا يجوز للمعلم أن يسخر تلاميذه لخدمته أو قضاء حوائجه ٠

وكان المعلم هو الذى يقوم بتأجير الكتاب وتأثيثه ، وفى بعـــض الأحيان كان آباء الصبيان يتعاونون فى تأجير المكان للمعلم ٠ وكان الكتاب يضم معلما واحدا ، وفى بعض الأحيان كان يضم أكثر من معلم وقد ذكر ابن حوقل أنه رأى فى مدينة « بلرمو » بصقلية كتابا واحدا يقوم بالعمل فيه خمسة معلمين ٠ ويرجع ذلك الى اعفاء المعلمين من

الجهاد ففزع كثير من الرجال الى هذه المهنة وحسنه اديهم جهلهم فرارا من الجهاد وشرفه والغزو وعزه[1] •

وكانت الدرة والفلقة من عدة المعلم يستخدمها فى عقاب المقصرين من تلاميذه ولكن الضرب بالدرة أو الفلقة كان لا يستخدم عادة الا اذا فشل النصح والتقريع بالكلام غير البذىء أو الجارح ، وكان الضرب عادة بعيدا عن العنف والقسوة وفى أماكن من الجسم لا يترتب عليها الحاق ضرر بالطفل وعادة ما يكون الضرب على الرجلين فى حدود ضربة واحدة الى ثلاث •

وكان المعلم يتقاضى أجرا عن التعليم اما شهريا أو سنويا وذلك بالاتفاق مع آباء التلاميذ وأحيانا يترك تحديد الأجر بما تجــود به همتهم • وقد أجاز معظم فقهاء المسلمين بجواز أخذ المعلم أجرا على التعليم على الرغم من أن بعضهم ومن بينهم الغزالى استقبح ذلك •

ثالثا ــ المدارس :

هناك شبه اتفاق على أن نظام الملك الوزير السلجوقى الفارسى هو أول من بنى المدارس فى الاسلام فى القرن الخامس الهجرى مع أنه وجد فى نيسابور البعيدة مدارس قبل ذلك التاريخ • وكان أشهر هذه المدارس المدرسة النظامية فى بغداد مع أنه أنشأ مدارس نظــامية أخرى فى بلخ وأصفهان والبصرة والموصل وهرات ومرو • ويقــول « السبكى » فى « طبقات الشافعية » : انه ليس صحيحا أن نظام الملك هو أول من بنى المدارس فى الاسلام فقد وجد فى نيسابور مدارس قبل المدارس النظامية منها المدرسة السعيدية التى أنشأها نصر بن سبكتكين حاكم نيسابور والمدرسة البيهقية التى بناها الشيخ أحمد البيهقى فى

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ج ١ ، ص ١٢٩ •

نيسابور أيضا ويتفق كل من المقريزى والسيوطى مع السبكى فى هذا الرأى •

ويروى أن المدارس الاسلامية الأولى بنيت على الطراز المعمارى للمساجد ولم يكن يميز المدرسة عن المسجد الا فى وجود الايوان وهو قاعة الدرس بالاضافة الى أماكن اقامة المعلمين والطلاب وما يتطلبه ذلك من مرافق خاصة • وربما يرجع ذلك الى تداخل وظيفة المدرسة أول ظهورها بوظيفة المسجد فقد كان يعين للمدارس مؤذنون ويقام فيها منابر للخطابة • وأقيمت فيها الصلاة كالمسجد كما استخدمت فى بعض الأغراض الأخرى للمسجد كمركز للتقاضى وفض المظالم •

وكانت المدرسة تتكون عادة من صحن أو فناء ومن ايوانات تحيط بها عليها قباب وكانت تلحق بها مكتبة • وكان برنامج الدراسة يتضمن موادا أساسية هى علوم الدين والعلوم العقلية وأخـــرى فرعية هى الحساب والتاريخ والأدب وبعض العلوم العقلية الأخرى •

وقد تعرض ابن بطوطة فى رحلته المشهورة المسماة « تحفـــة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » الى اشارات عن المدارس والتعليم فى البلاد التى زارها ووصف ابن بطوطة المدرسة المستنصرية التى بناها أمير المؤمنين العباسى المستنصر بالله فى بغداد عام ٦٣١ هـ (١٢٣٤ م) وكانت أشبه بمدينة فيها أربعة أروقة يختص كل منهـــا بمذهب خاص من مذاهب السنة وكان عدد طلابها ثلاثمائة موزعين على هذه الأورقة• وكان الطلاب يقيمون اقامة داخلية بالمدرسة وكانت اقامتهم وتعليمهم بالمجان كما كان الطالب يعطى دينارا من الذهب فى الشـــهر وعندما زارها ابن بطوطة كان يدرس بها المذاهب الأربعة فيقول فى وصفها : « لكل مذهب ايوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس فى قبة خشب صغيرة على كرسى عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره

معيدان يعيدان كل ما يمليه . وهكذا ترتيب كل مجلس من هـذه المجالس الأربعة وفى داخل هذه المدرسة حمام للطلبة ودار الوضوء . ووصف جامع دمشق المعروف بجامع بنى أمية وعرض باختصار لمدرسيه ومعلميه ووصف طرقهم فى التعليم وأشهر المدرسين به . وذكر أيضا مدارس الشافعية بدمشق كالعادلية والظاهرية وان كانت مجرد اشارة الى الأسماء فقط دون التعرض بالتفصيل لوصفها وذكر بعض علماء مصر والاسكندرية وذكر أن مدارسها يعيبها الحصرلكثرتها . وابن جبير الرحالة العربى المشهور فى القرن الثانى عشر وصف مدارس بغداد وعد منها ثلاثين مدرسة وأهمها المدرسة النظامية التى أنشئت ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) وتم بناؤها فى عامين وكان التلاميذ يتلقون العلم بالمجان كما كانوا يحصلون على الطعام والعناية الطبية ويتناول كل منهم دينارا من الذهب كل شهر لنفقاته كما أشرنا سلفا ويرجع أن النساء كن أيضا يذهبن الى المدارس فى بعض الأحوال ذلك لأننا سمعنا عن اشتغال النساء بالتدريس[١] .

وفى عهد الأيوبيين والمماليك ازدهرت المدارس ونظم أجر المعلم وكان أجر المعلم فى أيام صلاح الدين الأيوبى أربعين دينارا للمعلم وعشرين ديناوا للمعيد وكان لكل يوم ستون رطلا من العيش عدا الكعك واللحم فى عيدى الفطر والأضحى وكان يطلق على أجر المعلمين وغيرهم فى أيام المماليك جامكية (جمع جوامك) وكانت أول مدرسة نظامية أنشئت فى القاهرة فى عهد الأيوبيين وهى المدرسة الناصرية التى بناها السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصورى وأتمها السلطان محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ وقد وصفها المقريزى فى خططه بأنها من أجمل مبانى القاهرة وبأنها من أعجب ما صنعته يد بشر .

وعمت حركة انشاء المدارس كل العالم الاسلامى ويذكر المؤرخون

---

(١) جلال مظهر : حضارة الاسلام ، ص ٢٦٧ .

أنه كان فى الصالحية وهى أحد أحياء دمشق قرابة ٣٦٠ مدرسة لتعليم مختلف العلوم من مختلف التخصصات التى كان لها شأن فكانت هذه المدارس داخلة فى نطاق الأوقاف الاسلامية يضاف اليها المستشفيات ، والبيمارستانات والملاجىء التى يأوى اليها ذوو العاهات وأصحاب الحاجات وكانت هذه المنشآت التعليمية والخيرية أحسن حالا وأكثر متانة ورونقا من قصور الأثرياء ذوى الجاه والسلطان آنذاك وشملت النهضة أيضا شمال افريقيا ومن أشهر المدارس هناك مدرسة القيروان السنية وفى مصر يذكر المقريزى أنه كان فى القاهرة وحدها ١٣ مدرسة .

وكانت طريقة التعليم فى هذه المدارس تختلف باختلاف الأماكن فكانت هناك الطريقة القيروانية والقرطبية والبغدادية والمصرية . وقد كتب ابن خلدون فى مقدمته فصلا ممتعا عن تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الاسلامية فى طرقه يقول ابن خلدون : « فأما أهل المغرب فمذهبهم فى الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف جملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه فى شىء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه فى الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة وهذا مذهب أهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر ... وأما أهل الاندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذى يراعونه فى التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتابة ولا تختص عنايتهم بالقرآن دون غيره بل عنايتهم بأكثر من جميعها الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة ... وأما أهل افريقية فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان اياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبعا لذلك . وبالجملة فطريقتهم فى تعليم

القرآن أقرب الى طريقة أهل الاندلس وأما أهل المشرق فيخلطون فى التعليم كذلك على مايبلغنا ولا أدرى بم عنايتهم منهـا والذى ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه فى زمن الشبيبة ، ولا يخلطون بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها فى مكاتب الصبيان واذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر على الاجادة » •

رابعا — المكتبات

لم يكن للمكتبات شأن كبير فى العصر الأموى ولكنها انتشرت فى العصر العباسى مع انتشار استخدام الورق فى نسخ الكتب وظهور كثير من الوراقين وانتشار حلقات الأدباء والعلماء •

كان استخدام الورق فى الكتابة معروفا فى البلاد الاسلامية منذ القرن الثامن الميلادى ويقال أنه نقل عن بلاد الصين التى عرفت الورق فى وقت مبكر وكان للمسلمين فضل ادخاله الى أوروبا اذ كانت الاندلس أول من عرف الورق من البلاد العربية فى منتصف القرن العاشر الميلادى فى حين لم تعرفه ألمانيا الا فى النصف الأول من القرن الثالث عشر وانجلترا فى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى •

وقد أنشىء أول مصنع للورق فى البلاد الاسلامية فى بغداد عام ٧٩٤ م على يد الفضل بن يحيى وزير هارون الرشيد وكان من الطبيعى أن يسهل ذلك تأليف الكتب وتداولها •

وقد حرص المسلمون على اقتناء الكتب تقديرا منهم لقيمة العلم ولم يبخلوا بالأموال فى شراء الكتب النفيسة القيمة يجلبونها من كل البـلاد •

وصارت المكتبات من أهم مراكز التربية والثقافة الاسلامية وكانت هناك مكتبات عامة فى المدن تقام لها أبنية خاصة أو تلحق بالمساجد

والمدارس والرباطات والبيمارستانات وكانت هذه المكتبات مفتــوحة لراغبى العلم يجلسون فى الأروقة المخصصة للاطلاع فقد كانت هناك حجرات خاصة لرواد المكتبة ، وحجرات خاصة للنساخ يقومون فيها بنسخ الكتب وكان أثاث المكتبات العامة متواضعا بسيطا اذ كانت تفرش أرضها بالبسط أو الحصر يجلس عليها القراء كما كان بالمكتبة خزانات للكتب وفهارس لها •

وكان يشرف على المكتبة خازن كان عادة من رجال العلم والأدب وكان هناك النساخ والمجلدون والمترجمون والخدم الذين يقومون بخدمة القــراء •

ومن أشهر المكتبات العامة مكتبة بيت الحكمة فى بغداد التى بناها هارون الرشيد وبيت الحكمة فى وقاده بشمال افريقيا ودار الحكمة بالقاهرة التى بناها الحاكم بأمر الله الفاطمى وسيأتى تفصيل الكــلام عنهــا •

وكانت هناك مكتبة الموصل التى أسسها بعض محبى الخير سنة ٩٥٠ م وكان الطلبة يتزودون فيها بالورق والكتب • ومكتبة الرأى كانت تضم عددا كبيرا من الكتب لدرجة أن فهارس كتبها وصلت الى عشرة أجزاء ، ومكتبة البصرة التى كانت تمنح معاشات شهرية للعلمــــاء المشتغلين فيها ومكتبة مرو وخوارزم التى يروى أن ياقوت الجغرافى الحموى قضى ثلاث سنوات فيها يجمع معلومات لمعجم بلدانه وكانت توجد فى معظم المدن دورعامة للكتب مفتوحة لطلاب العلم وكانت هذه المكتبات تعطى رواتب واعانات لمن يشتغلون فيها من الطلاب •

ولما قوض المغول بغداد كان يوجد بها ٣٦ مكتبة عامة وكانت هناك أيضا مكتبة القيروان ، بشمال افريقية التى كانت ملحقة بجامع القيروان وكان لها نفس نظام المكتبات فى الشرق الا أن أدوات الكتابة كان يصنع أغلبها بمدينة القيروان ، فكانوا يكتبون على جلود الخرفان المصقولة .

أو على ورق البردى المجلوب من الاسكندرية ، وفيما بعد كان يصنع الورق من خرق القماش البالى وكانت النساء تقوم بصنعه وتغطيته بطبقة من الغراء لتزيد تماسكه وصقله • وكان الحبر يصنع من الصمغ أو المواد الكيمائية وكانت المحابر تصنع من الخزف ، أو الزجاج أو النحاس وكانت الكتابة تجفف أحيانا بالرمل الناعم الملون •

وكانت توجد فى معظم المساجد العامة مكتبات عامة كما كانت هناك مكتبات خاصة يبنيها الأمراء فى قصورهم أو العلماء فى بيوتهم وكانت هذه المكتبات ضخمة جدا لدرجة أنه يروى أن الصاحب ابن عماد فى القرن العاشر كانت تضم مكتبته من الكتب ما يوازى كل الكتب التى كانت تضمها مكتبات أوربا مجتمعة فى ذلك الوقت كما يروى أيضا أن أحد أطباء العيون العرب رفض دعوة سلطان بخارى للاقامة ببلاطه لأنه كان يحتاج الى ٤٠٠ بعير لنقل مكتبته وعندما مات الواقدى ترك وراءه ستمائة صندوق مملوءة بالكتب يحتاج كل منها الى رجلين لنقله •

وهذا يدل على مدى اهتمام المسلمين باقتناء الكتب وجمعها وأحيانا ما كانوا هم أنفسهم يقومون باستنساخها • وكانت المكتبات الخاصة فى هذه الفترة مما لا يحصى ولا يعد •

وقد زخرت مكتبة قرطبة التى أنشأها الحاكم المستنصر فى مقره بقرطبة فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وكانت تضم بين خزائنها ٤٠٠ ألف مجلد فى وقت لم تعرف فيه الطباعة وكانت تحتوى على ١٤ مجلدا للفهارس وكانت تضم الباحثين والعلماء الذين كانوا يعملون لحساب الخليفة الأموى فى الأندلس وانتشروا فى جميع أنحاء العالم الاسلامى لجلب الكتب والمؤلفات وكان بها عدد كبير من الناسخين والمجلدين والمزخرفين •

خامسا — دور الحكمة :

شهد تطور الحركة الفكرية والثقافية فى العصر العباسى ميلاد

دور الحكمة التى كانت تعتبر مظهرا لما وصل اليه الرقى الفكرى كما ان اسمها يعكس مدى الاحترام الشديد للعلم باعتباره مفتاح الحكمة .

ويمكن القول مما يورده المؤرخون عن دور الحكمة انها كانت مركزا علميا للبحث والدراسة ولذا نجد بعض الكتابات تطلق عليها اسم الجامعة ولها من الجامعة وظيفة البحث والدراسة وبعضهم ينظر اليها على أنها دار للكتب والواقع أن هذا لا يقلل من أهمية دور الحكمة كمراكز للبحث والدراسة ، فمدرسة الاسكندرية التى كانت الحاضرة الثقافية والفكرية للعصر الهلينى بعد اثينا أخذت شهرتها ومكانتها من مكتبتها ومتحفها .

وما نريد أن نخلص اليه هنا أن دور الحكمة كانت مركزا للدراسة والبحث يقوم العلماء ومحبو العلم بالوفود اليها ليجدوا فى مكتبتها غايتهم كما كانت تدرس فى بعضها العلوم وكان يلحق ببعضها مساكن لاقامة الطلاب وكان يصرف لهم الغذاء والكساء .

وأهم دور الحكمة المعروفة بيت الحكمة فى بغداد وبيت الحكمة فى رقادة بشمال افريقية ودار الحكمة فى القاهرة وسنفصل الكلام عن كل واحدة منها فى السطور التالية :

(أ) بيت الحكمة فى بغداد :

وقد أسسها هارون الرشيد وجمع فيها الكتب المؤلفة والمترجمة وجعلها مركزا للترجمة والنقل وكان لها مدير يشرف على شئونها يسميه المؤرخون العرب صاحب بيت الحكمة . وتوسع المأمون فيها وألحق بها عددا كبير من أشهر علماء عصره ومترجميه وأصبحت مركزا للترجمة والنسخ والمطالعة والتأليف ، فكان يجتمع فيها القراء والمؤلفون للاطلاع على المصادر التى يريدون مراجعتها ويجتمع فيها المترجمون للترجمة وبين أيديهم الكتاب الحذاق يكتبون ما يملون عليهم والنساخ للنسخ فى أماكن خاصة بهم ينسخون لأنفسهم أو لغيرهم بالأجر .

وكانت بيت الحكمة أكبر خزائن الكتب فى العصر العباسى فظلت قائمة حتى هدم المغول بغداد سنة ٦٥٦هـ — ورموا بكل ما فيها من الكتب فى نهر دجلة والفرات •

(ب) بيت الحكمة فى رقادة[1] :

ومنها أيضا بيت الحكمة الذى بناه الأمراء الأغالبة بمدينة رقادة ، بشمال افريقية وأرادوا له أن يكون على غرار بيت الحكمة الذى أسسه العباسيون فى بغداد وينسب بناء بيت الحكمة الى ابراهيم الثانى الأغلبى الذى اشتهر بولعه الشديد بحب العلوم والحكمة ، وهو الذى أنشأ أيضا مدينة رقادة سنة ٢٦٤ هـ — ٨٧٨ م •

ومن المرجح أن بيت الحكمة كان ملحقا بقصر رقادة وكان يضم مجالس أو غرفا كثيرة بعضها للمكتبة وبعضها للنسخ وبعضها للدرس والمناقشة والمناظرة وبعضها للرصد وكانت هذه الغرف مفروشة بالحصر واللباد والبسط القيراونية الشهيرة • وكان للامير فيه سرير يجلس عليه ليشرف فيه على المناقشات والمناظرات التى كانت تدور بين العلماء فى حضرته • وكان محبو العلم والطلاب يفدون أيضا الى بيت الحكمة للاطلاع ونسخ الكتب وكان من يتولى الاشراف على بيت الحكمة يسمى « صاحب بيت الحكمة » كما أشرنا وكان أبو اليسر ابراهيم الشيبانى البغدادى تلميذ الجاحظ أول من تولى هذا المنصب وكان الى جانب هذا يقوم بتدريس الأدب فى بيت الحكمة وكان الأمراء الاغالبة يوفدون فى كل عام سفارة الى البلاط العباسى لتجديد العهد ورفع الخراج السنوى وكانوا يكلفون رئيس الوفد بأن يشترى لهم أنفس الكتب المؤلفة والمترجمة وأن يجلب الى رقادة فطاحل علماء العصر • وهكذا وجدت فى بيت الحكمة مصنفات فى جميع العلوم والفنون ومن مختلف الملل والنحل • كما وجد علماء أجلاء من مختلف أقطار العالم الاسلامى •

---

(١) المقريزى : الخطط ، ص ٢٥٥ .

ولما انقرضت دولة بنى الأغلب سنة ٢٩٦ هـ آل بيت الحكمة الى بنى عبيد الفاطميين الذين انتزعوا الملك منهم • وبهذا أصبح بيت الحكمة مركز اشعاع للدعوة الفاطمية الاسماعيلية وعندما أنشأ عبد الله المهدى الفاطمى مدينة المهدية سنة ٣٠٨ هـ بتونس نقل اليها بيت الحكمة بما كان فيها من أثاث ونفائس وكتب وأدوات وآلات الرصد فأفل نجم رقادة الى الأبد وتعطلت الرسالة الثقافية لبيت الحكمة وتحولت الى حركة اسماعيلية ، بعد أن شع بعلومه وثقافته طيلة أربعين عاما ولما انتقل الفاطميون الى القاهرة حملوا معهم ماتجمع لديهم من الكنوز والنفائس العلمية وهكذا كانت مكتبة بيت الحكمة فى رقادة النواة الأولى لمكتبة دار الحكمة التى بناها الفاطميون فى مصر ، كما كانت بيت الحكمة فى القيروان نواة المدرسة الطبية القيروانية الشهيرة التى انتشر تأثيرها طيلة ثلاثة قرون متتالية •

(ج) دار الحكمة بالقاهرة :

أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمى سنة ٣٩٥ هـ وقد كانت كما أرادها أروع من نظيرتها فى بغداد ويؤكد ذلك وصف المقريزى لها بأنها كانت من عجائب الدنيا[١] ولم يكن لها نظير فى الأمصار الاسلامية كما أنها حوت عددا من الكتب يزيد على المليون ونصف وضمت النفيس النادر من المخطوطات فى العلوم والآداب المختلفة ويروى أنها كانت تضم ستة آلاف كتاب فى الطب وحده • وكان فى هذه المكتبة خريطة جغرافية دقيقة مرسومة على الحرير وصورة لأقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها •

وقد أنفق عليها الحاكم بأمر الله بسخاء فأمدها بكل ما كانت تحتاجه من النساخين والورق والأقلام وكانت موئلا للعلماء والأدباء ،

---

(١) المقريزى : الخطط ، ص ٢٥٥ .

وظلت دار الحكمة قائمة حتى أيام صلاح الدين الأيوبى الذى هدمها وبنى عليها مدرسة للشافعية .

سادسا — حوانيت الوراقين :

وقد ظهرت فى مطلع الدولة العباسية وكانت تبيع الكتب الهامة كما كان الوراقون يقومون بنسخ الكتب الهامة فيها ، والى جانب هذا كانت تقوم بمهمة المكتبة العامة التى يفد اليها الناس للاطلاع وكانت تعقد بها المناقشات والمناظرات ، يشترك فيها الوراقون أنفسهم فقد كانوا على حظ من الثقافة والاطلاع ، وكانوا يحرصون على اجتذاب العلماء الى حوانيتهم ، وقد ارتبطت ظهور حوانيت الوراقين باختراع الورق للكتابة . ومع أن أصل صناعة الورق ترجع الى الصين منذ عام ١٠٥ م الا أن تطوير هذه الصناعة بحيث يستخدم فى أغراض الكتابة يرجع الى العرب ، وقد تأسست أول صناعة للورق فى بغداد سنة ٧٩٤م وذلك بفضل الفضل بن يحيى فى عصر الرشيد ومن بعدها انتشرت هذه الصناعة بسرعة فى جميع أنحاء العالم الاسلامى فدخلت سوريا ومصر وشمالى أفريقيا والاندلس .

ويقول القلقشندى فى صبح الأعشى : ان الرشيد أمر ألا يكتب الناس الا فى الكاغد (الورق) بعد أن كانوا يكتبون على اللخاف والرق . وقد سبق أن أشرنا الى أن أول مصنع للورق فى البلاد العربية الاسلامية أنشىء فى بغداد سنة ٧٩١م على يد الفضل بن يحيى وزير هارون الرشيد . وقد كان هذا الاختراع عاملا هاما فى انتشار الكتب فى كل مكان فى العالم الاسلامى .

ويورد العيقوبى أنه كان فى زمانه (٨٩١ م) أكثر من مائة وراق (بائع كتب) فى بغداد وأن محلاتهم كانت مراكز للنسخ والخطاطين والمنتديات الأدبية وكان كثير من طلاب العلم يكسبون عيشهم عن طريق نسخ المخطوطات وبيعها للوراقين .

سابعا : الرباطات :

يختلف معنى الرباطات فى الشرق الاسلامى عنه فى الغرب الاسلامى والرباطات جمع رباط ويقصد بالرباط فى الشرق الاسلامى البيوت التى كان يقيم بها الفقراء ويتفرغون للعبادة والتعليم ومنها رباط البغدادية للشيخة زينب البغدادية بنى ٦٨٤ هـ •• وكانت تسكنه مع عدد من النساء اللائى انقطعن للتعليم والعبادة •

أما الرباط فى المغرب الاسلامى • فهو ثكنة عسكرية محصنة ذات صحن واسع تحيط به غرف وقد يكون على طبق واحد أو على طبقين تعلوه صومعة مستديرة للاذان وخصوصا لمراقبة السواحل اتقاء الغارات البحرية الموجهة من طرف أساطيل الروم •

فالرباط حصن دفاعى أخذ تسميته من مرابطة المجاهدين فى سبيل الله فيه ، فكان هؤلاء المجاهدون يرابطون فيه ويقضون يومهم وليلهم فى العمل أو العبادة وجميع الرباطات فى المغرب العربى بنيت على ساحل البحر وكانت تتصل ببعضها بواسطة العلامات النارية أو الحمام الزاجل وكان لكل رباط من الرجال رباط للنساء ، يتعبدون فيه ويساعدون الرجال فى الأشغال الفلاحية وغيرها • وكان المرابطون يقومون بعدة أشغال منها صنع الورق والحبر وهما لازمان لما كانوا يقومون به من نسخ المصاحف وكتب الفقه والحديث• وكان المؤلفون وأصحاب التصانيف يعطون مؤلفاتهم الأصلية التى كتبوها بخط أيديهم الى الرباطات لتنسخ منها نسخ أخرى ويحتفظ بالأصل للرجوع اليه عند الالتباس ، وكان المرابطون يقومون بنسخ الكتب وتوزيعها على طلاب العلم مجانا •

وكان الرباط مدرسة يؤمها العلماء والطلبة وكان العلماء يرابطون فيها فترة من العام قد تكون شهرا ليدرسوا العلم احتسابا لوجه الله • كما كان الطبيب يرابط أيضا فترة من أجل مداواة المرضى ، وكذلك رجل البريد فالكل يرابط من أجل الجهاد فى سبيل الله وفى كل رباط مكتبة

مقامة فى الجدار على هيئة طاقات فى الحائط بها النسخ الأصلية والفرعية للمؤلفات والتصانيف • وأقدم الرباطات التى شيدها العرب بافريقية هو رباط المنستير ، الذى بناه الأمير هزيمة بن ايمن والى القيروان سنة ١٨١ هـ وهو ما زال قائما حتى اليوم ومن الرباطات الأخرى الموجودة حتى الآن رباط سوسة والرباط الأعلى والرباط الأسفل بتونس •

ثامنا ـ البيمارستانات والمستشفيات :

البيمارستانات كلمة فارسية مركبة من كلمتين : بيمار مريض وستان دار : فهى اذن دار المرضى وظلت هذه الكلمة تطلق على دور العلاج والمرضى حتى حلت محلها كلمة مستشفى عند انشاء مستشفى أبى زعبل فى مصر ١٨٢٥ م •

وكانت البيمارستانات أهم الأماكن لعلاج المرضى ودراسة الطب •

يقول المقريزى : ان أول من بنى البيمارستانات فى الاسلام الوليد بن عبد الملك وهذا خلاف ما ذكره ديورانت أن أول بيمارستان معروف لنا أنشىء فى بغداد أيام هارون الرشيد[1] •

وقد انتشرت دور الاستشفاء أو المستشفيات فى العالم الاسلامى تحصيها كتب التاريخ بثلاث واربعين دارا كانت منتشرة من فارس الى مراكش ومن شمالى سوريا الى مصر • وكان فى بغداد وحدها سنة ٩٣١ م ثمانمائة وستون طبيبا مرخصا وكانت أجورهم ترتفع حسب قربهم من بلاط الخلفاء • وقد حقق بعضهم ثروات هائلة فقد جمع ابن بختيشوع طبيب هارون الرشيد والمأمون والبرامكة ثروة تقدر بحوالى سبعة ملايين دينار • ويقول عنه المؤرخون انه كان يتقاضى من الخليفة

---

(١) ديورانت : قصة الحضارة (مترجم) ، ج ١٣ ، ص ١٩٠ .

مائة ألف درهم نظير حجامته مرتين فى العام ومثل هذا المبلغ لاعطائه مسهلا كل نصف عام •

وقد أسس ابن طولون أول مستشفى فى مصر سنة ٨٧٢ م ومن بعده كان هناك البيمارستان المنصورى الكبير الذى بنى ٦٨٣ هـ وكان من أشهر البيمارستانات وأنشأ نور الدين فى دمشق سنة ١١٦٠ م بيمارستانا ظل ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجر ويمدهم بالدواء من غير ثمن • ولما وفد ابن جبير الى بغداد سنة ١١٨٤ م دهش من بيمارستانها العظيم الذى كان يرتفع كما ترتفع القصور الملكية على شاطئ نهر دجلة • وكان يطعم المرضى ويعالجهم ويمدهم بالدواء من غير ثمن •

وربما يكون مستشفى السلطان قلاوون الذى تأسست بالقاهرة سنة ١٢٨٥ م أعظم مستشفيات العالم الاسلامى وأكثرها شهرة فى العصر الوسيط وقد أورد له المقريزى وصفا رائعا فى خططه (جـ ٤ ـ ص ٢٦٠) •

وكانت هذه البيمارستانات معدة ومنظمة جيدا فكان بها قسم للرجال وآخر للحريم وكل قسم مجهز بالآلات والعدد والمشرفين والخدم • وفى كل قسم قاعات لمختلف الأمراض •• قاعة للامراض الباطنية وأخرى للجراحة وثالثة للحاملة ورابعة للتجبير • وكان للبيمارستان صيدلية سميت « شرانجاز » فى العصر المتأخر ولها رئيس يسمى شيخ صيدلى البيمارستان •

وكان لكل بيمارستان رئيس أطباء يلقى دروسه على طلبة الطب ويأذن لمن أتم دراسته منهم وقدم رسالة فى فرع الطب الذى يختاره بممارسة المهنة ويعطيه ترخيصا كتابيا أو اجازة بذلك ولم يكن يجوز لأحد أن يمارس هذه المهنة الا اذا تقدم لامتحان يعقد لهذا الغرض •

الفصل السابع

أعلام التربية الاسلامية فى العصر الوسيط

مقـــــدمة :

سبق أن أشرنا الى تميز المرحلة الثانية من تطور التربية الاسلامية بظهور الآراء التربوية المتميزة وسنحاول فى الصفحات التالية أن نعرض لأهم آراء أعلام التربية فى الاسلام مبتدئين برائدهم ابن سحنون ،

ابن سحنون وآراؤه التربوية :

الاسم الكامل له هو محمد بن سعيد بن حبيب ، التنوخى القيروانى ولد بالقيروان بتونس سنة ٢٠٢ هـ ومات سنة ٢٥٦ هـ ودفن بجوار أبيه فى القيروان وقد نشأ ابن سحنون فى بيئة مثقفة متدينة فقد كان أبوه الامام سحنون عالما متدينا ذائع الصيت وقاضيا متنـــورا عادلا تولى القضاء فى عهد الأمير أبى العباس أحمد بن الأغلب وباشر الحســـبة والمظالم بنفسه واستحق أن يلقب بسراج القيروان وقد تلقى ابنه محمد العلم عنه وعن غيره من علماء عصره وارتحل الى الشرق حبا فى الاستزادة فى طلب العلم •

وقد ألف محمد بن سحنون كتبا كثيرة تزيد على العشرين مصنفا فى مختلف العلوم • الا أن شهرة ابن سحنون بالنسبة لدراسة التربية الاسلامية ترتبط بكتابه المعروف « آداب المعلمين » الذى نشر ١٣٤٨هـ ــ ١٩٢٩ م وقامت بنشره اللجنة التونسية بنشر المخطوطات العربية على أساس نسخة خطية من مخطوطات يرجع تاريخها الى القرن الثـــامن الهجرى .

وقد نسب ابن خلدون فى مقدمته هذا الكتاب خطأ الى محمد بن أبى زيد والكتاب نفسه صغير الحجم عظيم القدر فهو يقع فى اثنتى عشرة صفحة فى النسخة الخطية و٢٦ صفحة فى النسخة المنشورة وقد نقل ابن سحنون هذا الكتاب عن أبيه كما يتضح من التذييل المكتوب فى نهاية الكتـاب وكما يتضـــح أيضا من محتويات الكتاب نفسه • ويتضمن الكتاب عشرة أبواب على الترتيب هى :

١ — ما جاء فى تعليم القرآن العزيز •

٢ — ما جاء فى العدل بين الصبيان •

٣ — باب ما يكره محوه من ذكر الله تعالى •

٤ — ما جاء فى الأدب ما يجوز فى ذلك وما لا يجوز (العقاب) •

٥ — ما جاء فى الختم وما يجب فى ذلك للمعلم (من حيث الأجر)•

٦ — ما جاء فى القضاء بعطية العيد •

٧ — ما ينبغى أن يخلى الصبيان فيه (العطلات المدرسية) •

٨ — ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان •

٩ — ما جاء فى اجازة المعلم ومتى تجب (أجر المعلم) •

١٠ — ما جاء فى اجارة المصحف وكتب الفقه وما شابهها •

وهناك تداخل أحيانا وتكرار أيضـــا فى الآراء التى يوردها ابن سحنون تحت هذه العناوين بل انه قد يرد تحت العنوان كلام لا يدخل فى بابه أو موضوعه •

وفى ضوء هذا التنبيه وهذه الاشـــارة ســـنعرض لأهم الآراء والمبادىء التى أوردها ابن سحنون تحت هذه العناوين مع التـــزامنا بترتيبها كما أوردها ولا يعتبر ذلك نقدا لابن سحنون أو تقليلا لأهمية الآراء التى أوردها فهو صاحب فضل وسبق كبير باعتباره أول من ألف فى التربية الاسلامية من العرب والمسلمين فلم يرد قبله كتـــاب تناول

هذا الموضوع • وهو بهذا يعتبر رائدا فى الكتابة فى التربية الاسلامية• وقد اعتمد عليه من ألف بعده فى نفس الموضوع ومنهم القابسى فى رسالته عن أحوال المعلمين والمتعلمين ، بل ان القابسى كان ينقل أحيانا نقلا حرفيا عن ابن سحنون وأحيانا أخرى كان ينقل بتصرف فى العبارة دون اخلال بالمعنى •

اهم الآراء التى وردت فى رسالة ابن سحنون :

لا يورد ابن سحنون آراء وأحكاما مستقلة تعبر عن رأيه وانما يورد هذه الآراء منسوبة الى الأحاديث النبوية أو القرآن الكريم أو الروايات المدققة •

فضل تعليم القرآن وتعلمه :

كان أول ما أكده ابن سحنون فضل تعلم القرآن الكريم وتعليمه ويقتبس لذلك أحاديث للنبى كقوله صلى الله عليه وسلم :

« أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه » • « ويرفع الله القرآن أقواما » وأن لله أهلين من الناس : حملة القرآن هم أهل الله وخاصته « ومن قرأ القرآن باعراب فله أجر شهيد » •

العدل بين الصـــبيان :

فى اشارته الى عدل المؤدب بين الصبيان يورد ابن ســـــحنون حديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى يقول : « أيما مؤدب ولى ثلاثة صبية من هذه الأمة فلم يعلمهم بالسوية فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين » •

ما يكره محوه من ذكر الله تعالى :

يستدل ابن سحنون فى الكلام عما يكره محوه من ذكر الله تعالى بما ورد عن أنس بن مالك قوله : « اذا محت صبية الكتاب » ، « تنزيل

رب العالمين » من ألواحهم بأرجلهم نبذ المعلم اسلامه خلف ظهره ثم لم يبال حين يلقى الله على ما يلقاه عليه .

ويورد على لسان انس تفسيره للطريقة التى كانت تمحى بهـــا الألواح وما عليها من القرآن أيام الخلفاء الأربعة فيقول كان للمؤدب « اجانه » وكل صبى يأتى يوم نوبته بماء طاهر يصعبه فيها ، وتمحى الألواح بغمســها فى الأجانة المملوءة بالماء الطاهر ثم يوضع الماء بعـد الانتهاء من غسل الألواح فى حفرة فى ارض يصب فيها لينشــف كما يمكن مسح الألواح بلعقها أو بمسحها بالمنديل وما أشبهه .

ما يجوز فى الأدب وما لا يجوز :

يورد ابن سحنون تحت هذا العنوان روايات تتضمن أقوالا للنبى صلى الله عليه وسلم تحدد مدى ما يجوز للمعلم فى عقاب الصــبيان وتأديبهم منها قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يضرب أحدكم أكثر من عشرة أسواط الا فى حد » وقوله صلى الله عليه وسلم : « أدب الصبى ثلاث درر فما زاد عليه قوصص (من القصاص) يوم القيامة » .

وهذا يعنى أن ضرب المعلم الصبى يجوز بين ثلاث درر ولا يزيد عن عشرة عند تأديبهم على اللعب والبطالة ، ويكون التأديب بهــــدف منفعتهم لا بسبب غضب المؤدب . ولا يجوز للمؤدب أن يزيد فى ضربه على ثلاث درر فى تأديب الصبى على قراءة القرآن ، ويجب أن يكون التأديب على قدر الذنب دون اسراف .

وفى ختمة القرآن وما يجب للمعلم :

يفهم مما يورده ابن سحنون أن ختمة القرآن تكون اما بحفظ القرآن كله أو معظمه أو نصفه أو ثلثه أو ربعه ويكون ذلك حسب قدرة المتعلم ولا يجوز للمعلم أن يحمل المتعلم فوق ما يريد أن يحفظه من

القرآن الا بأذن أبيه • كما يجوز للمعلم أن يأخذ هدايا من الصبيان فى مناسبة الختمة وفى الاعياد فقط ولا يجوز له أن يأخذ منهم هدايا فيما عدا ذلك الا باذن الآباء •

وفى عطية العيد :

لا يجوز للمعلم أن يكلف الصبيان فوق أجره شيئا من هدية أو غير ذلك ، وحرام عليه أن يقبل منهم هدية سألهم عليها ولا جناح عليه أن يقبل الهدية اذا جاءت منهم بدون سؤال ولا يجوز له أن يعاقبهم أو يهددهم على عدم اهدائهم كما لا يحل له أن يخليهم اذا أهدوا له لأن التخلية داعية الى الهدية وهو أمر مكروه •

وفيما ينبغى أن يخلى الصبيان فيه :

يفهم مما يذكره ابن سحنون أن أجازة الصبيان فى الأعياد تكون من يوم الى ثلاثة فى عيد الفطر ومن ثلاثة أيام الى خمسة فى عيد الأضحى ، ولايجوز للمعلم أن يرسل أحدا من صبيانه فى طلب من تغيب منهم الا بأذن أولياء الأمور الا أن تكون الأماكن قريبة لا تلهى الصبى عن دراسة وعليه أن يتعهد المتغيبين من الصبيان بنفسه وأن يخبر آبائهم بتغيبهم • ومن الأفضل ألا يكلف أحد صبيانه فى القيام بالضرب وألا يجعل لهم عريفا عليهم الا اذا كان قد ختم القرآن وعرفه وأصبح مستغنيا عن التعليم فلا بأس من أن يستعين به فى التعليم لما في ذلك من منفعة للصبى وله أن يستأذن والده فى ذلك • ويجوز له أن يستأجر من يعينه اذا كان فى مثل كفاءته •

ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان :

مما يورده ابن سحنون تحت هذا العنوان ما يلى :

١ — لا يحل للمعلم أن ينشغل عن الصبيان وهو يقوم بتعليمهم اللهم فى الأوقات التى تتخلل عمله فلا بأس من أن يتحدث وهو يتفقدهم وعينه عليهم •

٢ — يعرض ابن سحنون لتحريم رمى الفاكهة على الناس عند الاحتفال بختم القرآن لأن ذلك يعتبر طعاما نهبة وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن أكل الطعام النهبة .

٣ — يجب على المعلم أن يتفرغ لتلاميذه ولا يترك عمله للصلاة على الجنائز الا فى حالات الضرورة ولا يجوز له أن يترك عمله للسير فى الجنائز أو عيادة المرضى .

٤ — ينبغى أن يخصص المعلم لتلاميذه وقتا لتعليم الكتاب وينبغى أن يعلمهم اعراب القرآن والشكل والهجاء والخط الحسن والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل أما تعليم الحساب والشعر والعربية والنحو فتعليمها ليس واجبا عليه الا اذا اشترط عليه ذلك .

٥ — لا يجوز للمعلم أن يضرب الصبى على رأسه أو وجهه ولايجوز له أن يمنع من طعامه وشرابه اذا أرسل فى طلبه .

٦ — لايجوز للمعلم أن يوكل تعليم الصبية لبعض بل يجب أن يتولى ذلك بنفسه .

٧ — لا يجوز للمعلم أن ينشغل عن الصبيان بأن يكتب لنفسه أو لغيره كتب الفقه الا بعد انتهاء الصبيان من القراءة .

٨ — على المعلم أن يحضر الدرة والفلقه وعليه أيضا استئجار الحانوت وليس على الصبيان شىء من ذلك كله ولكن اذا استأجر الآباء المعلم على تعليم الصبيان لمدة سنة فعليهم استئجار المكان للمعلم .

٩ — على المعلم أن يختبر مدى تقدم صبيانه فى التعليم وأن يخصص وقتا معلوما لمراجعة حفظ القرآن مثل عشية الأربعاء ويوم الخميس وأن يعفيهم من الحضور للدراسة يوم الجمعة .

١٠ — لا يجوز للمعلم أن يعلم صبيانه قراءة القرآن بالألحان والغناء لأنه مكروه .

١١ — من الاشارات الطريفة عن المعلمين لأبن سحنون قوله انهم كانوا يسرون بوقوع الحبر على ثيابهم دلالة على اجتهادهم الشديد فى تعليم الصبيان ٠

١٢ — يجعل المعلم وقت الدراسة بالكتاب من الضحى الى وقت الظهر ، (الانقلاب) ٠

١٣ — يجوز للمعلم أن يجعل صبيانه يملى بعضهم بعضا لما فى ذلك من منفعة لهم ويجب أن يتفقد املاءهم أو يفحصها ٠

١٤ — لا يجوز للمعلم أن ينقل الصبى من سورة الى سورة الا اذا حفظها باعرابها وكتابتها ٠

١٥ — لا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان فى قضاء حوائجه ٠

١٦ — يجب على المعلم أن يأمر الصبى بالصلاة اذا كان ابن سبع سنين ويضربه عليها اذا كان ابن عشر ٠ وعليه أن يعلمهم الوضوء والصلاة لأنها من تمام دينهم ويعلمهم أيضا سنن الصلاة ، والابتهال الى الله ٠

١٧ — لا يجوز تعليم الصبيان فى المسجد لأنهم لا يحتفظون من النجاسة ولم ينصب المسجد لتعليم الصبيان ٠

١٨ — لا يجوز للمعلم أن يعلم أولاد النصارى القرآن ٠

١٩ — من المكروه تعليم الجوارى باختلاطهن بالغلمان لأن ذلك فساد لهم ٠

٢٠ — على المعلم أن يؤدب الصبيان اذا آذى بعضهم بعضا ٠

٣١ — اذا أدب المعلم الصبى الذى يجوز له تأديبه فأخطأ ففقأ عينيه أو أصابه فقتله كان على المعلم الكفارة فى القتل والديه اذا جاوز حد التأديب الى القسوة واذا لم يجاوز المعلم الحد فلا دية عليه ٠ واذا ضرب المعلم الصبى بشىء غير مسموح به فقتله فعلى المعلم القصاص ٠

ما جاء فى اجازة المعلم ومتى تجب :

من أهم المبادىء التى أوردها ابن سحنون تحت هذا العنـــوان ما يأتى :

١ — يجوز أن يؤجر المعلم شهريا أو سنويا أو يدفع له الأجــر حسب الاتفـــاق .

٢ — يستحق المعلم الأجر المتفق عليه ولو كان لمدة سنة فى حالة مرض الصبى أو خروجه مع والده فى سفر .

٣ — يجوز أن يستأجر المعلم لجماعة من الصبيان اذا تراضى الآباء بذلك ويقوم كل منهم بدفع نصيبه .

٤ — يمنع المعلم من التعليم اذا عرف عنه التفريط أو التقصــير فى تعليم تلاميذه .

٥ — يجوز للمعلم أن يعلم مع صبيان استؤجر على تعليمهم صبيانا آخرين بحيث لا يضر بتعليمهم .

ما جاء فى اجازة المصحف وكتب الفقه :

من أهم المبـــادىء التى أوردها ابن ســـحنون تحت هذا العنوان ما يأتى :

١ — يجوز أن يستأجر المصحف للقراءة فيه كما يجوز بيعه لأن ما يباع هو الحبر والورق .

٢ — ويجوز أيضا اجارة كتب الفقه وبيعها اذا علم من استأجرها واشتراها .

القابسى وآراؤه التربوية :

الاسم الكامل للقابسى هو أبو الحسن على بن محمد خلف المعافرى المعروف بالقابسى ولد بالقيروان سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) وبها تربى

وتعلم وعلم وبها مات ودفن سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ويرجع نسبه القابسى على الأرجح الى قرية المعافرين التى ينتسب اليها وكانت ضاحية من ضواحى تونس •

وكان القابسى عالما ضريرا فقها ورعا • وله مؤلفات كثيرة تصل الى ١٥ كلها فى الفقه والحديث والمواعظ باستثناء واحد أفرده القابسى لشئون التعليم فى الاسلام هى رسالته المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين • وقد صنفها فى النصف الثانى من القرن الرابع وضاع الأصل وبقيت منه نسخة خطية فريدة ترجع الى عام ٧٠٦ هـ وهى محفوظة بالمكتبة القومية بباريس ومكتوبة بخط مغربى جميل •

وهذه الرسالة أكبر فى حجمها من رسالة ابن سحنون وقد تأثر بما كتبه ابن سحنون ونقل عنه نقلا حرفيا فى بعض الأحيان كما سبق أن أشرنا كما نقل أيضا عن الفقهاء الذين أخذ عنهم سحنون كابن القاسم وابن وهب الا أن للقابسى فضل التوسع والاستفاضة فى الأبواب والمعالجة •

آراء القابسى التربوية :

تصدى القابسى فى رسالته الى الكلام عن تعليم الصبيان من حيث أغراضه ومناهجه وطرق تدريسه وأماكنه ومراحله كما تحدث عن بعض الأحكام الخاصة بالمعلم • وقد تناول القابسى فى الجزء الأول من رسالته فضل تعلم القرآن وتعليمه وهو بهذا يشترك مع ابن سحنون بل انه ينقل نفس الأحاديث النبوية الا أنه يتوسع فى الكلام •

الغرض من التعليم معرفة الدين علما وعملا :

ويجعل القابسى من تعليم القرآن غرضا هاما لتعليم الصبيان • فالقرآن ضرورة لمعرفة الدين والصلاة لا تتم الا بقراءة شىء من القرآن وهى مفروضة على المسلمين لأنها ركن من أركان الدين وهو يتفق مع

غيره من علماء المسلمين فى أن الغرض الأول من تعليم الصبيان هو معرفة الدين علما وعملا أو نظرا وتطبيقا وممارسة •

وجوب تعليم الصبيان :

ويتعرض القابسى لقضية لم ترد عند ابن سحنون وهى قضية القول بضرورة تعليم جميع الصبيان فتعليمهم واجب وجوبا شرعيا وهو يدلل على هذا الوجوب بوجوب معرفة القرآن والعبادات وأن ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ولذا كان التعليم واجبا لأنه شرط معرفة القرآن والعبادات • وهكذا نجد بذور فكرة التعليم الاجبارى الالزامى عند القابسى وقد كان صريحا كما كان جريئا فيها • وقد استقر هذا المبدأ عند فقهاء المسلمين فيما بعد عندما أصبح طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة •

وتقتضى ضرورة تعليم الصبيان أن يكون الوالد مكلفا بتعليم ابنه بنفسه فان لم يستطيع فعليه أن يرسله لتلقى العلم بالأجر فاذا لم يكن قادرا على ذلك قام بالتكليف أقرباؤه فاذا عجز الأهل عن نفقة التعليم قام بها المحسنون أو قام معلم الكتاب بتعليم الفقراء احتسابا لوجه الله أو دفع لهم الحاكم أجر تعليمهم من بيت المال وهكذا يتحقق تعليم كل المسلمين بصرف النظر عن الغنى أو الفقير •

تعليم البنت حق :

يعترف القابسى بحق البنت فى التعليم انطلاقا من أن التكاليف الدينية واجبة على الرجل والمرأة وهو بهذا يتفق مع روح الاسلام الحقيقية التى جعلت من طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة على حد سواء • الا أنه ذهب الى عدم الخلط بين الصبيان ، والاناث وهو مبدأ سبق أن أكده ابن سحنون لاعتبارات أخلاقية وينبغى أن تعلم البنت ما فيه صلاحها ويبعدها عن الفتنة •

منهج الدراسة :

يذهب القابسى الى أن الغاية الدينية هى التى تحدد العلوم التى يدرسها الصبيان وأول هذه العلوم حفظ القرآن وقراءته وكتابته ونطقه وتجويده • وتعليم الحساب والمواد الأخرى فى نظره ليس بشرط لازم وهو بهذا أيضا يتفق مع ابن سحنون •

الدين أصل الأخلاق :

يعتبر القابسى الدين أصل الأخلاق فالدين أساس التربية الخلقية فى الاسلام • لذلك يجب أن يعمل التعليم على تهذيب الأخلاق وأساس الأخلاق عنده الضمير الخلقى الحى المستمد من الدين الذى يعتمد على ما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم عندما سئل ما الاحسان قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فهو يراك » ويكون اكتساب الأخلاق عن طريق التعليم والقدوة • ولذلك كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ذات فائدة تعليمية خلقية عظيمة • قال تعالى : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » • وقال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر »•

الفضائل والرذائل :

ان الفضائل من تمام كمال الانسان وقد تنبه القابسى الى أثر تكوين العادة فى اكتساب الفضائل لدى الانسان ولذا يوصى المعلم بتوجيه الصبيان الى العادات الحسنة وابعادهم عن العادات الرذيلة وأول الصفات الطيبة التى يتحلى بها الصبيان فى نظرة الطاعة وهى ليست واجبة عليهم نحو المعلم فحسب بل هى واجبة نحو الله والرسول •• وأولى الأمر كما جاء فى القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » •

ومن الصفات الطيبة النظام • فالفوضى مفسدة للصبيان ويقتضى النظام من الصبيان الانتظام فى الحضور وعند الانصراف من الدرس

والتحلى بالنظام فى الدرس والأعمال المدرسية والعبادات الاسلامية خير ما يعود الانسان على الطاعة والنظام ولذا كانت ممارستها واجبة.

والمعلم مطالب بتعليمها للصبيان باعتبارها أصل الفضائل وعصمة من الرذائل •

الرفق بالصبيان :

ان العقوبة مشروعة فى الاسلام وجعل لنا فى القصاص حياة وقد أقر القابسى مبدأ عقاب الصبيان لكنه يترفق معهم تمشيا مع روح الاسلام التى تتسم بالرحمة والعفو وينزل المعلم من الصبى منزلة الوالد وطالبه بأن يكون رفيقا به عادلا فى عقابه غير متشدد فيه ومن الرفق ألا يبادر المعلم الى العقاب اذا أخطأ الطفل وانما ينبهه مرة بعد أخرى فاذا لم ينتصح لجأ الى العقاب ، وقد نهى القابسى عن استخدام أسلوب الحرمان من الطعام والشراب فى العقاب بل طلب من المعلم أن يترفق بالصبيان فيأذن لهم بالانصراف الى تناول الغذاء من طعام وشراب ثم يعودون وهذا يعنى أن الدراسة بالكتاب كانت تمتد الى العصر ونهى القابسى عن الانتقاب فى العقاب ولذا نهى المعلم عن ضرب الصبيان فى حالة الغضب حتى لا يكون « ضرب أولاد المسلمين لراحة نفسه » •

وأشار القابسى الى اتباع أسلوب الترغيب والترهيب فى معاملة الصبيان • فأقر الضرب كعقوبة الا أنه اشترط لها شروطا من أهمها :

١ — لا يوقع المعلم الضرب الا على ذنب •

٢ — أن يكون العقاب على قدر الذنب •

٣ — أن يكون الضرب من واحدة الى ثلاث ، ويستأذن ولى الأمر فيما زاد عن ذلك •

٤ — أن يقوم المعلم بالضرب بنفسه ولا يوكله لواحد من الصبيان•

٥ — أن يكون الضرب على الرجلين ويتجنب الضرب على الوجه والرأس أو الأماكن الحساسة من الجسم .

٦ — أن آلة الضرب هى الدرة أو الفلقة ، ويجب أن يكون عود الدرة رطبا مأمونا وهذه نفس الشروط تقريبا التى أشار اليهـا ابن سحنون من قبل .

نظـام الدراسـة :

ان نظام الدراسة الذى أشار اليه القابسي يقوم على أسـاس الدراسة طول أيام الأسبوع باستثناء يوم الجمعة والنصف الثانى من يوم الخميس ويخصص مساء الأربعاء وأول يوم الخميـس للمراجعة والتدقيق من جانب المعلم للصبيان وتكون الدراسة فى أول النهار حتى الضحى مخصصة للقرآن الكريم ومن الضحى الى الظهر لتعليم الكتابة وعند الظهر ينصرف التلاميذ لتناول الغذاء ثم يعودون بعد صلاة الظهر حيث يدرس الصبيان فيما يتبقى من النهار بقية العلوم كالنحو والحساب والشعر . وهو يتفق فى كثير من هذه الأمور مع ابن سحنون .

النهى عن تعليم غير المسلمين :

يتفق القابسى مع ابن سحنون فى النهى عن تعليم غير المسلمين فى الكتاتيب والنهى أيضا عن تعليم أبناء المسلمين فى المدارس النصرانية ومن الواضح الأساس الذى بنى عليه هذا النهى .

المعـلم :

اقتصر القابسى فى رسالته على الكلام عن معلمى الكتاتيب الذين يتصلون بأولاد العامة وذاع عنهم الحمق فقيل فى المثل : « أحمق من معلم الكتاب » وهكذا وصفوا بالحمق وقلة العقل ولم تقبل شهادتهم . وقد انتصر الجاحظ لمعلمى الخاصة وهم المؤدبون الذين كانوا أكثـر احتراما من معلمى الصبيان . ولعل هذه الوصمة لحقت بمعلمى الصبية

من جراء العناصر الوضيعة التى اشتغلت بالمهنة والممارسات السيئة التى عرفت عنهم مما يتضح مما نهى القابسى المعلمين عنه ولم تكن هناك شروط يسمح للمعلم بناء عليها بمزاولة المهنة • ولكن كان الأمر يعتمد على الشعور بالقدرة فمن آنس فى نفسه المقدرة على التعليم جاز له ذلك ، وقد اشترط القابسى فى المعلم معرفة القرآن والنحو والشعر وأيام العرب الى جانب شخصيته الدينية وسمعته الطيبة وهو بهذا يتفق مع ابن سحنون ويتفق معه أيضا فى مطالبة المعلم بعدم الانشغال عن تعليم الصبيان وعدم طلب الهدايا منهم أو ارسال تلاميذهم فى قضاء حوائجهم والحصول على طعام باسمهم فى مناسبات الأفراح أو احضار الطعام والحطب من بيوتهم •

ولا يجوز للمعلم أن يترك عمله للصلاة على الجنازة أو السير فيها أو عيادة المرضى أو حضور شهادة البيع والنكاح • وربما من هنا جاءت فكرة عدم قبول شهادة معلم الصبية لا لنقص فيه ولكن لأنه منهى عن الانشغال عن التعليم وهو واجبه بأعمال أخرى •

وواضح أوجه الاتفاق والشبه الكبير بين ما يقوله القابسى وما ذهب اليه ابن سحنون ، وكلاهما يتفقان أيضا على أن يأخذ المعلم أجرا نظير عمله اما مشاهرة أو مساناة وأعطى للمعلم سلطة كبيرة على الصبى تساوى سلطة الوالد ، ولكنه حمل المعلم المسئولية والنتيجة النهائية لعمله وليس له أن يعتذر عن فساد النتيجة بنقص سلطته أو القاء اللوم على الصبيان • ولهذا صح عقاب المعلم ومحاسبته على التقصير فى أعماله ، وقد يصل العقاب الى حد منعه من الاشتغال بالتعليم •

الغزالى وآراؤه التربوية

من المرجح أن أبا حامد الغزالى ولد بطوس من أعمال خراسان ببلاد فارس سنة ٤٥٠ هـ ــ ١٠٥٨ م وأنه توفى سنة ٥٥٥ هـ ومن المرجح أيضا أن تسميته بالغزالي ترجع الى مهنة والده وهى غزل الصوف ، وهناك من يقول انها نسبة الى غزالة وهى باد ينسب اليها . ويعتبر الغزالى من أكبر مفكرى الاســلام المدافعين عنه ولذا سمى بحجة الاسلام ، وقد كان للنشأة الأولى أثر كبير على تربية الغزالى وتكوين شخصيته . فقد كان أبوه محبا للعلم وعندما مات تولى أمر تربيته أحد المتصوفين من أصدقاء والده ، وكان له تأثير كبير على تفكير الغزالى على ما يبدو . كما درس فى نيسابور على الامام الجوينى الملقب بامام الحرمين ، وصار من أكبر فقهاء الشافعية .

وقد درس علم الكلام والحكمة والفلسفة وقرأ للفارابى وابن سينا وغيرهما . ويقول الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال انه لا يوجد فيلسوف لم يدرس منهاجه ولا متكلم لم يتتبع كلامه ولا صوفى لم يخض فى أسراره . وقد قام بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد عندما رحل اليها سنة ٤٨٤ هـ وكان عمره ٣٤ سنة واستمر بالتدريس بها طيلة أربع سنوات زهد بعدها فى الدنيا وآثر العزلة ورحل الى البلد الحرام حاجا وباحثا عن الاشراق والوجد . وذهب بعدها الى دمشق حيث اعتكف للزهد والتصوف فترة من حياته لكنه عاد أخيرا الى وطنه « طوس » واشتغل بتأليف الكتب . وقد ترك الغزالى ما يزيد عن سبعين مؤلفا فى الدين والفلسفة والجدل . ويبرز من بينها جميعا كتابه « احياء علوم الدين » الذى يدل على عبقريته ونفاذ بصيرته وقد عرض فى هذا الكتاب آراءه فى التربية والتعليم وفى الأخلاق الحقة . وقد بين فى مقدمة الكتاب سبب تأليفه له فقال « ان طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه فى كتابه فقها وحكمة وعلما

وضياء ونورا وهداية ورشدا قد أصبح بين الخلق مطويا وصار نسبا منسيا • ولما كان هذا ثلما فى الدين مهما وخطبا مدلهما رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب احياء لعلوم الدين وكشفا عن مناهج الأئمة المتقدمين وايضاحا لمناحى العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين » •

وقد قسم كتاب الاحياء الى أربعة أجزاء أو أقسام : الربع الأول خاص بالعبادات وقد ذكر فيه آدابها وسننها وأسرار معالجتها • والربع الثانى خصصه للعادات وقد احتوى على أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ودقائق سننها وخفايا الورع فى مجاريها • والربع الثالث خاص بالمهلكات وعرض فيه الى الأخلاق المذمومة من حيث حدها وحقيقتها والأسباب التى تتولد عنها والآفات التى تترتب عليها والعلاقات التى تعرف بها وطرق معالجتها وتزكية النفس عنها وتطهير القلب منها • وخصص الربع الأخير للمنجيات وفيه عرض للاخلاق الحميدة والخصال المرغوبة • وقد اعترف صراحة بأنه نقل عن ابن مسكويه فى كتابه تهذيب الأخلاق • ويقول زكى مبارك انه نقلا حرفيا عن أبى طالب المكى والمحاسبى وغيرهم من رجال الصوفية[1] • كما أنه تأثر بفلاسفة الاغريق لا سيما أفلاطون ونقل عنهم •

الغزالى والتربية :

تناول الغزالى موضوع التربية بفكر واضح يبدو فيه تأثره بأرسطو وأفلاطون ، ففى كلامه عن الفضيلة يقول انها الاعتدال والتوسط بين أركان النفس الأربعة وقواها وهى :

— قوة الغضب واعتدالها الشجاعة •

— قوة الشهوة واعتدالها العفة •

---

(١) زكى مبارك : الأخلاق عند الغزالى ، ص ٥٨ .

ــ قوة الحكمة والافراط فيها مضر •

ــ قوة العدل والافراط فيها أيضا مضر •

وفى كلامه عن القلب يخلط بينه وبين النفس والعقــل ويقــول عنه « انه لطيفة ربانية روحانية لها تعلق بالقلب وهذه اللطيفـــة هى حقيقة الانسان لأنها الجزء المدرك فيه » •

وفى كلامه عن العقل يقول عنه « انه القلب نفسه أو تلك اللطيفة الربانية ويقول عنه أيضا انه صفة للقلب لأنه جزء من النفس الناطقة ، التى تنقسم الى عقل عملى يرتبط بالدوافع والانفعالات والقوى المحركة للجسم ، وعقل نظرى هو آلة الادراك •

وتأثر من ناحية أخرى بابن مسكويه فى كتابه تهذيب الأخــلاق الذى تأثر فيه بدوره بالفلاسفة الاغريق ولكن الغزالى حاول المزاوجة والتوفيق بين من نقل عنهم وبين الاسلام ويشير فى قوله عن الحكمة قول الله عز وجل : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » •

المعــرفة عند الغزالى :

تناول الغزالى الكلام عن المعرفة ولها فى نظره صفتان رئيسيتان :

(أ) أنها نسبية :

فقد ذهب الغزالى الى القول بأن المعرفة نسبية وهى تستند الى الأمثلة المألوفة الملموسة فيقول : هب أن نفرا من العميان لم يروا الفيل قط بل ولم يعرفوا له وصفا وفى يوم علموا بمجىء هذا الحيوان ويودون تكوين فكرة عنه ، فيتحسسون هذا الحيوان • ويقع أحدهم على رجل الفيل ، والآخر على نابيه والثالث على أذنه • ثم يطلب منهم أن يصفوه فيقول أحدهم أن الفيــل شبيه بالعامود ويرفض الثانى هــذا الرأى ويقول مؤكدا أن الفيل كالوتد ويذهب الثالث الا أن الفيل كالخيمة الكبيرة•

وهكذا يصف كل منهم الفيل حسب العضو أو المكان الذى لمسه والحق بجانب كل واحد منهم لأن كل منهم صدق فى قوله ولكن غاب الكل عن علمهم وهذا صحيح بالنسبة الى معظم المسائل التى نبحثها •

(ب) أنها فوق العقـــل :

قال الغزالى بأنه ليس من الضرورى أن تكون كل الحقائق بما يؤديها العقل فهناك من الحقائق ما يعجز ادراكنا عن الوصول اليها • وليس مما يخالف الصواب فى نظره وجود افتراض قائل بوجود دائرة أخرى فوق دائرة العقل وان شئت فقل دائرة التجلى الربانى • ونحن وان كنا نجهل سنن تلك الدائرة ونواميسها جهلا تاما فاننا نجد الكفاءة فى قدرة العقل على الاعتراف بامكانتها •

الادراك عند الغـــزالى :

وفى كلام الغزالى عن الادراك يقسمه الى ادراك حسى أو ادراك معنوى أو نفسى والادراك الحسى يتعلق بالعالم المادى ويدرك بالحواس أما الادراك النفسى فيتعلق بالعالم الخفى عالم الملك والملكوت الا أن الادراك النفسى محدد بقيود الجسم ولذا يجب أن يتحرر منها بالتطهر الجسمى والمادى • وواضح مدى تغلب النزعة الصوفية على فكر الغزالى فى هذا التفســـير •

الاخلاق عند الغزالى :

دون الغزالى علم الأخلاق وفلسفته فى كتابه احياء علـــوم الدين والكتب المشابهة له مثل كتاب « كيمياء السعادة » الذى ألفه باللغـــة الفارسية وهو لا يختلف عن كتاب « الاحياء » شكلا أو موضوعا غير أنه يختصر فيه الموضوعات التى يفصلها فى الاحياء •

ويقوم علم الأخلاق عند الغزالى على روح اسلامية صوفية • وقد

أطلق عليه أسماء متعددة مثل علم طريق الآخرة وعلم صفات الأخلاق وأسرار معاملات الدين وأخلاق الأبرار • ويقصد به تكييف النفس الى ما رسمته البشرية وخططه رجال المكاشفة من علماء الاسلام ومن سبقهم من الأنبياء والصديقين [1] •

وعلم الأخلاق عند الغزالى علم معاملة لا مكاشـــــفة بمعنى أنه يبحث فى الأعمال وفيما ينبغى على المرء أن يفعله ليكون سلوكه موافقا لروح الشريعة

وامارات حسن الخلق فى نظر الغزالى هى التى تتفق مع ماورد فى القرآن الكريم • وعلى الانسان الذى يريد أن يعرف محاسن أخلاقه أن يقيس صفاته بما ورد بالقرآن الكريم • وقد نظـــر الغــزالى الى الفضيلة على انها حالة التوسط والاعتدال بين رذيلتين وحدين متقابلين تطبيقا للمبدأ القرآنى خير الامور الوسط فاعتدال الغضب « الشجاعة » توسطا بين التهور والجبن واعتدال الشهوة « العفة » توسطا بين الشره والجمود واعتدال العقل « الحكمة » توسطا بين الخبث والبلاهة• ومعيار الاعتدال فى نظره يقوم على العقل والشرع •

امهات الفضائل :

ان أمهات الفضائل عند الغزالى أربعة :

ــ الحكمة وهى حالة للنفس يمكن بها تمييز الصواب من الخطأ • فى جميع الأفعال الاختيارية •

ــ الشجاعة وتكون بانقياد شـــهوة الغضب للعقل فى اقدامهـــا واحجامها •

(1) زكى مبارك : الأخلاق عند الغزالى ، ص ١١٣ •

— العدل وهى حالة للنفس أن تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة .

— العفة وتكون بتأديب قوة الشهوة بتأديب الشرع والعقل .

الوسيلة الى الأخلاق الحسنة :

ان الوسيلة الى الأخلاق الحسنة فى نظر الغزالى هى التخلق أى بتعويد النفس على الخلق الحسن وقد قسم الناس الى أربعة أقسام :

— قسم يمثله الانسان الطفل الذى لا يعرف الحق من الباطل والقبيح من الحسن وهو أكثر الأقسام قبولا للرياضة والتوجيه ولا يحتاج الا الى مرشد والى باعث يحمله على الاتباع .

— قسم يمثله الانسان الذى يعرف القبيح من الحسن لكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فيقدم عليه انقيادا لشهواته واعراضا عن صواب رأيه .

وأمر هذا الصنف من الناس أصعب اذ يلزمه اقتلاع ما رسخ فيه من تعود الفساد وصرف النفس الى الاقدام على العمل الحسن .

— قسم يمثله الانسان الذى يرى القبيح حسنا وجميلا . ويرى الغزالى أن هذا النوع لا يرجى صلاحه الا على الندرة .

— قسم يمثله الانسان الذى يتباهى بفساد خلقه وفساد أمره وكثرة شره . وهذا الصنف هو أصعب المراتب فى مجاهدة النفس وتعويدها على الأخلاق الكريمة .

ويقول الغزالى ان كل ذى بصيرة نافذة يرى عيوبه ويسهل عليه علاجها ويصلحها اذا رأى فيها اعوجاجا ويكون علاج عيوب النفس بمجاهدتها وتعويدها على فعل الضد . أى أن الرذائل تعالج بضدها فالبخل مثلا يعالج بالسخاء والجهل بالتعليم والتكبر بالتواضع وهكذا .

قابلية الأخلاق والسلوك للتعديل :

يؤمن الغزالى بقابلية الأخلاق والسلوك للتعـديل فقد ورد عن النبى (ص) قوله « حسنوا آخلاقكم » وهو ينتقد من يزعم أن الأخلاق لا تتغير اعتمادا على أن الأخلاق مقتضى المزاج والطبع وأن الخلق صورة الباطن •

ويؤكد الغزالى رأيه باشارته الى أن كل كائن حى يمكن أن يتغير خلقه حتى أن البهـائم يمـكن تبديل خلقهـا من الاسـتيحاش الى الاستئناس ولو أن الأخلاق لا تتغير لما كان هناك حاجة الى المواعظ والوصايا ولما قال الرسول (ص) « حسنوا أخلاقكم » •

وهو يقول : « ان الصبى أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة • وهو قابل لكل ما نقش ومائل الى كل ما يقال فان عود الخير وعمله نشأ عليه وسعد فى الدنيا والآخرة وشاركه فى ثوابه كل معلم له ومؤدب وان عود الشر وأهمل اهمـال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والوالى له » •

الآراء التربوية للغزالى :

يمكننا أن نعرض لأهم الآراء التربوية للغـزالى تحت العناوين التالية :

الغاية من التربية :

يعتبر الغزالى أن الغاية من التربية هى التقرب الى الله عز وجل والدليل على ذلك طلب العلـوم ومحاسـن الأخـلاق وفى ذلك يقول : على المعلم أن ينبه المتعلم على أن الغرض من طلب العلوم هو التقرب الى الله دون الرياسة والمباهاة •

غاية الأخلاق عنده حب الله وحب لقائه والبعد عن الدنيا وهو يقول

« مهما كان الأب يصون ولده من نار الدنيا فليصنه عن نار الآخرة أولى وصيانته أن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق » .

ولم يرفض الغزالى الهدف التربوى والتثقيفى من التعلم ففى كلامه عن قيمة دراسة العلوم يذكر من بين ما يذكر مدى منفعتها للانسان فى حياته الدنيا ويمثل لها بعلوم الطب والحساب والصناعات ، ومدى منفعتها للانسان فى تثقيفه واستمتاعه وتدخلها فى حياته الاجتماعية ومثل لها بالشعر والتاريخ والسياسة . وقد جعل العلم طريقا للايمان ففى كلامه عن الايمان يقسمه الى ثلاث مراتب :

١ — ايمان العوام الذين يصدقون ما يسمعون مثل قيل لهم فلان بالدار فصدقوا .

٢ — ايمان العلماء وهو مبنى على الاستنباط ومثاله أنهم سمعوا فلانا بالدار فصدقوا .

٣ — يقين العارفين الذين يشهدون الحق دون حجاب ومثاله هم الذين دخلوا الدار ورأوا بأعينهم وهم الأنبياء والرسل ومن فى مرتبتهم.

تقسيم العلوم :

قسم الغزالى العلوم الى أربعة أنواع :

— الأصول وتشمل القرآن والحديث .

— الفروع وتشمل الفقه .

— المقدمات وتشمل مالا غنى عنه فى دراسة الأصول مثل النحو واللغة .

— المتممات وتشمل القراءات والتفسير .

ومن حيث قيمتها يقسمها الغزالى الى :

— علوم مذموم قليلها وكثيرها مثل علوم السحر والطالع والتنجيم لأنه لا يرجى نفع منها فى الدنيا والآخرة .

ـ علوم محمود قليلها وكثيرها وهى العلوم الدينية لأنها تطهـر النفس وتقرب الانسان من ربه •

ـ علوم قليلها محمود وكثيرها مذموم لأنها تشكك الانسان مثل الفاسفة قد تؤدى الى الالحا .هو هنا يحمل على الفلسفة التى ألف لها « تهافت الفلاسفة » •

ومن حيث أهمية العلوم يقرر الغزالى أنها تقسم الى نوعين :

ما هو فرض عين على كل فرد وهى العلوم الدينية لأنها الأساس الى معرفة الله وهو فرض على كل واحد •

ـ ما هو فرض كفاية وهى التى ليست مفروضة على كل فرد مثل علوم الحساب والطب والصناعات •

ويعتمد تقسيم علوم المنهج على نظرة الغزالى الى أهمية العلوم ويعتبر الغزالى أن أساس معرفة العلوم يعتمد على عدة معايير أهمها :

١ ـ مدى منفعة هذه العلوم للانسان فى حياته الدينية وتقربه من الله •

٢ ـ مدى منفعة هذه العلوم للانسان من حيث خـدمتها لعلوم الدين وهى علوم النحو واللغة •

٣ ـ مدى منفعة هذه العلوم للانسان فى حياته الدنيا مثل عـلم الطب والحساب والطبيعة •

٤ ـ مدى منفعة هذه العلوم للانسـان من تثقيف الانسـان واستمتاعه وتدخلها فى حياته الاجتماعية مثل الشعر والتاريخ والسياسة •

وهكذا يقسم المنهج عند الغزالى الى :

ـ العلوم النقلية وهى العلوم المنقولـة من السلف وهى علـوم القرآن والحديث •

— العلوم اللسانية وهى العلوم التى تخدم أمور الدين •

— العلوم العقلية بما فيها الفلسفة التى قسمها الى خمسة فروع هى : الرياضيات والعلوم المنطقية والطبيعيات والسياسيات والخلقيات•

منهج الغزالى فى تربية الطفل :

يقدم لنا الغزالى منهجا عمليا فى تربية الطفل تربيـــة اســـلامية صحيحة • فبعد أن أكد أن الطفل قابل لكل نقش وصورة نصح الوالد بأن يؤدب ابنه وينشئه على محاســـن الأخلاق وأن يحفظه من قـــرناء السوء واوصى الأب بألا يحبب ابنه فى أسباب الرفاهية حتى لا يتعود نعيم العيش فيصعب تقويمه بعد ذلك ، وعليه أن يعـــوذه على اللباس المحتشم الوقور وأن يمنعه من النوم نهارا وتعويده الحركة والرياضة وأن يمنعه من الافتخار على أقرانه بما يملكه هو أو والده ، وتعويده التواضع وطيب الحديث وتعويده على العطاء لا الأخـــذ حتى ولو كان فقيرا وأن ينهاه عن القسم صادقا أو كاذبا تأكيدا لقول الله ولاتجعلوا الله عرضة لأيمانكم ، وأن ينهاه عن الأعمال غير المستحسنة كالبصـــاق والتثاؤب لاسيما فى المجالس وأن يعـــوده على الاقلال من الكلام الا لحاجة وبقدر ما تتطلبه هذه الحاجة وأن يخوفه من السرقـــــة وأكل الحرام وغيرها من الأخلاق المذمومة وأن يعوده على الصبر وأن يأذن له باللعب بعد الدرس حتى يستريح ويتجدد ذكاؤه ونشاطه ويروح عن نفسه مشقة العلم •

وقد أشار الى أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعـــام وهو فى هذا يتفق مع ابن مسكويه وطالب الأب بأن يؤدبه فى ذلك وأن بعود أخذ الطعام بيمينه والبدء باسم الله والأخذ بما يليه •••• وأن يقبح عنده كثرة الأكل بطريق غير مباشر كأن يذم الطفل الشره ويمـــدح المتأدب قليل الأكل • كما طالب الأب بألا يتساهل مع ابنه اذا بلغ سن التميز فى كل ما يحتاج اليه أمر الشرع • ويقدم لنا الغزالى أسـلوب الثواب

والعقاب لتأديب الصبى الا أنه يرى ألا يكون العقاب لكل أمر بل من الافضل التغاضي عن بعض الأمور اذا خجل الطفل منها وتستر لاخفائها ولا يكون العقاب علنا حتى لا يشجع الطفل على تعود الخطأ • ويجب أن يقل من العقاب حتى لا يتعود الطفل المهانة ويهون عليه سماع اللوم والتأنيب •

تعليم الصبيان :

يؤكد الغزالى فى كلامه عن تعليم الصبيان عدة مبادىء تربوية هامة من أبرزها :

البدء بالتعليم فى الصغر :

ينبغى أن يبدأ تعليم الصبيان من صغرهم وقديما قالوا : التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ويؤكد الغزالى نفس المعنى عندما يقول عن الصبى وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش عليه •

وقد ردد هذا القول جون لوك بعد حوالى ١٣ قرنا من الزمان عندما ذهب الى أن عقل الطفل صفحة بيضاء تنقشه الخبرة والتعليم • ويؤكد الغزالى الى أن التربية والتعليم عملية تتعاون فيها طبيعة الصبى مع بيئته •

مراعاة طبيعة الصبى :

يؤكد الغزالى ضرورة فهم المعلم لطبيعة الصبى وهذا يتأتى من دراسته لنفسية الصبيان الذين يعلمهم فهم ليسوا سواء وهذه الدراسة تساعده من ناحية أخرى على ايجاد الصلة الانسانية بينه وبينهم وعلى المعلم أن يتدرج فى تعليم الصبى وأن يبدأ معه من السهل الى الصعب • وفى ذلك يقول الغزالى :

« ان أول واجبات المربى أن يعلم الطفل ما يسهل عليه فهمه لأن

الموضوعات الصعبة تؤدى الى ارتباكه العقلى وتنفره من العلم » [١]
ويشير الغزالى الى قضية نفسية هامة هى « أن صحة النفس تتحقق من اعتدال مزاج البدن عندما يتكامل الجسم والنفس »

التدريج فى التعليم : الى جانب ما أشار اليه الغزالى من التدرج فى تعليم الصبى والبدء بالأشياء السهلة ثم الانتقال منهـا الى ما هو أصعب ، يطالب الغزالى المعلم الا يخوض فى العلم دفعة واحـدة بل يتدرج فيه مع مراعاة الترتيب ويبتدىء بالأهم وكذلك ينبغى عليـه ألا يخوض فى علم الا بعد أن يستوفى ما قبله ، فالعلوم مرتبـة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق بعض .

ضرورة الترويح واللعب فى تربية الولد : يشير الغزالى الى ضرورة الترويح عن الصبى وأشار اليه بموضوع اللعب الذى قال ان له ثلاث وظائف :

— يروض جسم الصغير ويقويه .

— يدخل السرور على قلبه .

— يريح الصبى من تعب الدروس ، ويروح عن تعب النفس كللها ومللها .

وفى بيان أهمية اللعب للطفل يقول الغزالى « وينبغى أن يعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لايغلب عليه الكسـل . » وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعبا جميـلا يستريح اليه من تعب العلم بحيث لا يتعب فى اللعب . فان منع الصبى من اللعب وارهاقه فى التعليم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه .

---

(١) أبو حامد الغزالى : احياء علوم الدين — مطبعة صبيح — القاهرة ج ١ — ص ٥٢ .

تربيـــة البنت :

ــ يرى الغزالى أن العلم واجب على الرجال والنســـاء ولكنه لم يهتم بالحديث عن تربية البنت ولم يكتب عنها الا النذر اليسير •

المعلم فى نظر الغزالى :

يؤكد الغزالى أهمية الاشتغال بالتعليم ويعلى من قدر أصحابها ويعظم من شأن وخطر المسئولية الملقاة عليهم وفى ذلك يقول الغزالى :

فمن علم وعمل بما علم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماوات فانه كالشمس تضىء لغيرها ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما فليحفظ آدابه [١] والمعلم فى نظره « متصرف فى قلوب البشر ونفوسهم » وهو يمارس أشرف الصناعات بعد النبوة •

وقد أوصى المعلم بعدة أمور من أهمها :

١ ــ الشفقة والرحمة على الصبى فهو منه بمنزلة الوالد •

٢ ــ ألا يبخل على الصبى بالنصح والتوجيه والارشاد الى طريق الخــير •

٣ ــ أن يزجر الصبى عما يبدو منه من سوء الخلق بطريقة الرحمة لا التوبيخ وأن يكون تأديبه بالبرهنة والتوجيه لا بالتخويف والضرب والوعيد •

٤ ــ التدرج فى تعليم الصبيان وأن يعطى الصبى من التعليم على قدر فهمه ثم يتدرج معه ولا يلقى اليه مالا يعقله •

---

(١) الغزالى : المرجع السابق ص ٤٩ .

٥ — ألا يقبح فى نفس المتعلم العلوم الأخرى التى يدرسها غيره كمعلم اللغة فى عادته فى تقبيح علم الفقه ومعلم الفقه فى عادته فى تقبيح علم الحديث والتفسير .

٦ — أن يكون المعلم قدوة حسنة وأن يطابق قوله فعله وأن يكون متحليا بالورع والتقوى لأن أعين الصبيان اليه ناظرة وأذانهم اليـــه مصغية فما استحسن فهو عندهم الحسن وما استقبح فهو عندهم القبيح .

٧ — أن يعود الصبى على الأخلاق الكريمة فيقوم احتراما لمن هو أكبر منه كما يعوده على ألا يبصق فى المجلس ولا يتمخط ولايتثاءب .

٨ — يجب ألا يرفع المعلم التكليف بينه وبين التلميذ حتى لا يتجرأ عليه وحتى لا يفسد خلقه وأن يبتعد به عن التدليل ويعوده الخشونة حتى لا يغلب عليه الكسل وأن يراعى التوسط والاعتدال فى معاملته .

٩ — أن يكون وقورا رزينا لا ثرثارا أهوج ولا يظهر أمام تلاميذه بمظهر الخامل الناعس .

١٠ — ألا يطلب المعلم على العلم أجرا وانما يقصد به ابتغاء وجه الله وقد عيب على الغزالى هذا الرأى من جانب دارسى التربية الاسلامية لانه رأى لا يتفق مع الواقع بل انه فى هذا الرأى خالف ســابقيه من علماء المسلمين الذين قالوا بجواز أخذ أجر عن التعليم بل اعتبروا ذلك ضرورة لنشر العلم بين الناس وهو ما يتضح أيضا من عرضنا السابق لآراء ابن سحنون والقابسى والأدلة التاريخية أيضا تدحض هذا الرأى للغزالى فقد كان المعلمون يحصلون على أجر بالفعل نظير قيامهم بتعليم الصبيان ولعل الغزالى متأثرا فى هذا الرأى بما ورد لدى أفلاطون الذى كان يؤمن بنفس الرأى وعاب على السفطائيين فى عصره انهم يأخذون أجرا على التعليم . وقد انتقد هذا الرأى لأفلاطون أيضا واعتبره رأيا مثاليا لا يتفق مع واقع المجتمع ولا واقع الاشتغال بالتعليم كمهنـــة .

ويروى عن ابن مسعود قوله : ثلاث لابد للناس منهم : أمير يحكم بينهم ولولاه لأكل بعضهم بعضا وشراء المصاحف وبيعها ولولاه لقل كتاب الله ومعلم يعلم أولادهم ويأخذ على ذلك أجرا ولولا ذلك لكان الناس أميين • ويروى أيضا أن سعدا بن مالك قدم برجل من العـراق يعلم أبناءهم الكتاب بالمدينة ويعطونه الأجر • ويروى عن مالك قوله : لا بأس بما يأخذ المعلم على تعليم القرآن وان اشترط شيئا كان حلالا جائزا ولا بأس بالاشتراط فى ذلك وحق الختمة له واجب سواء اشترطها أم لم يشترطها • وهذه كلها أمثلة تؤكد استحقاق المعلم للأجر على اشـتغاله بالتعليم •

ابن خلدون وأرائه التربوية

يعتبر ابن خلدون من أئمة علماء العرب ومن أشهر علماء المسلمين الذين تعدت شهرتهم حدود بلادهم وطوقت الآفاق وقد ولد عبد الرحمن ابن خلدون ٧٣٢ هـ — ١٣٣٢ م فى تونس وتوفى ٨٠٨ هـ — ١٤٠٦ م فى القاهرة ودرس العلم وحصله على أيدى علماء كثيرين والى جانب اشتغاله بالعلم اشتغل بالسياسة وخاض غمارها وجرب المصائب والمؤامرات والحروب وكان لا يستقر فى مكان واحد ، فقد أمضى مايقرب من ثلث حياته (٢٤) سنة فى تونس وثلث آخر فى المغرب والأندلس وثلث ثالثة فى الشام والحجاز ومصر • وقد وصف مصر بأنها حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وايوان الاسلام وكرسى الملك • وتقلد بعض الوظائف بينها خطة المظالم أى القضاء وصار وزيرا وسفيرا وخطيبا ومدرسا ودرس بالجامع الأزهر • وسافر بعدها لأداء فريضة الحج وعاد الى القاهرة وتولى منصبه الذى كان يشغله من قبل وهو القضاء المالكى الذى تولاه فى مصر أكثر من مرة •

وقد نشأ ابن خلدون فى أسرة جمعت بين العلم والرياسة والسلطان فقد تولوا فى تونس مراتب عليا فى الدولة وشاركوا فى الكثير من حروبها دون أن تنقطع صلتهم بالعلم والأدب • وفى ظل هذه البيئة العائلية كما يقول ساطع الحصرى تولد فى نفسه نزعتان قويتان : حب المنصب والجاه من ناحية وحب الدرس والعلم من ناحية أخرى •

وقد كانت حياة ابن خلدون مليئة بالهموم فقد أهلك أبواه فى الطاعون الجارف الذى اكتسح وطنه وقضى على الكثير من العلماء والشيوخ وكان عمر ابن خلدون آنذاك ١٧ عاما وهكذا حرم من والديه وهو فى ريعان الشباب ولم يعرف الاستقرار طول حياته فقد كانت مليئة بالقلاقل وكانت أشد صدمة عليه ما حدث لزوجته وولديه وبناته الخمسة عندما كانوا فى طريقهم اليه من المغرب الى القاهرة فغرقت

بهم السفينة ولم ينج منهم الا ولداه حدث ذلك فى وقت كان فيه ابن خلدون لا يحسد عليه • وفى ذلك يقول : « ووافق ذلك مصابى بالأهل والولد • وصلوا من المغرب فى السفن (السفينة) فأصابها قاصف من الريح فغرقت وذهب الموجود والسكن والمولود فعظم المصاب والجزع ورجع الزهد » •

ولابن خلدون مؤلف معروف بعنوان كبير هو كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام ، العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) وهو فى سبعة أجزاء أشهرها الجزء الأكبر الذى يعرف بالمقدمة وهى مقدمة ضخمة عظيمة الشأن حوت كثيرا من العلوم وتكلم فيها عن الحضارة والعمران وكل ما يرتبط بهما من سلطان وكانت هذه المقدمة منهلا لطلاب العلم فى كل فن وعرض فيها لكل أنواع العلوم المعروفة فى عصره وعرض فيها للعلوم والتعليم فى الأمصار الاسلامية وعرض لآرائه فى التربية والتعليم •

الآراء التربوية لابن خلدون :

الواقع أن كثيرا من الآراء التربوية التى عبر عنها ابن خلدون وردت عند من سبقوه فى الكلام عن هذا الموضوع من أمثال ابن سحنون والقابسى والغزالى وغيرهم • وسنعرض فى السطور التالية لأهم آرائه فى التربية •

كلمة التربية :

وردت كلمة « التربية » عند ابن خلدون مرة واحدة فى كلامه فى الفصل (٣٤) عن مراتب الملك والسلطان وألقابها يقول : (١)

« ان الاستعانة اذا كانت بأولى القربى من أهل النسب أو التربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع فى ذلك من مجانسة خلقهم

---

(١) ابن خلدون : المقدمة — طبعة دار الفكر ص ٢٣٥ •

لخلقه فتتم المشاكلة فى الاستعانة » • قال تعالى : « واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى » ••

وواضح أن المقصود بالتربية هنا معناها اللغـوى الذى ينصرف الى التنشئة وليس الى معناها الاصطلاحى الذى نقصده عادة •

العلم والتعليم طبيعى فى العمران البشرى :

يقرر ابن خلدون أن العلم والتعليم طبيعى فى العمران البشرى ذلك لأن الانسان تميز عن الحيوانات بالفكر الذى يهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتمـاع المهيىء لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به واتبـاع صـلاح أخراه فهو مفكر فى ذلك كله دائما لا يفتر عن الفكر فيه طـرفة عين بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشـأ العلوم وما قدمناه من الصنائع •

وهو يقرر فى فصل آخر أن الصنائع تكمل بكمال العمران الحضرى وكثرته وأن العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة •

الرحلة فى طلب العلم :

يقرر ابن خلدون أن الرحلة فى طلب العلم مفيدة ولابد منها لمـا فيها من اكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومعاشرة الرجال وقد أشرنا الى تفصيل كلامه عن ذلك فى موضع سابق •

القرآن أصـل التعليم :

ذهب ابن خلدون كسابقيه الى القول بأن القرآن هو أول العلوم التى يتعلمها الصبى فالقرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل من الملكات •

اختلاف الأمصار الاسلامية فى تعليم القرآن :

ويقارن ابن خلدون بين الأمصـــار الاسلامية فى تعليم القـــرآن واختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات .

فأما أهل المغرب فمذهبهم فى الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه ، ولا يخلطون ذلك بســواه فى شىء من مجــالس تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب ، الى أن يحــذق فيه أو ينقطع دونه ، فيكون انقطاعه فى الغــالب انقطــاعا عن العلم بالجملة . وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب فى ولدانهم الى أن تجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة . وكذا فى الكبير اذا راجع مدرسة القرآن بعد طائفة من عمره . فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم . أما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القــرآن والكتاب من حيث هو [1] وهــذا هو الذى يراعونه فى التعليم .

الا أنه لما كان القرآن أصل ذلك ورأسه ، ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا فى التعليم . فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطــون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم فى التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها ، الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقد شدا بعض الشىء فى العربية والشعر والبصر بهما ، وبرز الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم . لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم فى آفاقهم ، ولا يحصــل بأيديهم الا ما حصــل من ذلك

---

(1) أى يعلمونهم الكتابة من حيث هى على الاطلاق لا رسم المصحف فقط واختلاف حملة القرآن فيه كما يفعل أهل المغرب .

التعليم الأول ، وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد اذا وجد المعلم. أما أهل أفريقية فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ، ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا أن عنايتهم بالقرآن ، واستظهار الولدان اياه ، ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته ، أكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط تبعا لذلك . وبالجملة فطريقتهم فى تعليم القرآن أقرب الى طريقة أهل الأندلس ، لأن سند طريقتهم فى ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس ، واستقروا بتونس ، وعنهم أخذوا ولدانهم بعد ذلك .

وأما أهل المشرق فيخلطون فى التعليم كذلك على ما يبلغنا ، ولا أدرى بم عنايتهم منها . والذى ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه فى زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط ، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده ، كما نتعلم سائر الصنائع ، ويتداولونها فى مكاتب الصبيان . واذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الاجادة . ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة فى طلبه ويبتغيه من أهل صنعته .

فأما أهل أفريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة ، وذلك أن القرآن لا ينشأ عنه فى الغالب ملكة لما أن البشر مصروفون عن الاتيان بمثله ، فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء بها ، وليس لهم ملكة فى غير أساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة فى اللسان العربى ، وحظه الجمود فى العبارات وقلة التصرف فى الكلام . وربما كان أهل أفريقية فى ذلك أخف من أهل المغرب لما يخلطون فى تعليمهم القرآن بعبارات العلوم فى قوانينها كما قلناه ، فيقتدرون على شىء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل ، الا أن ملكتهم فى ذلك قاصرة عن البلاغة كما سيأتى فى فصله .

أما أهل الأندلس فأفادهم التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى وقصروا فى سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذى هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثانى من بعد تعليم الصبا ٠

تقديم تعليم العربية وتأخير تعليم القرآن : (طريقة ابن العربى)

يشير ابن خلدون الى طريقة ابن العربى فى تقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم وتأخير البدء بتعليم القرآن بعد أن يكون المتعلم قد تعلم العربية وهى وسيلة فى فهم القرآن ٠ ويقول ابن خلدون فى تفصيل هذه الطريقة (ص ٥٠٧) :

« ولقد ذهب القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب رحلته الى طريقة غريبة فى وجه التعليم ، وأعاد فى ذلك وأبدأ ، وقدم تعليم اللغة العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس قال : « لأن الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه وتعليم العربية فى التعليم ضرورة فساد اللغة ٠ ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ٠ ثم ينتقل الى درس القرآن فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة »٠ ثم قال : « ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره ، يقرأ ما لا يفهم وينصب فى أمر غيره أهم عليه » ثم قال : « ينظر فى أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه » ٠ ونهى مع ذلك أن يخلط فى التعليم علمان الا أن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط » ٠

ويمتدح ابن خلدون هذه الطريقة ويعتبرها مذهبا حسنا فى التعليم لكنه يستدرك فيقول ان العادات المتبعة فى التعليم لا تساعد على اتباع هذه الطريقة والأخذ بها وذلك لأن العرف درج على بدء بتعليم القرآن ٠ وفى تفسير ذلك يقول (ص ٥٠٧ — ٥٠٨) :

« ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن ايثارا للتبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن لأنه مادام فى الحجر منقاد للحكم . فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ريقه القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة . فيغتنمون فى زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه . ولو حصل اليقين باستمراره فى طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذى ذكره القاضى أولى مما أخذ به أهل المغرب والمشرق ولكن الله يحكم ما يشاء ، لا معقب لحكمه ، سبحانه » .

تعليم اللغة أساس لتعليم سائر الفنون :

اعتبر ابن خلدون تعليم اللغة أساسا لتعليم سائر الفنون وهذا صحيح لكنه قال أن اللغة الدارجة أهون على التعبير ولذا نصح بتعليم اللغات الدارجة الى جانب اللغة العربية وهو رأى غريب لا يمكن أن نوافقه عليه لما يؤدى ذلك الى التقليل من شأن اللغة العربية التى تعتبر الرباط الثقافى والفكرى لكل البلاد العربية .

تعليم اللسان العربى :

يؤكد ابن خلدون فى تعليم اللسان العربى على كثرة حفظ كلام العرب وأشعارهم والتمرن على النسج على منوالهم حتى يصبح اللسان العربى سليقة : يقول ابن خلدون : « ووجه التعليم لمن يبتغى هذه الملكة (ملكة اللسان العربى) »[١] .

ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجارى على أساليبهم من القرآن والحديث ، وكلام السلف ، ومخاطبات فحول العرب

---

(١) مقدمة ابن خلدون — طبعة كتاب الشعب ص ٥٢٦ — ٥٢٧ .

فى أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضا فى سائر فنونهم ، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزله من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم • ثم يتصرف بعد ذلك فى التعبير عما فى ضميره على حسب عبارتهم ، وتأليف كلماتهم ، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم ، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ، ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة • ويحتاج مع ذلك فى التعبير عما فى ضميره على حسب عبارتهم ، وتأليف كلماتهم ، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم ، ويزداد بكثرتهما رسوخا وقوة • ويحتاج مع ذلك الى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب • وأساليبهم فى التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال •

ويشير ابن خلدون الى مجزد معرفةقوانين النحو والاعراب لا تكون ملكة اللسان العربى ويشرح ذلك فيقول :

« فان العلم بقوانين الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل • ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين اذا سئل فى كتابة سطرين الى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامه أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربى • وكذا تجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظور والمنثور ، وهو لا يحس اعراب الفاعل من المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ، ولا شيئا من قوانين صناعة العربية »[1] •

ويقارن بين أهل الأندلس وأهل المغرب فى تعليم اللسان العربى فيقول : « أهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم ، لقيامهم فيها على شواهد العرب

---

(١) المرجع السابق ص ٥٢٧ •

وأمثالهم ، والتفقه فى كثير من التراكيب فى مجالس تعليمهم ، فيسبق الى المبتدىء كثير من الملكة أثناء التعليم فتنقطع النفس لها وتستعد الى تحصلها وقبولها » •

وأما من سواهم من أهل المغرب وأفريقية وغيرهم فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثا وقطعوا النظر عن التفقه فى تراكيب كلام العرب الا أن أعربوا شاهدا أو رجحوا مذهبا من جهة الاقتضاء الذهنى لا من جهة محامل اللسان ، وتراكيبه • فأصبحت صناعة العربية كأنها من جملة قوانين المنطق العقلية أو الجدل وبعدت عن مناحى اللسان وملكته ، وما ذلك الا لعدولهم عن البحث فى شواهد اللسان وتراكيبه وتمييز أساليبه ، وغفلتهم عن المران فى ذلك للمتعلم ، فهو أحسن ما تفيده الملكة فى اللسان ، وتلك القوانين انما هى وسائل للتعليم ، لكنهم أجروها على غير ما قصد بها ، وأصاروها علما بحتا ، وبعدوا عن ثمرتها[1] وقد امتدح كتاب سيبويه لأنه لم يقتصر على قوانين الاعراب فقط بل لأنه مملوء بأمثال العرب وأشعارهم كما امتدح طريقة أهل الأندلس التى أشرنا اليها لأنها أقرب الى تعليم هذه الملكة من اهتمام بكلام العرب وأشعارهم وأمثالهم •

الفلسفة صناعة باطلة :

اعتبر ابن خلدون الفلسفة صناعة باطلة لأن الفلاسفة يزعمون أنهم يعرفون كل شىء والعالم أوسع من أن يحاط به •

سمو التعليم النظـرى :

ردد ابن خلدون ما ذهب اليه أفلاطون من سمو تدريب العقل على الجسم فاعتبر ابن خلدون التعليم النظرى أرقى من تعلم الفنون العملية لأن التعليم النظرى يقوم على العقل • وهو رأى وان كان ساد الفكر

---

(١) المرجع السابق ص ٥٢٨ •

التربوى ردحا من الزمن الا أنهبمعايير الفكر التربوى المعاصر لا يمكن قبــوله •

التعليم فى الصغر أشد رسوخا :

يردد ابن خلدون ما قاله الغزالى وغيره من المربين المسلمين أن التعليم فى الصغر أشد رسوخا وأنه أصل لما بعده •

الشدة مضرة بالمتعلمين :

يكرر ابن خلدون ما أكده سابقوه من الرفقة بالمتعلم لأن الشــدة مضرة به وقد بين ضرر الشدة على المتعلم وما يترتب علية من آثار ضارة فتسلمه الى التبلد والكذب والخبث •

ويقول ابن خلدون (المقدمة ص ٥٠٨ — ٥١٩) :

« ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين فقال : « يا أحمد ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين • أقرئه القرآن وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار • وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها ، من غير أن نحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مســامحته فيستحلى الفراغ ويألفه • وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة •

التدرج فى التعليم :

نادى ابن خلدون بما نادى به سابقوه من مراعاة التدرج فى تعليم الصبيان ومراعاة قدراتهم • الا أنه يتميز عن سابقيه فيما ذهب اليه

بالقول بمدأ التكرارات الثلاثة فى عملية التعليم • وتشير هذه التكرارات الى ثلاث مراحل متدرجة فى التعليم • يكون التعليم فى المرحلة الأولى اجمالا وفى الثانية تفصيلاً وفى الثالثة تعميقا بدراسة ما استشكل فى العلم ووسائل الخلاف فيه •

ويقول ابن خلدون فى ذلك :

« ان تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا • يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ، ويقرب له فى شرحها على سبيل الاجمال ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهى الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة فى ذلك العلم الا أنها جزئية وضعيفة • وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله • ثم يرجع به الى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين عن ذلك الرتبة الى أعلى منها • ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه الى أن — ينتهى الى آخر الفن فتجود ملكته • ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا الا وضحه وفتح له مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته • هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل فى ثلاث تكرارات • وقد يحصل للبعض فى أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ولا يتيسر عليه » •

ويعيب ابن خلدون على المعلمين الذين يجهلون الطريقة الصحيحة للتعليم وأنهم يقدمون للمتعلم فى أول عهده بالتعليم المسائل الصعبة أو المشكلة مما يعوق تعليمه • يقول ابن خلدون :

« وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذى أدركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون للمتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه فى حلها ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه •• فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ

تدريجيا • ويكون المتعلم فى أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة الا فى الأقل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالأمثلة الحسية •

عدم اطالة الفواصل الزمنية بين الدروس :

ونادى ابن خلدون بعدم اطالة الفواصل الزمنية بين دروس العلم الواحد حتى لا ينسى المتعلم ما سبق أن درسه •

الاختصارات فى العلوم مخلة بالتعليم :

من الاشارة التربوية الهامة لدى ابن خلدون أيضـــا قوله بأن الاختصارات المؤلفة فى العلوم تعتبر فى نظره مخلة بالتعليم • وهى نظرة سليمة من ابن خلدون لما يترتب على هذه الاختصارات من اخلال بالعلم •

التعليم يكون بالمحاورة لا الحفظ :

ويؤكد ابن خلدون أن الطريقة الصحيحة فى التعليم هى التى تهتم بالفهم والوعى والمناقشة لا الحفظ الأعمى عن ظهر قلب ويشير الى أن « ملكة العلم » انما تحصل بالمجاورة والمناظرة والمفاوضة فى مواضيع العـــلم •

وهو يعيب طريقة الحفظ عن ظهر قلب ويعتبرها مسئولة عن تكوين أفراد ضيقى الأفق عقيمى التفكير لا يفقهون شيئا ذى بال فى العلم • وهو يشير فى ذلك الى الطريقة التى اتبعت فى المغرب فيقول المقدمة (ص ٣٩٨) :

« وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب خلوا من حس التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق فى العلوم • وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية• فهو الذى يقرب من شأنها

ويحصل مرامها . فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية سكوتا ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من التصرف فى العلم والتعليم ، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة فى علمه ان فاوض أو ناظر أو علم . وما أتاهم القصور الا من قبيل (رداءة طريقة) التعليم وانقطاع سنده . والا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك . ومما يشهد بذلك فى المغرب أن المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ستة عشر سنة وهى بتونس خمس سنين . وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هو أقل ما يأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها . فطال أمدها فى المغرب لهذه المـدة لأجل عسرها من قلة الجودة فى التعليم خاصة لا مما سوى ذلك » .

وقد تردد هذا القول فى القـرن العشرين لدى بعض الباحثين الغربيين الذين قاموا بدراسات التعليم الحديث فى المغرب وذهبوا الى القول بأن الطفل المغربى بعد دراسـته الأولى فى المدارس القرآنية ويذهب الى المدرسة العامة الحديثة وهو يتمتع بقدرة فائقة على التذكر تنطفىء معها قدرته على التخيل والتصور والتفكير الناقد(١) .

والواقع أن المربين المسلمين قد اهتموا بأسلوب المناظرة والحوار فى التدريس واعتبروه أسلوبا مفضلا مجديا فى التعليم . يقول الزرنوجى

---

(١) نقلا عن : D. Wagner فى دراسته التى قدمها الى :
The Annual Meatings of the Middle East Studies Association : «Sym-Posium on Traditional Factors in Modern Morocco»., Ann Arbor, Michigan, Nov. 1978.

ان قضاء ساعة واحدة فى المناقشة والمناظرة أجدى على المتعلم من قضاء شهر بأكمله فى الحفظ والتكرار •

وقد احتاط المربون المسلمون من سوء استخدام أسلوب المناظرة والحوار بأن له بعض الشروط التىتجعل منه أسلوبا فعالا للتعلم والبحث العلمى من أهمها أن يكون هدف المناظرة الوصول الى الحقيقة لا التضليل وحب الانتصار بالباطل • كما يشترط فى المتناظرين الالمام بموضوع المناظرة والتحلى بالهدوء وسعة الصدر وعدم التكلف وغيرة الصدر • ومع أن أسلوب المناظرة هو أقرب الى الدراسات العالية فاننا نجد صورة مبسطة منه فى أسلوب الحوار أو النقاش الذى يديره المعلم مع تلاميذه ليحفزهم على التفكير •

الفصل الثامن

التربية فى الشرق العربى الاسلامى
فى العصور الحديثة

مقدمة :

تركنا البلاد العربية الاسلامية فى العصور الوسطى وقد وصلت الى قمة ازدهارها وعظمة مجدها وكانت مشعل الحضارة والعلم الذى أضاء عصر النهضة لاوروبا ومن بعدها نهضتها الحديثة . وشهدت تلك الفترة نهضة فى الفكر التربوى الاسلامى ونهضة فى التعليم وانشاء المدارس . ولكن لكل شىء اذا ما تم نقصان . وقد عجل بهذا النقصان سقوط الدولة الاسلامية فريسة للتتار والمغول فى منتصف القرن الثالث عشر عندما سقطت لهم بغداد كعبة العلم والثقافة ... وورثوا تراث المسلمين وخلفوهم فى الحكومة . « وناهيك بؤسا وشقاء للانسانية وخرابا للعالم أن تتولى قيادة العالم أمة جاهلة وحشية ليس عندها دين ولا علم ولا ثقافة ولا حضارة »[1] .

ولم يلبث أن ظهر الأتراك على المسرح العالمى كقوة حربية هائلة مكنتهم من السيطرة على الشعوب العربية منذ عام ١٥١٧ م عندما استولوا على مصر وسوريا ومن بعدها امتدت سيطرتهم على بقية ربوع العالم الاسلامى . ولم تجد الشعوب الاسلامية غضاضة فى الحكم

---

(١) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين الطبعة العاشرة ١٩٧٤ ص (٢٥٧) .

التركى تحت شعار الاسلام بل وبعث الأمل فيها من جديد لاعادة مجد الاسلام على يد الأتراك• وكان الاتراك قد اتخذوا الهلال شعارا لهم مذ القرن الثالث عشر باعتباره رمزا دينيا وحربيا • ومن سوء حظ المسلمين أن الأتراك لم يحققوا هذا الأمل وشغلوا ببناء قوتهم العسكرية وتوسيع ملكهم حتى استنزفت قوتهم وانتهى بهم الأمر الى الضعف والتدهور •

وكان شر ما أصيبوا به جمود الحياة الفكرية والثقافية وكانت النتيجة وخيمة على العالم الاسلامى اذ استسلم لفترة من النوم العميق امتدت الى ما يقرب من أربعة قرون • وكان حال العالم الاسلامى فى القرن التاسع عشر أسوأ مما كان فى القرن الثالث عشر وهذا يعنى أن العالم الاسلامى كان متأخرا لست قرون • وكانت أحوال التعليم بالطبع انعكاسا لهذا التأخر • فقد كانت متأخرة أيضا بنفس الدرجة كما سيتضح فيما بعد •

وأصيب الاسلام وهو روح الأمة الاسلامية بالجمود والركود وتحولت ايجابياته الى سلبيات وأصبح شعارا أكثر من عمل • وتوقفت اللغة العربية عن النمو ونافستها التركية فغلبت عليها العجمى • ولم يعد القرآن دستور المسلمين الحيوى بقدر ما كان كتابا يقرأ على القبور ويكتب بماء الذهب بحروف جميلة على ورق مصقول وهو ما اشتهر به الاتراك • ونضب معين الفكر فلم يعد مجاله الا المجادلات الكلامية حول المسائل الشكلية والموضوعات الفقهية الفرعية

ويمكن أن توصف الفترة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى بأنها كانت فترة من عدم الرضا عن واقع العالم الاسلامى وما آل اليه الحال من الانحطاط • وفى هذه الفترة تعالت الدعوات بأنه لا صلاح لحال المسلمين الا بتجديد الاسلام واصلاح العقيدة والعودة الى منابع الاسلام وأصوله وظهرت فى العالم الاسلامى روح الجهاد الوطنى

الدينى التى قادها العلماء المسلمون الوطنيون من أمثال محمد ابن عبد الوهاب الذى يمثل أول صيحة لليقظة الاسلامية فى العصر الحديث وكان طليعة الحركة السلفية التى كان لها دور هام فى التجديد الاسلامى •

كما كانت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ بمثابة ناقوس الخطر الذى نبه العالم العربى الاسلامى وفتح عينه على الفجوة الحضارية الخطيرة بين الشرق والغرب • كما أنها أيضا كانت نذيرا بما يتوعد العالم العربى الاسلامى فى مستقبله من وقوعه تحت سيطرة الاستعمار الفرنسى والانجليزى وفرض التجزئة عليه • ولم تكن الحملة الفرنسية أول من أيقظ العالم العربى فقبل الحملة بعشرين عاما تقريبا علا صوت محمد بن عبد الوهاب فى الحجاز • وكان كما أشرنا أول صوت ينادى بتجديد الاسلام وتصحيح العقيدة ويؤكد أنه لا مخرج للمسلمين مما هم فيه من تخلف الا بالعودة الى أصول دينهم الحنيف •

وبصرف النظر عما يقال من تقليل دور الحملة الفرنسية فى التجديد الثقافى فى مصر والشام فى العصور الحديثة فلا شك فى أنها كانت دافعا قويا لهذا التجديد • لقد كان المضمون التربوى للحملة الفرنسية مضمونا حضاريا وثقافيا وكان لما قام به نابليون من احلال اللغة العربية محل التركية والمصريين محل الأتراك والمماليك فى الحكومة أكثر من مغزى •

وقد تميزت الفترة خلال الحكم التركى العثمانى باتجاهات سلبية وايجابية كان لها تأثير بعيد المدى على التطور الحضارى للبلاد العربية• فعلى الجانب الايجابى كانت هناك الدعوة الى تجديد لاسلام وتصحيح العقيدة وهو ما تمثل فى الحركة السلفية التى بدأها محمد بن عبدالوهاب وتبعه فيها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا وعلى الجانب السلبى كانت هناك دعوات التغريب والتشكيك الفكرى والدعوات الشعوبية وهو ما سنفصل الكلام عنه فى السطور الآتية •

١ ــ الحركة الاصلاحية السلفية والتعليم :

شهدت البلاد العربية ابتداء من النصف الثانى من القرن الثامن عشر انتفاضة ضد الجمود العثمانى والضعف والتخلف الذى سيطر على العالم الاسلامى وقد امتدت هذه الحركة خارج البلاد العربية •

وكانت حركة اصلاحية تجديدية محافظة • فهى محافظة لأنها دعت الى العودة الى المصادر الأساسية للاسلام وهى القرآن الكريم والسنة• وتجديدية فى دعوتها لتجديد الاسلام وتصحيح العقيدة وتخليصها مما علق بها من أوهام وأباطيل تحول دون الفهم الصحيح للدين •

كما دعت الى فتح باب الاجتهاد واحياء الشخصية الاسلامية على أساس الاخاء الاسلامى وتوحيد الاتجاهات الاسلامية بين المسلمين وجعل اللغة العربية صالحة لأن تكون لسان العالم الاسلامى • وقد عرفت هذه الحركة بالسلفية أيضا لأنها تصدر عن السلف الصالح من أمثال ابن حنبل وابن تيمية وابن قيم الجوزية •

جاءت أول خطوة فى هذه الحركة المباركة فى العصور الحديثة من قلب الجزيرة العربية قادها محمد بن عبد الوهاب من الحجاز سنة ١٧٥٨ فكانت تعبيرا صادقا عن أصالة الاسلام • فمن هذه الأرض الطيبة بدأ ومن هذه لأرض الطيبة أيضا قامت حركة تجديده • وكانت حركة رائدة تمثلت بها الحركات الاصلاحية والاسلامية التى تلتها فى العالم الاسلامى ، كالحركة السنوسية فى ليبيا والحركة المهدية فى السودان والدعوة الى الجامعة الاسلامية التى قادها جمال الدين الأفغانى ومن بعده تلميذه محمد عبده وتلميذ التلميذ الشيخ محمد رشيد رضا •

وكانت هذه الحركة الاصلاحية بمثابة المناخ الفكرى الذى قاد حركة النضال ضد الاستعمار فى الوطن العربى فيما بعد • ففى مصر قاد عمر مكرم الحركة الاسلامية الوطنية فى مصر ضد الفرنسيين وضد

الوالى التركى خورشيد حتى عزله وأعلن أن من حق الشعب عزل الحاكم اذا ظلم . وكانت دعوة جريئة تذكرنا بقوة وعظمة المسلمين الأوائل . وفى ليبيا الى جانب الحركة السنوسية كان هناك عمر المختار الذى قاد مقاومة الإستعمار الفرنسى فى الجزائر وعبد الحميد بن باديس فى الجزائر أيضا . ومنهم محمد عبد الله الشوكانى الداعية الاسلامى فى اليمن ومحمود شكرى الألوس فى العراق وخير الدين التونسى فى تونس .

وقد امتد صدى هذه الحركة خارج البلاد العربية الى أصقاع أخرى فى البلاد الاسلامية فقاد المجاهد « شامل » حركته ضد السيطرة الروسية فى القوقاز .

وكان من أهم أساليب الحركة السلفية الاصلاحية فى تحقيق الأهداف التى قامت من أجلها التربية والتعليم فكان محمد بن عبد الوهاب يحارب الأمية فى سبيل نشر الدعوة ويلزم أتباعه بتعليم القراءة والكتابة مهما كانت سنه ومهما كانت منزلته حتى الأمراء كانوا يقرأون مثل بقية الناس . فصار منهم العلماء المعلمون أمثال الامام الأمير سعود الكبير الذى كان يلقى دروسا فى التوحيد الى جانب أعمال الامارة . وكانت طريقته فى التعليم تقوم على ما ذكره فى احدى رسائله :

« اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع رسائل : الأولى العلم وهو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الاسلام بالأدلة . الثانية العمل به . الثالثة الدعوة اليه . الرابعة الصبر على الأذى فيه » .

وقد ساند هذه الدعوة الوهابية الاصلاحية الأمراء السعوديون . ثم جاء الملك عبد العزيز آل سعود فوحد البلاد وأنشأ المملكة العربية السعودية وأقام أسسها على تعاليم الاسلام والدعوة الى العدل والسلام .

وفى ليبيا كانت الحركة السنوسية تركز نشاطها التربوى فى

الزوايا التى كانت تنشئها لا سيما فى برقة • وكانت الزاوية « تعتبر معهد علم ومركز اصلاح ومحكمة للتقاضى وفض الخصومات ومدرسه لتحفيظ القرآن الكريم وتربية الرجال واعداد الدعاةللطريقة وحارسا لحفظ البلاد من غارات الأعداء حيث كانت كل زاوية تضم مسجدا للصلاة ومدرسة قرآنية كما يلحق بها مضيفة خاصة لاستقبال الضيوف للقيام بواجب الضيافة طيلة ثلاثة أيام كما جرى به العرف عند العرب من أهل البلاد » •

وقد انتشرت الزوايا فى كل أنحاء ليبيا حتى أصبح لكل قبيلة زاوية أو أكثر يرسلون اليها أولادهم لحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادىء العلوم الدينية واللغوية وكان المتفوقون منهم يواصلون الدراسة العالية بالزاوية البيضاء وهى الزاوية التى كانت تعتبر بمثابة المركز الرئيسى للزوايا • الا أن هذه الزاوية أسلمت زعامتها فيما بعد الى زاوية الجغبوب التى أنشئت سنة ١٨٥٦ م • وسميت بذلك الاسم نسبة الى مدينة الجغبوب على الحدود الشرقية لليبيا مع مصر •

وكان جمال الدين الأفغانى رائد الجامعة الاسلامية وروحها الدافق وكان مدرسة تربوية تخرج فيها قادة الاصلاح كما كانت خطبه ذات أثر كبير على الجماهير لقد كان داعية الى التحرر من الظلم والاستبداد • وكانت كلماته مؤثرة فى أعماق القلوب مدوية فى النفوس • لقد خاطب المصريين بقوله أنكم معشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد وربيتم فى حجر الاستبداد وتناولتكم أيدى الفرس واليونان والرومان وتسومكم حكوماتكم الحيف والجور والذل وأنتم صابرون صامتون •• انظروا الى أهرام مصر ومشاهدة سيوة وحصون دمياط فهى شاهد بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم • هبوا من غفلتكم واصحوا من سكرتكم وعيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء •

وكان لخطبه وكتاباته أثرا كبيرا فى اليقظة الفكرية الاسلامية وحمل الدعوة من بعده تلميذه الشيخ الامام محمد عبده • وجاهد فى سبيلها

فى مصر وفى سوريا وفى لبنان وتونس والجزائر وفى كل مكان ذهب اليه • وكان يرى أن الطريق الوحيد للنهضة والتجديد فى العـــالم الاسلامى هو التربية وفى ذلك يقول: « اننى أدعو الىالتربية لأننى عرفت أية ثمرة تجديها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال » •

وسار فى هذا الطريق الذى رسمه محمد عبده المسلمون فى المغرب العربى منهم عبد الحميدبنباديسفى الجزائر فقد أنشأ من خلال جمعية العلماء المسلمين التى تزعمها حوالى ٣٠٠ مدرسة حفظت اللغة العربية والاسلام فى الجزائر • ووصل الصدى الى الأصقاع البعيدة فى الهند فنجد هناك أحمد خان ينشىء جامعة عايكرة فى الهند وشبلى النعمانى أنشأ ندوة العلماء فى لكنو بالهند ومن روادها أيضا أبو الحسن الندوى العالم الاسلامى المعروف •

وقد اتجهت ندوة العلماء فى نفس الطريق فقامت بانشاء مدرسة كبرى للعلوم فى مدينة « لكنو » كان عملها الأساسى هو « نشر المعارف واعادة مجد اللغة العربية فى بلاد الهند » •

كما كان السيد أحمد خان مؤسس جامعة عايكرة وسيد أمير على وشبلى النعمانى ومحمد اقبال فى مقدمة الدعاة الذين آمنوا بأن التربيـة والثقافة هى الوسيلة الأساسية لازالة آثار التخلف الاسلامى •

٢ ـ دعوات التغريب والتشكيك الفكرى :

شهدت هذه الفترة دعوات وحركات مختلفة نشـطة للتغـريب والتضليل والتشكيك الفكرى فى الاسلام ومحاربة اللغة العربية وهى الدعامة الأساسية للدين • من هذه الحركات حركة التبشير والحركة الصهيونية والدعوة الى العامية بدل الفصـحى واستخدام الحـروف اللاتينية بدل الحروف العربية وسنفصل الكلام عن كل واحدة منها فى السطور التالية :

الحركة التبشيرية ونشاطها التربوى :

كانت الحركة التبشيرية التى شهدها العالم العربى فى ظل الحكم العثمانى التركى صورة أخرى للحروب الصليبية انتقلت فيها المعركة الى داخل الوطن العربى الاسلامى نفسه • وقد ارتبطت هذه الحركة بنشاط المبشرين من الأوروبيين ، والأمريكيين فى القرن التاسع عشر فى مصر والشام وما قاموا به من انشاء المدارس والمستشفيات لخدمة أغراضهم •

وقد أصبح التبشير حركة عالمية منذ سنة ١٨٣٠ عندما أقـره البابوات ورسموا خطته ورصدت له الدول الأوروبية الأموال الضخمة للانفاق عليه • وقد سار العمل التبشيرى فى طريقين :

١ ــ طريق الاحتلال العسكرى وليس من قبيل الصدفة أن تقوم فرنسا باحتلال الجزائر فى نفس السنة التى أصبح فيها التبشير حركة عالميــة •

٢ ــ طريق العمل التربوى وكان فى تأثيره أقوى مضاء من السيف وقد عملت الحركة التبشيرية على ترويج الأفكار التى تخدم مصــالح التبشير وفى مقدمتها التشكيك فى القيم العربية الاسلامية وفى التاريخ الاسلامى وفى فضل العرب والمسلمين على الحضارة العالمية • وقد تغذت فى نشر أفكارها على الشبهات والمزاعم التى أثارها المستشرقون •

وقد اهتمت حركة التبشير بانشاء مدارس رياض الأطفال ومدارس البنات بصفة خاصة ليسهل التأثير على عقول النشء • وقد عبرت عن هذا أحسن تعبير احدى المبشرات فى كلامها عن مدرسة تبشيرية للبنات بالقاهرة قالت :

« فى هذه المدارس بنات الباشوات والبكوات وليس هناك مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ

التبشيرى وليس هناك طريق الى حصن الاسلام أقصر مسافة من هــذه المدرسة » •

وقد عبرت بصراحة عن هذا الهدف القرارات التى اتخذتها مؤتمرات التبشير العالمية التى عقدت فى العواصم الاسلامية والاوروبية فى النصف الأول من القرن العشرين • فقد ورد فى هذه القرارات فيما يتعلق بالتربية والتعليم ما نصه :

« يجب أن يكون العمل فى كل ميدان موجها نحو النشء الصغير من المسلمين • ويجب أن يقدم هذا العمل على كل عمل عداه فى الأقطار الاسلامية ذلك أن بزوغ روح الاسلام فى النشء الحديث يبدأ فى فترة مبكرة من عمره ومن ثم يجب أن يؤتى بالنشء الصغير من المسلمين قبل أن يتكامل نمو عقلهم ويتم ابعادهم عن القوالب الاسلامية فتقســــو عقليتهم وأخلاقهم • ان التعليم التبشيرى ما يزال أفضل طريقة للوصول الى المسلمين » •

ومن الاشارات ذات المغزى عن دور الاستعمار فى مناهج التربية فى العالم الاسلامى اشارة تقول « أن السياسة الاستعمارية لما قبضت على برامج التعليم فى المدارس الابتدائية حذفت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام وبذلك أخرجت ناشئة لا هى مسلمة ولا هى مسيحية ولا هى يهودية ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعــرف حقا فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة » •

والى جانب المدارس اهتمت الحركة التبشيرية بانشاء المستشفيات لعلاج الطبقة الفقيرة وتقديم المساعدات الاجتماعية لهم بهدف التأثير على نفوسهم ، وأفكارهم •

وكانت مالطة أول مركز للبعثات التبشيرية فى الشرق الأوسط منذ

مطلع القرن التاسع عشر • وكانت بيروت ثانى مركز وفيه تركزت الحركة التبشيرية وأنشأت بها جماعة الجيزويت الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأمريكية) سنة ١٨٦٦ التى لعبت دورا تربويا بارزا • فقد خرجت منذ نشأتها الآلاف ومنهم الكثيرون الذين تولوا مراكز القيادة فى البلاد • وكان منهم رؤساء الوزارات والأساتذة ورجال الفكر والصحفيين والقضاة والأطباء • والى جانب الكلية السورية الانجيلية أنشئت كلية القديس يوسف (الكلية الفرنسية) سنة ١٨٧٣ •

كما كان للجمعيات التبشيرية فى لبنان مدارسها الابتدائية والثانوية •

وكان انشاء جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية التى تأسست فى بيروت بأوقافها الخاصة من أراضى وعقارات فى عهد مدحت باشا الوالى التركى رد فعل للمدارس التبشيرية • اذ كان الغرض من انشائها تهيئة السبل لانشاء مجالس اسلامية تعنى بشئون التعليم الخاص بالطائفة الاسلامية على غرار المجالس المحلية التى تتعهد شئون التعليم لدى الطوائف المسيحية •

وكانت مصر تقوم بتزويد هذه المدارس بالمدرسين والكتب وفى سوريا وجدت الجمعية العلمية السورية التى أنشئت سنة ١٨٤٧ بتوجيه وحماية المبشرين الأمريكيين وحملت لواء الدعوة الى القومية العربية لتفت فى عضد الاسلام •

وكان فى المغرب مدارس أنشأتها الارساليات اليهودية والمسيحية منذ أوائل القرن التاسع عشر • ووجدت المدارس التبشيرية فى السودان فى النصف الأول من القرن العشرين وقد جاهر غوردون بضرورة تنصير السودان • وجدت المدارس التبشيرية فى استانبول فى قلب الدولة العثمانية نفسها • ذلك أن السياسة الداخلية للدولة العثمانية منحت

الطوائف الدينية من غير المسلمين امتيازات خاصة فى كل ما يتعلق بالشئون الدينية • واعتبرت شئون التعليم من الأمور المرتبطة بالأديان فخولت الطوائف المسيحية والاسرائيلية حق تأسيس المدارس وادارتها •

وكانت فرنسا أنشط الدول الأجنبية فىالتبشير لأنها اعتبرت نفسها حامية الكاثوليك كما اعتبرت روسيا القيصرية نفسها حامية الطائفة الأرثوذكسية وأسست لها مدارس فى الشام • وكانت الارساليات الانجليزية والأمريكية من أغنى الارساليات وأنشطها كما كان هناك مدارس أنشأتها الارساليات الألمانية والايطالية والايرلندية والدانمركية• وفى مصر وجدت الحركة التبشيرية لها مجالا خصبا فى ميدان التربية فى القرن التاسع عشر •

ففى سنة ١٨٤٠ أنشأ الآباء العازاريون أول مدرسة فرنسية لهم فى الاسكندرية وكذلك أنشأت الجمعية الانجيلية البروتستانتية مدارس لها • وتبعهم الفرير والارسالية الأمريكية البروتستانتية وتبعهم بعد ذلك الآباء الجزويت — وحتى عام ١٨٧١ كانت توجد ١٦٠ مدرسة أجنبية تضم ٥٥٩١ تلميذا • ولم تكن هناك أى قيود على هذه المدارس بل ان الأغرب من هذا أن هذه المدارس كانت تلقى التشجيع الأدبى والمادى من الحكام المصريين فكانت تقدم لها الهبات وتمنح الأراضى وكميات سنوية من القمح وتدفع لها أجور مرتبات معلمى اللغة العربية وتقدم لها مجانا الكتب الدراسية ومساعدات مالية سنوية أيضا •

الحركة الصهيونية :

شهد العالم الاسلامى فى العصور الحديثة أكبر مؤامرة تدبر ضده وتعتبر امتدادا للحروب الصليبية التى انتهت بالنصر للمسلمين • وأخذت الحركة التبشيرية صورة أخرى للحروب الصليبية انتقلت فيها المعركة الى قلب الوطن العربى الاسلامى ذاته وقد فصلنا الكلام عن ذلك فى تناولنا للحركة التبشيرية •

وكانت الصهيونية صورة أخرى للحروب الصليبية استهدفت ايجاد جسم غريب دائم يعمل على استنزاف طاقات العالم العربى الاسلامى ويشتت جهوده ويحول دون تقدمه • وقد عملت الحركة الصهيونية منذ نشأتها على يد هرتزل فى نهاية القرن التاسع عشر على تزييف حقائق الاسلام وتشويهها فى كل الموسوعات التاريخية والثقافية فى الغرب كما شوهت الصورة العربية فى أعين الأوروبيين وغيرهم • وقد انتهى الأمر بالصهيونية الى خلق كيان لها فى الوطن العربى • ووجودها يفرض على البلاد العربية تحديا حضاريا خطيرا تلعب التربية والتعليم الدور الرئيسى فى تحديد النتيجة النهائية له • فقد أثبت هذا التحدى أن العبرة ليست بكم البشر وأن على الدول العربية أن تأخذ بالأسلوب الحضارى الشامل اذا كان عليها أن تثبت وجودها أمام هذا التحدى الخطير •

الدعوة الى العامية واستخدام الحروف اللاتينية :

بدأت الدعوة الى العامية بدل الفصحى فى مصر فى يناير سنة ١٨٩٣ عندما ألقى المهندس الانجليزى وليم ويلكوكس محاضرة فى نادى الازبكية كان موضوعها لماذا لا توجد الآن لدى المصريين قوة الابتكار ؟ زعم فيها أن قوة الابتكار تأتى من قوة الفكر التى يرثها الفرد عن أبيه ومن قوة الخيال التى يرثها عن أمه • وقال ان أهم عائق يمنع المصريين من الابتكار أنهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى ولو أنهم ألفوا وكتبوا باللغة العامية لصاروا مبتكرين • واستدل على ذلك بأن الانجليز لم يكونوا مبتكرين عندما كانوا يؤلفون ، باللاتينية فلما اختاروا لغة الفلاحين وكتبوا بها صاروا مبتكرين • وضرب مثالا بشكسبير وبيكون • وقد قام ويلكوكس بترجمة الانجيل الى اللغة العامية المصرية كما ألف كتبا بالعامية المصرية أيضا وكان يوزعها مجانا على الناس • وللاسف أن الدعوى الى العامية رغم ما فيها من شر مستطير لا يخفى على العيان فانها قد وجدت آذانا صاغية تستجيب لها• وقد ردد سلامة موسى فى مجلة « الهلال » دعوة « ويلكوكس » الى

العامية وأثنى على ويلكوكس كأحد الانجليز المخلصين لمصر شغفا بها كثيرا حتى أصبحت همومه مصرية أكثر منها انجليزية .

وكانت الدعوة الى العامية رد فعل للشبهات التى أثيرت حول قدرة اللغة الفصحى على الوفاء بمتطلبات العصر من ناحية وأنها لغة لا تستخدم فى التخاطب من ناحية أخرى كما كانت أيضا هناك دعوة أخرى مغرضة ترمى الى احلال الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية . وهى دعوى سلمت منها البلاد العربية الاسلامية وأثبتت أنها قادرة على تحدى كل محاولات التغريب والتشكيك .

وللأسف أن الدعوى الى استخدام الحروف اللاتينية قد وجدت من أبناء العربية من يناصرها فهذا عبد العزيز باشا فهمى أحد شيوخ مجمع اللغة العربية يقدم الى المجمع فى أوائل شهر مايو سنة ١٩٤٣ اقتراحا بتيسير الكتابة العربية عن طريق استخدام الحروف اللاتينية بدل العربية . وكتب أنيس فريحة ، استاذ اللغة العربية فى الجامعة الأمريكية ببيروت يقول « يطالب بعض الناس بتبنى الحرف اللاتينى تسهيلا للقراءة وتخفيفا لنفقات الطباعة ونحن من المؤمنين بهذه النظرية ولا نرى حلا للكتابة الا بتبنى الحرف اللاتينى وضبط الكلمات فيه مرة واحدة .

وكان دعاة استخدام الحروف اللاتينية هم دعاة استخدام العامية بدل الفصحى وفى ذلك يقول أنيس فريحة أيضا :

« ان الفصحى ليست لغة الكلام فلا يرجى منها أن تعبر عن الحياة بحلاوتها ومرارتها وقسوتها ولينها كما تستطيع العامية الدليل ظاهر فانك لا تستطيع أن تقول بالفصحى ما تقوله بالعامية واذا نقلته الى الفصحى أتى قاسيا جافا خلوا من العنصر الانسانى اللصيق باللغة » .

ان من الغريب أن يأتى هدم اللغة الفصحى من أناس تصدوا

لخدمتها والعمل على رفعتها • ويبدو أن هذه الدعوة اختلطت بدعوات أخرى منها تبسيط اللغة العربية من حيث قواعدها وأسلوب كتابتها دون هجرها الى غيرها ، والارتقاء باللغة العامية لتقترب من الأدبية الفصحى وقضية تعريب الكلمات الأجنبية بالعربية ، وتقريب الفجوة بين اللغة الفصحى والعامية وتجديد الأدب العربى •

ظهور الدعوات الشعوبية :

كان من أهم الملامح السلبية التى ظهرت فى البلاد العربية فى ظل الحكم التركى العثمانى فى القرن التاسع عشر الدعوات الشعوبية المختلفة • وكانت هذه الدعوات غريبة عن روح الاسلام فلا شعوبية فى الاسلام وقد ظل طيلة ثلاثة عشر قرنا من الزمان سابقة لهذه الفترة يدعو الى الاخوة البشرية والمساواة الانسانية •

فنجد الدعوى الطورانية أو الجامعة التركية التى كانت ترمى الى سلخ تركيا عن الاسلام وبعث حضارتها الجاهلية القديمة لأن الاسلام فى نظرهم ، لا يصلح لشأنهم ودعت الى العودة الى أسلافهم الطوارنيين • فكعبتهم طوران ومثلهم الأعلى جنكيز خان وأمجادهم فتوحات المغول • وكان شعارهم اهمال الجامعة الاسلامية التى دعى اليها الأفغانى الا اذا كانت خادمة للدعوى الطورانية وهذا يعنى أنهم أتراك أولا ومسلمون ثانيا • كما ظهر حزب تركيا الفتاة فى نفس الاتجاه •

وظهرت القومية فى فارس أيضا وأخذ كثير من الفرس يبحثون عن دين فارس القديم كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية وغيرها • وظهرت أيضا الدعوات الاقليمية الانفصالية كالدعوة الى مصر الفرعونية ولبنان الفينقية والعراق الآشورية وفى المغرب العربى كانت الدعوة الى الانتماء الى الاصول العرقية للبربر •

وهذه الدعوات كانت خطيرة على العالم العربى الاسلامى وعملت

على بلبلة الأفكار وتفتيت الوحدة الاسلامية كما ساعدت على تعميــق التناقضات الفكرية والثقافية فى البلاد العربية • وكان من أخطر القضايا التى عرفها العالم العربى آنذاك أيضا الدعوة الى القومية العربية •

ان الدعوى القومية غريبة عن روح الاسلام لأن الاسلام كما هو معروف لا يعرف الشعوبية ولا التعصب العرقى • وقد جاء للناس كافة دون تميز فى الجنس أو اللون أو الغنى أو الفقر • وجاء ليقرر أن الناس كأسنان المشط فى المساواة ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى • ومن المعروف تاريخيا أن الدعوة الى القومية العربية لم تعرف طريقهــا الى العرب الا خلال القرن الماضى وقد كان دخول الفكرة القومية الى العرب تحت عاملين رئيسيين :

أولهما : سياسة التمييز الدينى التى اتبعتها الخـــلافة التركية الاسلامية بين العرب والمسلمين وبناء على هذه السياسة عاملت تركيا غير المسلمين معاملة الاقليات الأجنبية • وعلى الرغم من الاعتراض الذى يمكن أن يوجه لهذه السياسة فان المسيحيين العرب تمتعوا بميزات لم يكن يحظى بها اخوانهم من المسلمين العرب وهى حقهم فى انشـــاء المدارس الخاصة بهم التى كانت تعلم باللغة العربية • هذا فى حــين أن المسلمين العرب كانوا تائهين فى ظل النظام التركى الذى فــرض اللغة التركية لغة للتعليم وكانت تدرس العربية كلغة أجنبية هامشية • ومن هنا يمكن أن نفهم السر فى كون كثير من حملة مشعل الثقــافة العربية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر من غير المسلمين العرب • وقد ساعد ذلك من ناحية أخرى على تأجج الشعور القـــومى لدى المسيحيين العرب وأخذوا يبحثون عن الرباط الذى يربطهم بهذا الوطن الذى نبتوا على أرضه وبين أحضانه ترعرعوا ولكنهم يعاملون فيه من قبل تركيا معاملة الغرباء • وقد جاءتهم الاجابة من أوروبا التى كانت تعيش فى ذلك الوقت فترة تعرف فى تاريخ أوروبا بتكوين القوميات

وكان لهذه السياسة آثار تربوية بعيدة المدى على العالم العربى الاسلامى وهو ما سنعرض له عند الكلام عن السياسة التربوية للدولة العثمانية .

العامل الثانى : يتمثل فى حرب القوميات التى كانت تخوضها أوربا فى القرن التاسع عشر وهو القرن الذى يلقب بقرن القوميات . فقد عمت أوروبا موجة من الشعور القومى الذى يستند على أساس فكرة هيجل التى تقول بأن الدولة الحقة هى التى تتكون من قومية واحدة . ونظرا لأن الدول الأوربية لم تكن قائمة على هذا الأساس وانما على قوميات مجزأة بين دول مختلفة فقد بدأت نيران الحرب تضطرم بين هذه الدول من أجل تحقيق الفكرة القومية لها . وهكذا شهدت أوروبا صراعا مريرا فى سبيل تشكيل قومياتها وتحقيق الوحدة القومية لها . وفى هذا الوقت الذى كان يحتدم فيه هذا الصراع كان المسيحيون يبحثون عن سند حقيقى يستندون فيه لتبرير وجودهم العربى . وهكذا كانت فكرة القومية العربية فكرة خلابة بالنسبة لهم جذبتهم اليها ببريقها وتحمسوا لها . وقد جاءتهم نتيجة اتصالهم بأوروبا من خلال الروابط الكنسية والدينية .

وكان فى مقدمة النتائج التى ترتبت على ذلك تعريب الكنائس المسيحية العربية واستخدام اللغة العربية فى الصلوات والطقوس والترانيم الكنيسية .

وهكذا دخلت فكرة القومية العربية الى البلاد العربية فى القرن التاسع عشر فقط على يد المسيحيين العرب . وقبل هذا القرن لم يكن لهذا المصطلح وجود بل ان شيوع استخدامه فى العربية يرجع الى هذا التاريخ الحديث . ومن هنا أيضا تكرر القول بأن فكرة القومية هى فكرة غريبة عن الثقافة العربية الاسلامية وتعتبر فكرا دخيلا عليها على الرغم من الترويج الكبير ا... حمس له الكثيرون فى السنوات الأخيرة وقد ترتب على ذلك وجود كثير من الدعاوى التى أحدثت البلبلة فى العقول واختلطت الامور أمام أعين الكثيرين حتى المفكرين منهم لدرجة أننا نجد

عالما مسلما كبيرا مثل ساطع الحصرى على ما له من أفضال علمية كبيرة يؤلف كتابا بعنوان له معناه هو « العروبة أولا » • أن الاســـلام ينبغى أن يفهم لا على أنه دين فحسب انه نظام حياة اجتماعية تشمل المسلمين والمسيحيين على السواء باعتراف المنصفين من المســيحيين أنفسهم • ويقول منيف الرزاز فى كتابه معالم الحياة العربية الجديدة ان المسيحيين العرب لم يكتسبوا صفتهم العربية الا من خلال الاسلام فمن أين جاءهم اللسان العربى المبين الذى يتحدثون به ويكتبون ويؤلفون به ؟ وعندما نقول اللسان فاننا نعنى بذلك ما يرتبط باللغة من فكر ومعان باعتبارها الوعاء الثقافى وليست مجرد كلمات أو وســيلة للاتصـال يضاف الى ذلك أن التراث المسيحى نفســه جزء لا يتجزأ من تراث الاســلام •

وهكذا ينبغى أن نفهم الاسلام على أنه ثقافة تتكامل فى جوانبها المختلفة تقوم فى أساسها على اللغة العربية وهو بهذا ينســحب على المسلمين وغيرهم على السواء طالما انهم يعيشون على أرض وطن واحد يجمعهم انتماء مصيرى يربط بينهم •

السياسة التعليمية التركية فى البلاد العربية :

قامت السياسة التعليمية التى اتبعتها السلطات التركية العثمانية فى البلاد العربية على أساس جعل اللغة التركية اللغة الرسمية فى دواوين الحكومة ولغة التعليم فى المدارس وكان فرض اللغة التركيــة كلغة رسمية للحكومة مثارا لشكوى الناس وسخطهم لتعطــل أمورهم ومصالحهم بسبب جهلهم باللغة التركية • فكان الضباط المتقاعدون فى الجيش العثمانى يقومون بتعليم اللغة التركية فى المدارس القائمة فى الولايات العربية الاسلامية •

وكان التعليم فى هذه الولايات تعليما دينيا تقليديا وكان يتم فى الكتاتيب والمساجد والزاوايا أو المدارس التى أنشئت بالجهود الفردية وغيرها •

وهذه المعاهد التعليمية كانت تقتصر على تعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادىء الدين أى انها اقتصرت على العلوم النقلية وأهملت العلوم العقلية ٠ ومن كان يريد اكمال تعليمه كان يرحل الى الجامع الأزهر فى مصر أو جامع الزيتونة فى تونس ٠ وفى العهد العثمانى ظل التعليم التقليدى على حاله متروكا للجهود الأهلية والفردية والتطوعية ولم يعط التعليم الحديث أى اهتمام من جانب العثمانيين لفترة طويلة حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بل وعندما بدأوا يظهرون نوعا من الاهتمام به استخدموه لخدمة أغراضهم العسكرية ٠

وكان للهزائم المتتالية للسلطنة العثمانية أمام الدول الأوربية رد فعل كبير على الاصلاحات التعليمية والأخذ بالتعليم الحديث ٠ فقد كانت الرغبة فى بناء جيش حديث على غرار الجيوش الأوربية الدافع الرئيسى وراء انشاء المدارس الحديثة فى السلطنة العثمانية « ولذلك نجد أن المعاهد التعليمية التى أنشئت فى بدء اليقظة الفكرية والسياسية فى الدولة العثمانية » كانت كلها من نوع المدارس العسكرية المقتبسة من النظام الفرنسى ٠ فقد كانت فرنسا آنذاك من أقوى الدول الأوروبية وكان الغرض الأساسى من انشاء هذه المدارس تعليم الفنون العسكرية ٠ وكان دخول العلوم الحديثة كالتاريخ والجغرافيا والعلوم والرياضة والطبيعة ضرورة استلزمها تعليم الفنون العسكرية فى المراحل التعليمية المختلفة ٠ وكانت هذه المراحل تتمثل فى المدارس الابتدائية وكان يدرس بها اللغة التركية والتاريخ التركى الى جانب اللغة العربية والدين الاسلامى والجغرافيا والرياضيات ، والمدارس الرشدية وهى مدارس حديثة أو عسكرية متوسطة مدتها ثلاث سنوات وكانت اللغة التركية لغة التعليم بها وكان المعلمون من الاتراك غالبا ، المدارس الاعدادية العسكرية التى تقوم مقام المدرسة الثانوية وأخيرا المدارس العسكرية ، الاختصاصية التى تقوم مقام المدارس العالية ٠ وكانت هذه

المدارس العسكرية العالية موجودة فى استانبول عاصمة الدولة العثمانية وحدها وأما المدارس الاعدادية والرشدية العسكرية فقد كانت موجودة فى الولايات تحت الإدارة العثمانية وكان الطلاب يتمون الدراسة الرشدية والاعدادية فى مراكز الولايات التى ينتسبون اليها وبعد ذلك ينتقلون الى عاصمة الدولة لاتمام دراستهم العالية فى المعاهد القائمة فيها • وكانت الولايات العربية ترسل بعثات طلابية لمواصلة تعليمهم فى المدرسة العسكرية العالية وكذلك للالتحاق بمدرسة العشائر التى كانت أيضا فى عاصمة السلطنة فى استانبول وكان هدفها تعليم أبناء العشائر تعليما خاصا يؤهلهم لتولى بعض الخدمات العسكرية والمدنية •

وهناك نقطة أخرى هامة تتعلق بالسياسة التعليمية للدولة العثمانية فى البلاد العربية هى أن السياسة الداخلية للدولة العثمانية منحت الطوائف الدينية من غير المسلمين امتيازات خاصة فى كل ما يتعلق بالشئون الدينية • وقد اعتبرت الدولة العثمانية شئون التعليم من الأمور المرتبطة بالاديان والمذاهب فخولت جميع الطوائف المسيحية والاسرائيلية حق تأسيس المدارس وادارتها أيضا • وكانت هذه المدارس الطائفية فى بادىء الأمر من نوع المدارس الدينية حقيقة غير انها تطورت بعد ذلك بسرعة وتحولت الى معاهد تعليمية عصرية • وكانت هذه المدارس تسير على مناهج خاصة بها تختلف باختلاف أديان الجماعات ومذاهبها ولا تمت بأى صلة الى مناهج المدارس الحكومية واتجاهاتها • وكثيرا ما كانت تستلهم خططها ومناهجها من المدارس الأجنبية المؤسسة داخل البلاد العثمانية أو من البلاد الاجنبية نفسها وكانت الحقوق الممنوحة لهذه الطوائف تشمل « لغة التعليم » بهذه المدارس أيضا • فكان يجوز لكل طائفة أن تعلم أبناءها بلغتها وكان للمسيحيين العرب الحق فى أن يعلموا فى مدارسهم باللغة العربية • وقد أدت هذه السياسة العثمانية الى نتائج غريبة بالنسبة للبلاد العربية • فقد ترتب عليها نشاط كبير فى انشاء المدارس الطائفية والاجنبية كما أدت الى مفارقات ثقافية بين

العرب المسلمين واخوانهم العرب المسيحيين : فقد انحصرت الفرص التعليمية المتاحة أمام العرب المسلمين فى الكتاتيب والمدارس القديمة أو المدارس الرسمية التى كانت تعلم باللغة التركية فى حين أن اخوانهم المسيحيين أسسوا مدارس خاصة بهم وجعلوا اللغة العربية لغة التعليم بها • ولهذا السبب انتشر التعليم العربى الحديث بين المسيحيين قبل المسلمين • ولهذا السبب أيضا كان معظم الكتاب والمؤلفين والخطباء الذين ظهروا فى الولايات العربية فى العهد العثمانى مسيحيين بالرغم من قلة عدد هؤلاء بالنسبة الى المسلمين •

وقد لعبت المدارس الاجنبية دورا تأثيريا مماثلا • فقد تأسست هذه المدارس فى أول الأمر على أيدى الارساليات الدينية والجماعات التبشيرية • وكانت كل ارسالية من هذه الارساليات تعتمد على دولة من الدول الأجنبية وتصبح بذلك واسطة لنشر لغة تلك الدولة بجانب تعليم العلوم المختلفة من جهة وتعلم اللغة العربية ، لاجتذاب العرب اليها من جهة أخرى •

وكانت فرنسا أنشط الدول الأجنبية فى هذا المضمار لأنها اعتبرت نفسها حامية الكاثوليك كما كانت روسيا القيصرية حامية الارثوذكس وأسست لها مدارس فى الشام وهو ما أشرنا الى تفصيله فى الكلام عن الحركة التبشيرية •

وقد أشرنا الى أن اللغة التركية كانت اللغة الرسمية فى المدارس والدواوين فى البلاد العربية باعتبارها لغة أصحاب السلطان • وكانت اللغة العربية تعيش غريبة فى وطنها وكانت تدرس كلغة أجنبية حتى غلبت عليها العجمى • وقداستمرنفوذاللغة التركية حتى أخذت البلاد العربية فى الاستقلال عن الدولة العثمانية • وكانت مصر أسبق الدول العربية فى ذلك • ومع ذلك ظل نفوذ اللغة التركية فيها قويا واستمرت تدرس باهتمام حتى سنة ١٨٨٨ عندما أصبحت لغة اضافية تدرس اختياريا لمن يرغب فى دراستها •

الفصل التاسع

اعلام النهضة التربوية
فى الشرق العربى الحديث

اعلام النهضة التربوية فى الشرق العربى الحديث :

سنحاول فى السطور التالية أن نعرض لآراء بعض أعلام النهضة التربوية فى الشرق العربى فى العصور الحديثة وهم :

رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك والشيخ محمد عبده .

رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ ــ ١٨٧٣ م) :

ينتسب الطهطاوى من ناحية أبيه الى الحسين بن فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام . وترجع تسميته بالطهطاوى الى بلدته طهطا فى صعيد مصر . وقد ولد بها عام ١٨٠١ م .

ويؤخذ مما كتبه عن نفسه أن أجداده كانوا من ذوى اليسار لكن الدهر أخنى عليهم .

وقد تهيأت له فى طفولته ثقافة أزهرية حتى قبل أن يدخل الأزهر اذ قرأ بعض المتون الأزهرية على أخواله ومنهم بعض علماء الأزهر كالشيخ عبد الصمد الأنصارى والشيخ أبو الحسن الأنصارى والشيخ فراج الأنصارى .

وعندما توفى والده قدم الى الأزهر وانتظم فى الدراسة به . ودرس على أيدى علمائه المشاهير من أمثال الشيخ حسن العطار العالم

اللغوى والشاعر الكاتب الذى خص الطهطاوى بعنايته لما لمسه فيه من نبوغ • وكان الطهطاوى يتردد على منزله لينهل من علمه ويشترك معه فى الاطلاع على الكتب العربية التى لم تتداولها أيدى علماء الأزهر •

ولما اكتمل تعليم الطهطاوى اشتغل بالتدريس فى الأزهر ثم سافر سنة ١٨٢٦ بتزكية من الشيخ حسن العطار مع البعثة التى أوفدت الى فرنسا ليكون اماما لها • وهناك تعلم الفرنسية ودرس أصول الترجمة طيلة خمس سنوات • واشتغل بها بعد عودته الى مصر •

ولعل أهم حدث فى حياته بعد عودته من البعثة هو نفيــه الى الخرطوم ، سنة ١٨٥٠ ويقال أن لكتابه « تخليص الابريز فى أخبار باريز » صلة بنفيه اذ أن الكتاب يحوى آراء وأفكارا تحررية لا ترضى حاكما مستبدا مثل الخديو عباس وكان الكتاب قد طبع للمرة الثانية فى أوائل عهده • لكن الطهطاوى يقول فى تفسير سبب نفيه انه سافر الى السودان بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرســة الخرطوم •

ويبدو من الاشعار التى نظمها أن الطهطاوى كان متألما لنفيــه ويصور الأمر على أنه وشاية فيقول :

وما خلــت العـــزيز يريد ذلى ولا يصــغى لأخصـــام لــداد

لديه ســعوا بألســنة حـــداد فكيف صغى لألســنة حـــداد

• • • • •

رحلــت بصفقة المغبــون عنهــا وفضلى فى سواها فى المــزاد

وما السودان قط مقــام مثــلى ولا سلماى فيها ولا ســعادى

وقد قضى الطهطاوى فى السودان أربعة أعوام كانت قاسية على نفسه لاغترابه عن أسرته وأهله وبعد عودته من السودان عين ناظــرا

لمدرسة الحربية بالقلعة ومعها نظارة قلم الترجمة والمحاسبة والهندسة الملكية والتفتيش والعمارة • ثم ألغيت المدرسة الحربية وقلم الترجمة وما معها وعين عضوا فى قومسيون المدارس ووكل اليه الاشراف على صحيفة روضة المدارس التى أنشأها على مبارك سنة ١٨٧٠ ، وكانت مجلة علمية أدبية اجتماعية •

وكان للطهطاوى فضل كبير فى حركة الترجمة والنشر فقد كان رائدا لها • وبفضل جهوده أنشئت مدرسة الترجمة سنة ١٨٣٥ م والتى عرفت بمدرسة الألسن فيما بعد وصار ناظرا ومديرا لها •

وقد كتب الطهطاوى وترجم كثيرا وألف عدة كتب من أهمها :

تخليص الابريز فى أخبـــار باريز :

وهو كتاب مؤلف وصف فيه رحلته لباريس منذ مغادرته لمصر حتى عودته اليها • وقد وصف فيه أحوال فرنسا وأخلاق أهلها وعاداتهم وعلومهم وفنونهم وأساليب حكمهم ومعيشتهم •

مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية :

وهى مجموعة دراسات فى الآداب والأخلاق وقد وصف فيهـــا مصر وحضارتها كما ضمت دراسات قيمة فى الآداب من ثمار الكتب العربية والفرنسية ودراسات فىالأخلاق والمواعظ •

المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين :

وهو كتاب ضـــمنه آراء فى التربية والتعليم مما ســـنعرض له بالتفصيل فيما بعد •

كما كان له الفضل فى نشر العلوم والمعارف بحمل الحكومة على طبع طائفة من أمهات الكتب العربية على نفقتها مثل : تفسير الفخرى الرازى ومعاهد التنصيص وخزانة الأدب ومقـــامات الحريرى وغـــير ذلك •

آراؤه التربــوية :

يعتبر الطهطاوى أول من كتب بتوسيع عن التربية فى العصـــور الحديثة فى العالم العربى • وكان فى كتاباته عنها متأثرا بما كتبـــه سابقوه عن التربية الاسلامية وردد آراءهم كما كان لدراسته فى فرنسا واقامته بها أثر واضح على آرائه •

والتربية فى نظره تعنى تنمية الأعضاء الجسمية والعقليــة وهى طريقة تهذيب النوع البشرى ذكرا كان أم أنثى ليتحصل له أســباب السعادة والسيادة[١] •

تعميم التربية واجب :

يرى الطهطاوى ضرورة تعميم التربية وشمولها لجميع أبناء الأمة ذكورا واناثا على السواء وفى ذلك يقول :

« وبالجملة فتربية أولاد الملة وصبيان الأمة وأطفال المملكة ذكورا واناثا من أوجب الواجبات »[٢] • ويضرب المثل بتربية أمة اليونان القديمة المشهورة بالحكمة فى قديم الزمان والتى كانت تحسن تربيـــة أبناء ملوكها غاية الاحسان كما كانت تحسن تربية أطفالها وصغارها على القوة والشجاعة •

ويشير الى تربية الاسكندر الأكبر بقوله أنه « ترشح بتهـــذيب أســـتاذه أرسطو الى أن ملك الدنيـــا وهزم فى كل الممـــالك الملوك والعســـكر » •

كما يشير الى التربية الأوربية فى مساواتها بين تربية الأولاد والبنات وهو يشيد بالتربية عند العرب القدماء وعنايتهم بالتربية على الشجاعة والبطولة •

---

(١) محمد عمارة : الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى — المؤسســـة العربية للدراسات والنشر — بيروت جـ ٢ ص ٣٨٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٩٢ .

مراعاة ميــول المتعلم :

آمن الطهطاوى بضرورة مراعاة ميول المتعلم وتوجيهه وفق هذه الميول الى دراسة العلوم التى تناسبه وهذا التوجيه التعليمى يتأتى بعد أن ينتهى المتعلم من دراسة العلوم الابتدائية والتجهيزية (الثانوية) وبعدها يظهر ميله الى الخصوصيات التى تناسبه من الصنائع والفنون • وهو يحث أهل الخير أن يساعدوا من يخرج من مجال التعليم ببضاعة رابحة على نيل الوظائف الأهليـــة العمومية الكافية لقدام معاشــهم وانتعاشهم •

أنواع التعليم :

تحدث الطهطاوى عن أنواع التعليم العام ومراتبه فقسمها الى ثلاثة أنواع : تعليم أولى أو ابتدائى وتعليم ثانوى تجهيزى وتعليم عال كامل انتهائى[1] •

التعليم الأولى والابتدائى :

وهو فى نظره تعليم عام لجميع الناس ينتفع به أبناء الأغنيـــاء والفقراء على السواء ذكورهم واناثهم • وهو « عبارة عن تعلم القراءة والكتابة ضمن تعليم القرآن الشريف والنحو ومبادىء الحســاب والهندسة » وهو يعتبر « التعليم الأولى ضروريا لسائر الناس يحتاج اليه كل انسان كاحتياجه الى الخبز والماء » وهى عبارة تردد صداها عند طه حسين فيما بعد عندما نادى بأن التعليم حق لكل انسان كالمــاء والهــواء •

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٧ •

التعليم الثانوى أو التجهيزى :[1]

وهو يعتبره تعليما أكثر صعوبة من سابقه ولذلك « فهو فى الغالب لا يلتفت الى البراعة فيه وغالب الأهالى » وينبغى للحكومة أن ترغب الأهالى وتشوقهم اليه نظرا لأهميته • فبهذا التعليم فى نظره يكون تمدين جمهور الأمة وكسبها درجة الترقى فى الحضارة والعمران •

وأنواع هذا التعليم كثيرة فيما ينبغى أن يشتغل به أبناء الأهالى منهم المهم فالأهم كالعلوم الرياضية بأنواعها والجغرافيا والتاريخ والمنطق وعلم المواليد الثلاثة (أى الحيوان والنبات والمعادن) والطبيعة والكيمياء وادارة الملكية وفنون الزراعة والانشاء والمحاضرات وبعض الألسنة الأجنبية التى يعود نفعها على الدولة •

وقد يبدو غريبا على رجل مثل الطهطاوى الذى يعرف قدر اللغات الأجنبية أن يضع تعليمها فى آخر القائمة • وهو يرى أن يكون التعليم الثانوى كثيرا منتشرا فى أبناء الأهالى القابلين له الراغبين فيه فيتاح لهم التعليم ليكونوا من الدرجة الوسطى وهو بهذا ترك التعليم الثانوى اختياريا لمن أراد وكان قادرا على الاستفادة منه •

التعليم العالى :

هو يسميه درجة العلوم العالية ويقصد به اشتغال الانسان بعلم مخصوص يتبحر فيه بعد تحصيله علوم المبادىء والتجهيزات (أى العلوم الابتدائى والثانوى) ويضرب أمثلة لذلك بعلم الفقه والطبيب الفلكى والجغرافى والمؤرخ • ويطالب الطهطاوى طالب هذا النوع من التعليم بأن « يجول فى أصوله وفروعه غاية الجولان حتى يكون كالمجتهد فيه » •

---

(١) المرجع السابق ص ٣٨٨

وهو يعتبره تعليما معدا لأرباب السياسات والرئاسات وأهل الحل والعقد فى الممالك والحكومات . ولذلك يذهب الطهطاوى الى أن يقتصر هذا النوع من التعليم على أناس قلائل اشترط فيهم الطهطاوى أن يكونوا من أصحاب الثروة واليسار وهو أمر قد يبدو غريبا من الطهطاوى الا أنه يبرر ذلك بأن الغنى لا يضر تفرغه للعلوم العالية بالملكة .

ويستطرد قائلا : « فمن الخطر على من له صناعة يتعيش منها وينتفع به الناس أن يترك هذه الصناعة ليدخل فى دائرة معالى المعارف التى لا تصلح أن تكون له بضاعة ولا ينبغى أن يرخص للتلاميذ المتعلمين العلوم الأولية والثانوية أن ينتظموا فى سلك أرباب المعارف القصوى اذا كانت فى حقهم قليلة الجدوى » .

وهذه العبارة الأخيرة للطهطاوى يمكن أن يفهم منها أنه يجوز أن يلتحق بالتعليم العالى من كان قادرا على الاستفادة منه وهو رأى تربوى سليم بمعايير العصر .

أخلاق المعلمين والمتعلمين :

يورد الطهطاوى فى كلامه عن أخلاق المعلمين ما رواه الثعالبى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خير الناس وخير من يمشى على جديد الأرض المعلمون » . وهو يذهب مذهب جمهور علماء المسلمين فى جواز أن يأخذ المعلم أجرا على التعليم استنادا الى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله تعالى » ويورد قول بعض العلماء انه ينبغى للمعلم أن يرغب المتعلمين فى التحصيل ويدلهم على مكانته ويصرف عنهم الهموم المشغلة لهم ويهون عليهم مؤنته ويذكرهم بما حصله من الفوائد والغرائب وينصحهم فى الدين فبذلك يستنير قلبهم ويزكو علمهم[1] . وهو يردد آراء سابقيه ممن

---

(١) المرجع السابق ص ٧٣٨ — ٧٣٩ .

كتبوا فى التربية الاسلامية فيقول ان صلة المعلم بتلاميذه يجب أن تقوم على الحب وأن يجريهم منه مجرى أبنائه وأن يكون بهم عطوفا وعليهم صبورا لما يبدو منهم من سوء السلوك . وهو يورد مختلف الآراء فى العقاب ويتشدد فى عدم ضرب التلاميذ الصغار لأن الضرب مضر بهم فضلا عن أنه خروج على حدود الشرع وأجاز الضرب للأب اذ يجوز له أن يضرب ابنه لتأديبه . وهو فى هذا يخالف من كتب قبله عن التربية الاسلامية وأباحوا الضرب للمعلم تحت شروط متشددة كما سبق أن أشرنا .

وهو يكرر ما ذهب اليه الغزالى من الأذن للصبى باللعب دون اجهاد وفى بعض الأوقات . ويكرر نفس عباراته بأن يكون لعبا جميلا غير متعب لهم ، ليستريحوا من كلفة الأدب .

ويكرر قوله عن فوائد اللعب بقوله بأنه رياضة تروح النفس وتحرك الحرارة الغريزية وتحفظ الصحة وتنفى الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط وتزكى النفس ، فان النفس تمل من الدؤوب فى الجد وترتاح الى بعض المباح من اللهو »(١) .

ويؤكد الطهطاوى على ضرورة احترام الصبى لأستاذه وأن يدعو له كلما شرع فى قراءة درس وبعد الانتهاء منه كما أوجب الطاعة على الصبى لأستاذه الا فى معصية الخالق اذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وعلى الصبيان أن يسمعوا أقوال معلمهم وأن ينتصحوا بها .

طريقة التعليم :

يشير الطهطاوى فى طريقة التعليم بالنسبة للمتعلم الى بعض المبادىء التى سبق أن قررها سابقوه منها أن يبدأ المتعلم بالعلوم الأهم وألا يخرج المتعلم من علم الى غيره الا بعد أن يجيده وأن يقسم الدرس

(١) المرجع السابق ص ٣٩٣ .

الى أقسام حتى يسهل استيعابه وحفظه واعتبر المناظرة والمطارحة أجدى فى تحصيل العلوم من التكرار • ويجب على المتعلم أن يأخذ العلوم عن أساتذتها • ويحذر الطهطاوى من استخدام الكتب الا فى علم الحديث •

تعليم المرأة :

ينظر الطهطاوى الى المرأة على أنها من أجمل ما صنع الله القدير وهى قرينة الرجل فى الخلقة والمعينة له فى تدبير أمره والحافظة لأطفاله والقائمة بأمر عياله والمسلية له فى أيام حياته •• وهى تمتاز عن الرجل باللين واللطف والرخاوة » • ويعتبر الطهطاوى أن التربية أساس صلاح المرأة ومن صفات كمالها • وترفع قدرها فى نظر الرجل والتعليم يزيل عنها سخافة العقل والطيش الذى يصيب المرأة الجاهلة • كما أن التعليم يمكن المرأة من العمل على قدر قوتها وطاقتها • وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فان فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل • فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة(٢) • ويرد الطهطاوى على التخوف من تعليم المرأة ويقول :

« ان التجربة فى كثير من البلاد قضت أن نفع تعليم البنات لا ضرر فيه ويستعين أيضا بما روى فى كتب الأحاديث وما كان فى زمن الرسول من تعليم النساء •

والتعليم الذى يليق بالبنات فى نظره هو القراءة والكتابة والحساب وبعض الصنائع كالخياطة والتطريز •

وهو يرد على من ذهب الى تحريم تعليم القراءة والكتابة والحساب وبعض الصنائع وأنها مكروهة فى حقهن لما قد يؤدى اليه تعلمها من

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩٣ •
(٢) المرجع السابق ص ٣٩٣ •

اساءة استخدام بأن ذلك لا ينبغى أن يكون على عمومه • ويضرب أمثلة بمن كان يعرف القراءة والكتابة من زوجات النبى صلى الله عليه وسلم وغيرهن من النساء فى كل زمان •

ويرجع التشدد فى عدم تعليم المرأة الى المبالغة فى الغيرة عليها وفى ذلك يقول :

« وليس مرجع التشديد فى حرمان البنات من الكتابة الا التغالى فى الغيرة عليهن من ابراز محمود صفاتهن أيا ما كانت فى ميدان الرجال تبعا للعوائد المحلية المشوبة بجمعية جاهلية » ولو جرب خلاف هذه العادة لصحت التجربة[١] •

على مبارك (١٨٢٣ — ١٨٩٣ م) :

يعتبر على مبارك « أبا التعليم المصرى » الحديث وباسمه ترتبط أعظم المحاولات لاعادة التعليم المصرى الى أصوله الاسلامية وبعد أن جاء فى تنظيمه الحديث ، غريبا على الشعب وعن النظم التعليمية التى عرفها عبر تاريخه الطويل • وهو مع زملائه — الشيخ رفاعة الطهطاوى وعبد الله باشا فكرى والشيخ محمد عبده — يمثلون أركان النهضة العلمية فى مصر فى تلك الفترة •

وقد ولد على مبارك سنة ١٨٢٣ فى برنبال احدى قرى الدقهلية فى دلتا مصر ودرس فى الكتاب وكافح ليواصل دراسته حتى التحق بالمهندسخانة وأكمل تعليمه فيها • وبعدها سافر الى فرنسا فى بعثة لمواصلة الدراسة التى استمرت هناك طيلة خمس سنوات •

وكان سفره الى فرنسا فى عهد محمد على باشا وعاد فى عهد عباس الأول وكان عهد عباس هذا عهد انكماش فى التعليم اذ لم يكن

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩٤ •

يرضى عن الحركة العلمية فى البلاد بل كان همه بناء القصور لا فتح المدارس بل ولا الاحتفاظ بالموجود فألغى الكثير منها وخفض ميزانية التعليم بدرجة كبيرة وكان أميل الى تعليم أولاد الأتراك دون المصريين. فعهد الى على مبارك فى ادارة البقية الباقية القليلة من المدارس[1] .

وكان على مبارك بعد عودته الى مصر قد تقلد عدة وظائف منها وظيفة ضابط فى الجيش وناظر لمدرسة المهندسخانة ووصل الى أرقى منصب يحلم به عندما عين ناظرا لديوان المدارس أى وزيرا للمعارف آنذاك .

لقد توالت على « على مبارك » أيام بؤس وأيام نعيم وكانت الحالة فى مصر غير مستقرة . وكل الموظفين وخاصة كبارهم رهن باشارة الحاكم ورهن ، بما يحاك حوله من دسائس فيوما يرضى فيرفع الى السماء ويوما يغضب فينزله الى الحضيض . والبيت الحاكم منشق على نفسه . اذا تقرب أحد الى بعضه غضب عليه بعضه الآخر . يرضى محمد على باشا وابراهيم باشا عن الشيخ رفاعة الطهطاوى ، فاذا جاء عباس غضب عليه وأخرجه من ادارة مدرسة الألسن وعينه ناظرا لمدرسة ابتدائية تنشأ فى الخرطوم . ويرضى عباس الأول عن ، « على مبارك » ويقربه اليه ويعهد اليه فى تنفيذ أمور كثيرة فاذا جاء سعيد باشا غضب على « على مبارك » وأعاد الشيخ « رفاعة الطهطاوى » وقربه اليه .

وأراد سعيد باشا أن يتخلص من « على مبارك » فأرسله مع الفرقة الحربية لمساعدة الدولة العثمانية فى حربها مع روسيا وهناك فى تركيا فى الآستانة والأناضول أقام فيها نحو سنتين لقى فيهما عناء كبيرا احتمله فى صبر وثبات . واستطاع خلال هذه المدة أن يتعلم اللغة التركية ويجيدها .

---

(١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث : مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٩ ص ٢٠٦ .

وبعد عودته الى مصر من تركيا كانت حياته مزيجا من السعادة والشقاء يوظف أحيانا ويطرد أحيانا ويعمل أحيانا بالأعمال الحرة تاجرا مرة ومهندسا مدنيا تارة أخرى . ويصل به الملل والسخط أحيانا الى التفكير فى العودة الى أهله فى برنبال ليعمل عمل الفلاحين ويعيش معيشتهم وعلى الله العوض فيما تعلم .

ولكن الحظ لم يلبث أن ابتسم له ويأتى اسماعيل باشا الى الحكم ويسعى الى اعادة الحياة العلمية فى مصر ويتوسع فيها واستقر الحال بعلى مبارك وكان هذا العهد أبرك عهوده وأخصبها . وعمل « على مبارك » أعمال كثيرة تتصل بتخصصه فى الهندسة المدنية والحربية . وعهد اليه بمشروعات هندسية عظيمة فى تصميم الشوارع والترع والجسور والمساجد وبنائها . ولكن ذلك لم يكن سر عظمته وصحيفة خلوده وانما كان ذلك فى شىء لم يتعلمه ولم يتلقنه عن أستاذ هو اصلاحه للتعليم فى مصر بالوسائل المختلفة وبناؤه فى ذلك بناء ضخما يعد دعامة النهضة التعليمية فى مصر . لقد أريد له أن يهندس المبانى والمنشآت ، فهندس هو طرق التربية والتعليم ووضع تصميماتها ووقف على تنفيذها فى دقة واحكام حتى عد من كبار المصلحين(١) .

جهوده الفكرية والثقافية :

يعتبر على مبارك أحد زعماء النهضة الفكرية والثقافية البارزين الذين لعبوا دورا هاما فى دفع حركتها فى مصر . ومن أهم جهوده الفكرية والثقافية ما يأتى :

١ — كتب وألف فى مختلف فروع العلم والثقافة . ومن أهم الكتب التى ألفها « الخطط التوفيقية » فى عشرين جزءا . وفيها وصف القاهرة وشوارعها ومساجدها ومدارسها . كما وصف مدن مصر وقراها . وهى تكملة لخطط المقريزى المعروفة .

---

(١) احمد امين : المرجع السابق ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

كما ألف كتابا سماه « علم الدين » كان الغرض منه تفتيح أذهان الشرق لما فى الغرب ، وهو قصة لشيخ تربى فى الأزهــر وتتلمــذ له مستشرق انجليزى تعلم منه اللغة العربية ودعاه الانجليزى لزيارة انجلترا فلبى الدعوة . وكان كلما مرا على شيء من القاهرة الى الاسكندرية سأل الانجليزى الشيخ « علم الدين » فكان يجيبه . وبعد الاسكندرية انقلب الشيخ تلميذا والانجليزى معلما فكان يسأل الشيخ عن كل ما يجهــل فكان يجيبه الانجليزى . والكتاب مليء بالمعلومات القيمة عن الشرق والغرب ومظاهر الحضارة الأوروبية[1] وألف وهو وزير المعارف كتابا من جزئين لتعليم الأطفال القراءة والكتابة لعدم رضائه عن الطريقة التى كانوا يعلمون بها . وخصص الجزء الأول لتعليم حروف الهجاء وكيفية تركيبها وخصص الجزء الثانى للتمرين على المطالعة والقراءة الســهلة فى موضوعات مفيدة .

٢ ــ أنشأ مجلة « روضة المدارس المصرية » التى رأس تحريرها الشيخ رفاعة الطهطاوى وذكر فى أول عدد منها أن مدير المدارس وهو « على مبارك » « جعلها ملحوظة بنظر نظارته لا يتدرج فيهــا شيء الا باشارته » . وطلب من الأساتذة أن يمدوها بالمقالات .

٣ ــ انشأ دار الكتب المصرية وكانت الكتب قبل ذلك متفرقة فى المساجد أو الأماكن المهجورة عرضة للسرقة والتلف فجمعها فى مكان واحد ورتبها وسهل الاستفادة منها وجعل لها قاعة للمطالعة .

٤ ــ أنشأ قاعة للمحاضرات كانت تعتبر جامعة مفتوحة يحضرها كل من يشاء وكان يحاضر فيها كبار الاساتذة من مصريين وأجانب فكان على سبيل المثال ، الشيخ حســين المرصفى يحــاضر فى الأدب واسماعيل بك الفلكى فى الفلك والشيخ عبد الرحمن البحراوى فى الفقه

---

(١) احمد امين : المرجع السابق ص ٢١٣ ــ ٢١٤ .

ومسيو بروكسن فى التاريخ العام وأحمد ندا فى النبات • فاذا حاضر محاضر باللغة الأجنبية ألقيت محاضرته بعد ذلك باللغة العربية • وكانت هذه المحاضرات تعقد يوميا باستثناء يوم الجمعة • وكل محاضرة ساعة ونصف ساعة وبعض الموضوعات كان لها محاضرتان أسبوعيا وبعضها محاضرة واحدة[١] •

٥ ـ أنشأ مدرسة دار العلوم ١٨٧٢ وكانت أول معهد لاعداد المعلم وقد تطورت الى كلية دار العلوم حاليا وكان طلبتها يؤخذون من خيرة طلبة الأزهر بامتحان خاص كما كان يختار لها خيرة العلماء من الأزهر وغيره •

وكان طلبتها يعلمون العلوم الدينية واللغوية وشيئا من علوم الرياضة والجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيمياء •

جهوده فى التربية والتعليم :

لم يتعلم على مبارك فى مصر ولا فى فرنسا علوم التربية وأصولها على معلم مختص وانما تعلمها من حسن استعداده وصدق نظره ومن دروس فى التربية الفاسدة تلقاها فى الكتاب حين كان يضرب وفى مدرسة قصر العينى حين كان يضرب أيضا ومدرسة أبى زعبل حين كان يلقى عليه الدرس فلا يفهم •

بيد أن « على مبارك » كان يهتم بالمسائل الكلية فى سياسة التربية والتعليم وتنظيمها وتخطيطها وتنفيذها • واذا نظر الى الجزئياتفلتطبيق الكليات عليها • لذلك لا نجد له آراء تفصيلية عن المباحث الجزئية للتربية والتعليم وهو فى هذا عكس الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى كان ينظر الى المسائل الجزئية ويعنى باصلاحها وتنفيذها • ولهذا نجد له

---

(١) احمد امين : المرجع السابق ص ٢١٢ •

كثيرا من الآراء الجزئية عن مختلف موضوعات التربية[1] •

وكان على مبارك يرى أن اصلاح التعليم هو خير أنواع الاصلاح بل ان الاصلاح السياسى لا قيمة له ما لم يرتكز على الاصلاح التعليمى• ولذلك لا نرى له دورا فى الثورة العرابية •

وتتركز أهم الجهود التربوية لعلى مبارك فى جانبين رئيسيين هما :

ـ اصلاح الكتاتيب ووضع نظام قومى للتعليم أساسه التعليم الشعبى الذى نظمته لائحة رجب الذى أعدها كوثيقة هامة تعتبر من أهم الوثائق التعليمية الحديثة فى مصر •

ـ اصلاح المعلم ركن الزاوية فى التعليم وقد تجسدت خطة على مبارك فى هذا الاصلاح فى انشاء دار العلوم • وسنفصل الكلام عن هذين الجانبين فى السطور التالية :

أولا ـ اصلاح الكتاتيب ووضع نظام قومى للتعليم :

اهتم على مبارك بتطوير التعليم فى الكتاتيب فهو نفسه تعلم فيها وأحس بنواحى النقص فيها وقد وصفها بقوله :

« كانت الكتاتيب الأهلية فى المدن والأرياف جارية على العادة القديمة ليس فيها على قلة أهلها الا تعليم القرآن الشريف وأقل القليل من يتمه منهم ويجيد حفظه ويجوده ويحسن قراءته مع رداءة الخط فى عامة المكاتب » • وكانت الكتاتيب فى حالة يرثى لها وصفها أحمد أمين يقول فكثير منها اما فى دكان أو حجرة مظلمة بجانب مراحيض المسجد والتلاميذ يختلط صحيحهم بمريضهم وقد يكون المرض معديا فأقرع وأبرص وأجرب ومحموم ينشرون العدوى فى الأصحاء • يجلسون على حصير بال ويشربون بكوز واحد من زير واحد ويأكلون فى الظهر

(١) أحمد أمين : المرجع السابق ص ٢١٧ •

من صحن واحد . وفقيه الكتاب كثيرا ما يكون أعمى لا يحسن أن يرعى التلاميذ ولا أن يدبر شئونهم . وكل كفايته أنه يحفظ القرآن ويحفظه من غير فهم لا علم له بالدنيا ولا بالدين ووسائل التأديب عنده ليست الا السب والضرب »[١] .

وعاب على الفقهاء فى الكتاتيب والمدارس الأساليب التى يستخدمونها فى التربية وفى مقدمتها القسوة على التلاميذ اعتقادا منهم بأن « عصا الفقيه من الجنة » ومنها ، الخوف والرهبة التى كانت تقوم عليها العلاقة بين المعلم والتلميذ مما يدفع الأخير الى النفاق والرياء . وعلى مبارك نفسه قد قاسى من هذه الأساليب التى جعلته يكره الكتاب كرها شديدا ومنها آمن بضرورة تطوير أساليب التعليم فى هذه الكتاتيب والمدارس بحيث تكون مسايرة لمتطلبات المجتمع وحاجاته.

لائحة رجب (١٢٨٤ هـ — ١٨٦٨ م) :

تعتبر لائحة رجب من أهم الانجازات التربوية لعلى مبارك اذ وضعت هذه اللائحة كيانا قوميا للتعليم أساسه تعليم شعبى متطور تشرف عليه الحكومة وتوليه عنايتها . وتنقسم لائحة رجب الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول منها يتناول تطوير المكاتب فى المدن من حيث ادارة المبانى والتجهيزات والرعاية الصحية . والقسم الثانى : يتناول تنظيم المكاتب فى القرى . والقسم الثالث : يتناول تنظيم المدارس المركزية فى مراكز المديريات .

وقد لخص على مبارك خطته فى الاصلاح بقوله: « فجميع المدارس والمكاتب سواء بالقرى أو البنادر تكون تحت أصول تنظيمية وترتيبات

---

(١) أحمد امين : المرجع السابق ص ٢١٠ .

حسنة منتجة وامتحانات سنوية وملاحظات وتفتيشات من طرف الحكومة وهذا لتحسين حالهم واستقبالهم ومنفعتهم الخصوصية العائدة اليهم مع المنفعة العمومية على الحكومة مع تهذيب رعاياها واصلاح حالهم ووجود التعاون بينهم ومعاونتهم لأوطانهم » .

وأهم المبادىء التى قامت عليها لائحة رجب هى :

— تطوير الكتاتيب مع الاحتفاظ بروحها الأصيلة التى تتميز بالبساطة فى الأثاث والاهتمام بتعليم القرآن الكريم .

— الاحتفاظ للكتاتيب بطابعها الشعبى وعدم تدخل الحكومة فى شئونها وترك مسئوليتها على الأهالى .

— وصل الكتاتيب بالتعليم الأميرى أو الرسمى الذى يوصل الى المراحل الأعلى من التعليم .

— تنظيم الاشراف والتفتيش على المدارس والمكاتب .

— تنظيم الامتحانات وجعل منها مهرجانات آخر العام تعزف فيها الموسيقى وتوزع الجوائز على المتفوقين .

— اشترطت اللائحة شروطا فى المعلم منها حسن الأخلاق والصفات وأهليته لتعليم القرآن والمعرفة بأمور الدين وأن يحسن باب العدية فى الحساب » . وجعلت تعيينهم بمعرفة ديوان المدارس .

— تركت لائحة رجب تدبير الأموال اللازمة لاصلاح الكتاتيب على الأهالى وكانت هذه أهم نقطة ضعف فى اللائحة على الرغم من أن على مبارك كان عليه أن يراعى الظروف المالية للبلاد فى ذلك الوقت اذ كانت تمر بأول وأعظم ضائقة مالية ، عرفتها وجرت عليها الويلات والتدخل الأجنبى .

وتشير المصادر التاريخية الى أن الشعب لم يستطع أن يقوم بالأعباء المالية فضلا عن أن اللائحة لم تضع الطريقة التى يمكن بهـا جمع المال بل تركت الأمر مفتوحا دون تحديد •

وكان ذلك عائقا حقيقيا دون الوصول الى الأهداف التى أرادها على مبارك من اصلاح التعليم • ولكن على الرغم من هذا فان لائحة رجب قد تركت بصماتها على الطريق وظلت علامة تشير الى جهـــود المخلصين من أبناء هذه الأمة الذين عملوا من أجل رفعتها وكان الاخلاص رائدهم •

ثانيا ــ اصـلاح المعـلم :

كان من المسائل الهامة التى عنى بها على مبارك مسألة المعلمين وكيف يصلح من أحوالهم • فقد كان يقوم بتدريس اللغة العربية فى المدارس رجال من الأزهر • وكان التعليم فى الأزهر اذ ذاك على أسلوبه فى القرون الوسطى يعلم الكتب ولا يعلم العلم وغاية النابغ منهم أن يحسن فهم عبارة الكتاب لا فهم موضوع الكتاب • وهذا يؤدى الى أنه لا يحسن تطبيق ما تعلم فأكثرهم لا يحسن قراءة صفحة ولا أن يكتب موضوعا ولا أن يقيم وزنا لبيت من شعر كما وصفهم بذلك عبدالله باشا فكرى فى مقال كتبه تحت عنوان : « فكيف يصلحون بعد لتعليم الناشئة » •

ولهذا اتجه فكر على مبارك الى انشاء مدرسة يؤخذ لها خيرة طلبة الأزهر ويختار لها خيرة علماء الأزهر وغيره فكان انشاء دار العلـــوم كأول معهد لاعداد المعلم كما أشرنا •

الشـيخ محمد عبده (١٨٤٩ ــ ١٩٠٥ م) :

يعتبر الامام الشيخ محمد عبده من أنصار الحـــركة الاصلاحية السلفية التى سبقت الاشارة اليها وكان داعية الى الجامعة الاسلامية

التى تزعمها أستاذه جمال الدين الأفغانى الذى كان يعتبر فى نظـر الامام محمد عبده نابغة العصر وأستاذ الجيل وبخاصـة فيما يتعلق بالثورة الفكرية الاسلامية الصحيحة • وقد تأثر محمد عبـده بآراء أستاذه وعمل معه •

وكان أكبر تأثير على شخصية الامام قبل اتصاله بجمال الدين الأفغانى هو تأثير الشيخ درويش خضر أحد أخوال أبيه • وكان رجـلا صوفيا طيب القلب ذكى الفؤاد • وقد تحدث محمد عبده نفسه عن ذلك الأثر الطيب الذى تلقاه فى ريعان شبابه من الشـيخ درويش خضر فقـال :

« •• ولم أجد اماما يرشدنى الى ما وجهت اليه نفسى الا ذلك الشيخ الذى أخرجني فى بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ومن قيود التقليد الى اطلاق التوحيد •• هو (هذا الشيخ) مفتـاح سعادتي ان كانت لى سعادة فى هذه الدنيا وهو الذى رد لى ما كان غاب عنى من غريزتى وكشـف لى ما كان خفيـا عنى مما أودع فى فطـرتى »[1] •

بيد أن تأثير جمال الدين الأفغانى عليه كان قويا • فقد كان الأفغانى قوة دافقة لا تعرف الكلل أو الملل فى سبيل ايقاظ الأمة الاسلامية من سباتها وضعفها • وعند حضوره الى مصر اتصل به محمد عبده وسعد زغلول وابراهيم اللقانى وابراهيم الهلباوى ومحمود سامى البارودى وأديب اسحاق وغيرهم • لكن كان محمد عبده أقربهم الى نفس الأفغانى لمـا لمسه فيه من سعة العقل وسمو النفس والحماسة للاصلاح ويقول الامام محمد عبده فى تقدير أثر الأفغانى عليه :

« ان أبى وهبنى حياة أشارك فيها عليا ومحروسا (وهما أخوان له

---

(١) رشيد رضا : تاريخ الامام جـ ١ ص ٢٣ •

كانا مزارعين) والسيد جمال الدين وهبنى حياة أشارك فيها محمدا وابراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين » • لقد جمع بين الشيخين وحدة الغرض والانسجام الروحى فتلازما وتحابا وكان محمد عبده يرى كأستاذه أنه لا سبيل لاصلاح الأمة الاسلامية الا بالعودة الى الأصول الاسلامية الصحيحة لتجديد الاسلام وتصحيح العقيدة، وكون مدرسة فكرية ظلت تعمل وتعيش حتى اليوم • وهو لم يدع الى الاصلاح نظريا عن طريق التأليف ، أو الخطب والمقالات كما يفعل بعض المصلحين بل كان يحول أفكاره فى الاصلاح الى عمل ويحاول أن يجد لها طريقها الى التنفيذ والتطبيق على الرغم مما لحق به من ظلم ونفى • وبالنسبة للتربية والتعليم فقد اشترك فى تأسيس الجمعية الخيرية الاسلامية سنة ١٨٩٢ التى كانت تهدف لنشر التعليم واعانة المنكوبين وتولى رئاسة هذه الجمعية سنة ١٩٠٠ وهى السنة التى أسس فيها جمعية احياء العلوم العربية • فحققت ونشرت بعض ألوان التراث العربى الإسلامى الفكرية الهامة[١] •

وقد تعاون مع أستاذه فى اصدار مجلة « العروة الوثقى » التى تدافع عن الاسلام والمسلمين وتعمل من أجل اعادة مجد الاسلام •

ولد الشيخ محمد عبده سنة ١٢٦٦ هـ — ١٨٤٩ م بمحلة نصر فى مديرية البحيرة من أسرة رقيقة الحال • وقد تلقى بعض تعليمه فى الجامع الأحمدى بطنطا ثم بالجامع الأزهر • وعندما وفد جمال الدين الأفغانى امام النهضة الحديثة الى مصر سنة ١٨٧١ م اتصل به الشيخ محمد عبده وتتلمذ على يديه وقد قال فيه جمال الدين يوم توديعه لمصر

---

(١) محمد عمارة : الأعمال الكاملة للامام محمد عبده جـ ١ ص ٣٠ •

« لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالما » • وقد حصل الشيخ محمد عبده على شهادة العالمية من الأزهر سنة ١٨٧٧م •

كان ميله الى التدريس شديدا وقد قال عن نفسه « انما خلقت لكى أكون معلما » • وقد درس فى الأزهر وفى دار العلوم » • كما اشتغل بالتدريس فى المدرسة « السلطانية » فى بيروت سنة ١٨٨٦ م وانتقل بها من مدرسة شبه ابتدائية الى مدرسة عالية •• ومن الكتب التى شرحها فيها (نهج البلاغة) و (ديوان الحماسة) واشارات ابن سينا وكتاب — التهذيب ومجلة الأحكام العدلية العثمانية • كما ألقى فيها دروس التوحيد التى تحولت بعد عودته لمصر الى « رسالة التوحيد »[١] •

مدرسة الامام :

لقد عمل الامام بكل طاقته فى سبيل نشر فكره ودعوته ورسالته • وكان لآرائه وأفكاره أصداء قوية ترددت فى مصر وفى خارجها •

أما فى مصر فقد ظهرت بفضل جهوده وتأثيره أربع مدارس لعبت دورا هاما فى الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية فى مصر فكانت المدرسة الاجتماعية التى حمل لواءها قاسم أمين وكانت المدرسة السياسية التى حمل لواءها سعد زغلول والمدرسة الدينية التى برز من نجومها الشيخ الأحمدى الظواهرى فى دعوته الى اصلاح الأزهر وضرورة تطوير التعليم فيه وفقا لحاجات العصر وتقدم المعرفة[٢] • وكانت هناك المدرسة الفلسفية التى حمل لواءها مصطفى عبد الرازق الذى جمع بين القديم والحديث فكان أقربهم الى روح أستاذه وعقليته[٣] وقد ترجم رسالة التوحيد الى الفرنسية • أما فى خارج

(١) محمد عمارة : الأعمال الكاملة للامام محمد عبده جـ ١ ص ٢٧—٢٨ •
(٢) انظر كتابه : « العلم والعلماء » •
(٣) عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده ص ٢٤٣—٢٤٩ •

مصر فكانت سوريا أكثر بلاد الشرق الأدنى تأثرا بالامام • ويأتى فى مقدمة تلاميذ مدرسة الامام فى سوريا السيد « رشيد رضا » صاحب مجلة « المنار » والذى ارتبط اسمه باسم الاستاذ الامام • وهناك أيضا شكيب أرسلان وعبد القادر المغربى وكرد على •

وفى شمال أفريقيا التى زارها الامام نجد من أنصار مدرسته فى الجزائر « الشيخ محمد بن الخوجة » والشيخ « عبد الحليم بن سماية » وفى ايران نجد الكاتب الفارسى « زكاء الملك » الذى كانت بينه وبين الامام صلات فكرية وثيقة • وقد أثنى على الامام محمد عبده بقوله :

« كان الامام محمد عبده هو العالم الصادق الوحيد فى الاسلام كله وهو وحده الذى نفذ الى روح الاسلام وعرف كيف يطبق مبادئه مراعيا مطالب عصرنا »(١) •

وامتد صدى فكر الامام الى الهند وأندونيسيا وغيرها من بلاد الشرق الاسلامى (٢) •

جهوده العلمية والفكرية :

ومن أهم الآثار العلمية التى تركها الشيخ محمد عبده « شرح نهج الهمزانى » و « الاسلام والرد على منتقديه » وهى سلسلة مقالات نشرها فى صحيفة المؤيد سنة ١٩٠٠ و « رسالة التوحيد » و « فلسفة الاجتماع والتاريخ » و « تاريخ أسباب الثورة العرابية » و « رسالة الرد على الدهريين » وقد ألفها بالفارسية السيد جمال الدين الافغانى وترجمها الامام محمد عبده الى العربيــة بمساعدة « عارف أفنــدى أبو تواب » أحد أصدقائه من الافغان •

كما كتب بعض الفصول فى كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين •

---

(١) عثمان أمين : المرجع السابق ص ٢٦١ نقلا عن خطاب ميرزا قزوينى الى رشيد رضا . المنار ج ١٠ ص ٩٥٣ — ٩٥٤ •
(٢) انظر عثمان أمين : المرجع السابق ص ٢٤٩ — ٢٦٣ •

وللامام أيضا رسالة فى نظام التربية والتعليم بمصر تناول فيها طرق التربيـــة والتعليم كمـــا ترجم عن الفرنســـية كتاب « التربية » لهربرت سبنسر •

آراؤه فى التربيـــــة :

كان محمد عبده صاحب نظرة مثالية تنشد الكمال والاصلاح ولقد تأثرت نظرته الى التربية بتجربته الفردية الخاصة ومن أهم آرائه فى التربية مايأتى :

التربية هى الطريق الوحيد للنهضـــة :

اعتقد الامام محمد عبده أن التربية هى البلسم الشافى لكل علة ، واعتبر فقر العقول والتربية أشد ضروب الفقر • وفى نظره أن الانسان اذا فقد التربية فقد كل شىء وأن الانسان لايكون انسانا حقيقيا الا بالتربية [١] •

وكان يرى أن الطريق الوحيد للنهضة والتجديد فى العالم الاسلامى هو التربية وفى ذلك يقول :

« اننى أدعو الى التربية لأننى عرفت أية ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه اليوم وتقوم على غراس تغرسه اليوم وتقوم على تنميته السنين الطوال » •

العمل التربوى بديل العمل السياسى :

آمن الامام محمد عبده بقـــدرة التعليم على تكوين طبقة واعية مستنيرة تستطيع أن تحقق الحكم النيابى الصحيح • وكان يرى أن الجهل عقبة فى طريق تحقيق الديمقراطية وهو رأى سديد • وقد طالب بشدة بأن يكون العمل التربوى بديل العمل السياسى • وفى ذلك يقول :

---

(١) محمد عمارة : الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ، ١٩٧٢ ص١٥٤ •

« انى لأعجب لجعل نبهاء المســـلمين وجرائدهم كل همهم فى السياسة واهمالهم أمر التربية الذى كان كل شىء وعليه كل شىء • ان السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة » [١] •

مراتب التعـــليم :

يرى الامام محمد عبده أن الناس ينقسمون بالنسبة للتعليم الى ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : هى طبقة العامة من أهل الصــــناعة والتجارة والزراعة ومن يتبعهم •

الطبقة الثانية : هى طبقة الساسة ممن يتعاطون العمل للدولة فى تدبير أمر الرعية وحمايتها من ضباط العسكرية وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومن يتعلق بهم ومأمورى الادارة على اختلاف مراتبهم •

الطبقة الثالثة : هى طبقة العلماء من أهل الارشاد والتربية وفى نظره أنه يجب تحديد مايلزم لكل واحدة من هذه الطبقات من التعليم كما ونوعا • وهو يرى أن ارتقاء الناس بالتعليم من الطبقات الدنيا الى العليا غير ممنوع ويقول الامام بوضوح « ولانريد بهذا التقسيم منع الاحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذى خص به من فوقهم » [٢] •

وكانت مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية التى ساهم الامام فى انشائها وتولى رئاستها تعلم أبناء الطبقة الأولى من عامة الناس وأولاد الفقراء من أبناء أهل الصناعة والتجارة والزراعة • فهذه المدارس كما رآها الامام ليست كمدارس الحكومة التى تعمل لتخريج الموظفين ومن

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٦ •

(٢) محمد عمارة : المرجع السابق ص ١٦٢ •

ثم ليست خاصة بالطبقة الثانية من الطبقات الثلاث التى أشرنا اليها ، وهى ليست كالأزهر أو دار العلوم تعمل على تكوين العلماء وأهل الارشاد والتربية ومن ثم فهى ليست خاصة بالطبقة الثالثة من الناس .

ولقد حدد الامام فلسفة مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية فقال : « لم تنشأ الجمعية لمقصد أعلى من هذا فى مدارسها كأخذ الشهادات والاستعداد للوظائف بل من أهم مقاصدها تنزع من النفوس اعتقاد أن التعليم لا فائدة فيه الا الاستخدام فى الحكومة .. والجمعية توطن نفوس التلاميذ فى مدارسها على أن يعمل الواحد منهم عمل أبيه باتقان ويعيش مع الناس بالأمانة والاستقامة . فولد النجار يكون نجارا وولد الحداد يكون حدادا وولد الفراش يكون فراشا . والتربية والتعليم يساعدان على اتقان عمله وصناعته [1] .

ويعلق جامع الأعمال الكاملة للامام الشيخ محمد عبده على هذه الآراء بقوله « والأمر المؤسف أن الأستاذ الامام كان من أنصار طبقية التعليم [2] لكن ينبغى ألا تحكم على آراء الرجل بمعايير عصرنا . فقد كان التعليم طبقيا بالفعل آنذاك . كما أنه ينبغى أن تنظر الى حقيقة هذه الآراء فى اهتمام الامام بتعليم الفقراء وقد كانوا محرومين من التعليم آنذاك وماكان ليستطيع أن يحقق لهم بالموارد المتاحة آنذاك أكثر مما فعل . بل انه عبر عن رأيه فى أنه كان يود أن يعمم مثل هذا التعليم فى البلاد لكل الطبقات فيقول :

« كنت أحب أن يكون هذا التعليم عاما فى البلاد منبثا فى جميع الطبقات ثم يتسنى بعده لكل طبقة أن تتناول من العلوم والفنون واللغات فى المدارس الثانوية والعالية ماهى مستعدة له .. هذا التعليم سلم يرتقى عنه الغنى الى التعليم العالى ويجعل الفقير على مقربة من الغنى فى الفكر والخلق فاما أن يجد فيلحقه واما أن يحسن الاستفادة

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٦١ .

منه بخدمته ومســـــاعدته فى أعماله بالصدق والأمانة • فهذا التعليم لا يستغنى عنه أحد »[1] وهذا يوضح أنه كان ينظر الى هذا التعليم على أنه تعليم عام مشترك للجميع كما نفهمه اليوم •

على الأغنياء بذل المال فى انشاء المدارس :

يرى محمد عبده أن الأغنياء يجب أن يبذلوا من مالهم فى سبيل نشر العلم والتعليم ويرى أن عليهم دورا هاما فى هذا السبيل نحــو الفقراء وهو مايلقى الضوء على مزيد من فهم رأيه السابق فى مراتب التعليم •

يقول الامام : « ان على الأغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم وتطاول الأيدى الظالمة اليهم •• أن يتآلفوا ويتحدوا ويبذلوا من أموالهم فى سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتساع دوائر التعليم حتى تعم التربية وتنبت فى البلاد جراثيم العقل والادراك وتنمو روح الحق والاصلاح وتتهذب النفوس ويشتد الاصلاح بالمنافع والمضار • فيوجد من أبناء البلاد من يضارع بنى غيرها من الأمم •• وعلى الحكومة فى جميع ذلك أن تسن قوانين التعليم وتلاحظ أحوال المعلمين والمتعلمين »[2] •

تطوير الأزهر :

من الجهود الهامة المشكورة للامام محمد عبده محاولاته المخلصة من أجل تطوير الأزهر • فقد درس فى الأزهر وعرف نقط الضعف فى مناهجه وبرامجه التعليمية وقد وضع خطة للاصلاح حــدد فيها مدة الدراسة والأجازات ــ والعطلات ووضع نظاما للتدريس وأدخل نظام الامتحانات السنوية وهو مالم يكن موجودا من قبل مما أثار سخط الطلبة عليه • وطالب بالغاء الكتب القديمة والشروح العقيمة والحواشى وأن تستبدل بأخرى أكثر نفعا وأقرب الى مدارك الطالب • واهتم بالعلوم

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٥٥ .

النقلية كما طالب بادخال العلوم العقلية من علوم طبيعية ورياضيات وفلسفة واجتماع وتاريخ • وقد عارض شيوخ الأزهر خطته الاصلاحية كما ثار الطلبة ضدها لأنها فرضت عليهم امتحانات سنوية وكانت الامتحانات قبل ذلك بدون ضابط ومتروكة للشفاعات والرجاء والوساطة• وتأخر العمل بخطته لكنها نبهت الآذان وفتحت الأعين على الطريق الذى يجب أن يسير فيه العمل لتطوير الأزهر •

تعليم المرأة :

كان الامام محمد عبده من المؤمنين بضرورة تعليم المرأة وتنوير عقلها فقد رأى أن المرأة قد ضرب بينها وبين العلم بما يجب عليها فى دينها أو دنياها • ونادى بتكوين جمعية نسائية تقيم المدارس لتعليم البنات • وقد دافع عن تعليم المرأة مع تلميذه قاسم أمين فيما جاء بكتاب « تحرير المرأة » عن تعليمها •

الدعوة الى تحرير الفكر والفهم الصحيح للدين :

لقد عبر محمد عبده بوضوح عن خلاصة نهجه فى الاصلاح بالدعوة الى تحرير الفكر والفهم الصحيح للدين وفى ذلك يقول :

« ارتفع صوتى بالدعوة الى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الأولى ... (١) » •

ويقول أيضا : « انى وهبت حياتى لاصلاح العقيدة الاسلامية وتنقيتها من الخرافات والأوهام •

---

(١) أحمد أمين : «زعماء الاصلاح فى العصر الحديث» ١٩٤٨ ص٣٢٧.

الدعوة الى اصلاح أساليب اللغة العربية :

يواصل الامام محمد عبده كلامه السابق فيقول :

« والأمر الثانى اصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير سواء كان فى المخاطبات الرسمية أو فى المراسلات بين الناس .. » (١) .

وفـــاة الامـــام :

توفى الامام محمد عبده فى مساء يوم ١١ يولية سنة ١٩٠٥ عن سبعة وخمسين عاما . ودفن فى مقبـــرة العفيفى بالقاهرة ونقش على قبره ما يلى :

« هو الحى الباقى » .

قد خططنا للمعالى مضجعا ودفنا الدين والدنيا معا

---

(١) المرجع السابق .

الفصل العاشر

الاتجاهات التربوية فى العصر الحديث

الاتجاهات التربوية فى العصر الحديث :

شهدت البلاد العربية فى العصر الحديث عدة اتجاهات تربوية هامة من أبرزها :

١ ــ اقتباس النظم التعليمية الحديثة :

ترتب على اهمـــال العثمانيين للتعليم فى الدول العربية أن ركدت المدارس وذبلت • وقد انسحب ذلك على التعليم الدينى الذى تخلف بصورة واضحة عما كانت عليه من قبل من عنايته بالعلوم العقلية الى جانب العلوم النقلية • وانتهى الأمر بالتعليم الدينى أن تركزت عنايته على العلوم النقلية فى أضيق نطاق •

وعندما أرادت الدول العربية مع بدء اليقظة الوطنية ارساء قواعد نهضتها كان من أهم ماانتهت اليه الأنظار هو « ميدان التعليم » وفى ظل الوضع الذى كان عليه حال معاهد التعاليم التقليدية فى البلاد العربية والاحساس بأنها لاتفى بمطالب الحياة الجديدة اتجهت الجهود الى اقتباس النظم التعليمية المتقدمة فى أوربا لاسيما فرنسا • وقد ضربت الدولة العثمانية نفسها مثلا للبلاد العربية باقتباســـــها لنظم التعاليم الفرنسية فى محاولة تطوير العلم بها •

وكانت مصر وهى أول دولة عربية انفصلت عن الدولة العثمانيـــة أول من طبق هذا النظام المقتبس من المدارس الفرنسية • وكان هــذا

بداية لثنائية تعليمية بين التعليم الحديث والتعليم الدينى التقليدى وظلت هذه الثنائية لفترة طويلة تتحدى حركات الاصلاح • وكانت كالصخرة التى أعيت ناطحيها • واستمرت فترة طويلة من الزمن حتى سنة ١٩٦١ عندما نظم التعليمُ الدينى فى مصر •

وقد ارتبط اقتباس النظم التعليمية بارسال البعثات التعليمية الى فرنسا ليعمل المبعوثون بعد عودتهم بالتدريس فى هذه المدارس والاشتغال بترجمة الكتب فى المواد المختلفة اللازمة لها • وكان رفاعة رافع الطهطاوى رائد حركة الترجمة والنشر وكان له فضل كبير فيها كما أشرنا •

٢ ــ ظهور حركة التربية الحديثة :

شهدت البلاد العربية اهتماما بحركة التربية الحديثة وما يتصل بها من نظريات جديدة فى التربية • وقد بدأت هذه الحركة أساسا فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى وابتدأت تعبر عن نفسها فى الثلاثينات من هدا القرن • وقد بدأت هذه الحركة على يد الرعيل الأول ممن حملوا حركة التربية الحديثة من أمثال نجيب الهلالى وطه حسين واسماعيل القبانى وعبد العزيز القوصى وغيرهم • وعن طريق هؤلاء الرجال والأساتذة الزائرين من الاجانب من أمثال « كلاباريد » و « مان » و « بودى » و « جراى » و « رج » تعرف دارسو التربية على مشكلات التربية وحركة التربية الحديثة فى أمريكا وانجلترا وفرنسا وغيرها من الدول •

ونظرة فاحصة الى المبادىء الرئيسية التى تستند عليها هذه الفلسفة تدعم وجهة نظر المؤلف فى أن هذه الفلسفة كانت متأثرة بصورة أساسية بالحركة التقدمية فى التعليم الأمريكى بصفة عامة وفلسفة

جون ديوى البراجماتية بصفة خاصة [1] وكانت أهم مبادىء هذه الفلسفة تنادى بأن التربية يجب أن تساعد التلميذ على فهم مجتمعه واكتشاف بيئته وما يحيط بها وأن المناهج يجب أن تكون على صلة وثيقة بنمو التلميذ الجسمى والنفسى وأن مواد الدراسة يجب أن تتكامل فيما بينها فى وحدة عضوية وأنه يجب العناية بالنشاط الفنى الخلاق والدراسات العملية حتى يتسنى للتلميذ أن يتعلم التفكير عن طريق الخبرة العملية •

ويعزى نشر هذه الفلسفة الحديثة بصفة عامة الى مؤسستين اثنتين:

(أ) رابطة التربية الحديثة وخريجى معاهد التربية التى أسست سنة ١٩٣٧ م : وهدفها هو تقديم التربية الحديثة للمدارس المصرية • ومنذ تأسيسها قامت الرابطة بتنظيم عدة مؤتمرات وحلقات لهذا الغرض وكان من أهمها المؤتمر الذى عقد سنة ١٩٤٥ لمناقشة « تطبيق أساليب التربية الحديثة فى المدارس المصرية » وهو عنوان له مغزاه • وتقوم الرابطة أيضا بطبع صحيفة خاصة تصدر كل ثلاثة أشهر تعرف باسم « صحيفة التربية » • وفيها تنشر المقالات والبحوث والتربوية الحديثة•

(ب) معهد التربية : وقد أنشىء سنة ١٩٢٩ ليحل محل مدرسة المعلمين العليا بناء على توصية الخبير السويسرى كلاباريد الذى كان عندئذ أستاذ علم النفس وعميد معهد روسو بجنيف • وكان الغرض من انشائه تحقيق الأغراض الآتية :

(أ) أن يعد المعلمين لمدارس التعليم العام الابتدائية والثانوية •

(ب) أن يكون مركزا للبحث العلمى فى مسائل التربية والتعليم والدراسة النفسية للأطفال •

---

(١) اسماعيل القبانى وهو نفسه شاهد معاصر لهذه الحركة ورائد من روادها يذكر أن آراء جون ديوى وتطبيقاتها الاجتماعية كانت تدرس بعناية فى معهد التربية وكانت تثير كثيرا من الاهتمام بين رجال التربية •

(جـ) أن يكون أداة لنشر الأفكـــار الحديثة عن التربية بين رجال التعليم وتزويدهم بالارشاد اللازم لتطبيق أساليبها فى المدارس المصرية. وكان المعهد منذ تأسيسه يلعب الدور القيادى فى حركة التربية الحديثة فى العالم الغربى .

وفى الفترة بين عام ١٩٤٤ و ١٩٥٣ قام المعهد بدعوة عدد من رجال التربية المشـــهورين فى أمريكا وأوربا ومن بينهم كان بردى Bode (أمريكا) (١٩٤٤ — ١٩٤٥) وكيرتشر Kirtcher (١٩٤٥ — ١٩٤٦) الذى كان آنذاك أســـتاذا بجامعة أوهايو بأمريكا ومارتز Marty (١٩٤٧ — ١٩٤٨) الذى كان أستاذا بجامعة أنديانا والسير كلارك Clark (١٩٤٩) الذى كان أســتاذا بمعهـــد التربية بجامعة لندن و « رج » Rugg (١٩٥١ — ١٩٥٢) الأستاذ السابق بجامعة كولومبيا.

ومن ناحية أخرى قام المعهد منذ سنة ١٩٣٢ بتطبيق أساليب التربية الحديثة فى الفصول النموذجية ثم المدارس النموذجية التى أنشـــئت منذ سنة ١٩٣٩ لهذا الغرض بالذات . وقد استطاعت هذه المدارس أن تلعب دورا هاما كان له تأثيره على بقية المدارس فى مصر والبـــــلاد العربية . فاسماعيل القبانى وزير التربية والتعليم السابق يذكر أن مناهج هذه المدارس كانت أساس التغيرات التى أدخلت على منـــاهج الدراسة الثانوية ســــنة ١٩٤٥ ، ١٩٥٣ ومناهج المدارس الابتدائية الحكومية سنة ١٩٣٧ ، وسنة ١٩٤٧ ، ١٩٥٣ واستطاعت هذه المدارس النموذجية أيضا أن تؤثر على المدارس الحكومية فى أشياء كثيرة أخرى منها ألوان النشاط خارج المنهج والجو المدرسى بصفة عامة . والواقع أن وزارة التربية والتعليم قد اعترفت بفضل هذه المدارس على تطوير التربية فى مصر وابتدأت تظهر اهتمامـــا كبيرا بهذه المدارس كان من

مظاهره اعادة تنظيم هذه المدارس سنة ١٩٥٦ (*) وأعلنت الوزارة عندئذ أن هدف هذه المدارس هــو أن تكون حقلا للتجريب التربوى الحديث وأساليب التربية الحديثة التى يمكن تطبيقها ونقلها الى المدارس الأخرى ، وأعطى الاشراف الفنى على هذه المدارس النموذجية سنة ١٩٥٥ الى كلية التربية (معهد التربية سابقا) (القاهرة) كلية البنات (القاهرة) كلية المعلمين بأسيوط وادارة البحوث الفنية والمشروعات بوزارة التربية ، وللتنظيم بين هذه الهيئات الاشرافية أنشىء المجلس الأعلى للمدارس النموذجية • وفيما يلى نماذج للبحوث التى قامت بها هذه الهيئات بين عامى سنة ١٩٥٥ ، ١٩٦١ كما وردت فى التقــرير السنوى (١٩٥٩ — ١٩٦١) لادارة البحوث الفنية والمشروعات •

بحث حالة المدارس الابتدائية — تنظيم الادارة المركزية لوزارة التربية والتعليم — مشاكل التعليم الثانوى — البطاقات المدرسية — الاختبارات الموضوعية والتحصيلية — نظام الامتحــانات فى المدارس الاعدادية والثانوية والفنية — المستوى الثقافى لخريجى الجامعة — العقاب المدرسى — تقويم الدور الاجتماعى للمدرسة فى المجتمع — تقويم المدرسين والاداريين — نظام التفتيش — متــابعة خريجى المدارس الثانوية الفنية — التأخر الدراسى فى المدارس الابتدائية — تجربة منطقة الجيزة فى اللامركزية — مشــكلة الانقطاع الدراسى — طرق تعليم القراءة — مناهج المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية — تقويم الكتب الدراسية — الأخطاء الاملائية — مشكلات المرأة العاملة — التغذية المدرسية — مشاكل المراهقة — الدروس الخصوصية •

(*) مع عدم التقليل من أهمية الدور الذى لعبته المدارس النموذجية فان المؤلف يعتقد بضرورة الأخذ بمفهوم جديد للمدارس النموذجية لا يقتصر تطبيقه على التعليم العام بل يتعداه ليشمل التعليم الفنى أيضا مع تركيز الاهتمام على محتوى المواد الدراسية وأساليب تعليمها على أحــــداث الاتجاهات . لماذا لا نفكــر مثلا فى انشاء مدارس صــناعية نموذجية أو مدارس على غرار المدرسة الشاملة بحيث تكون على نطاق تجريبى ؟

٣ ـ **استقدام الخبراء الأجانب** : مع أن استقدام الخبراء الأجانب لتطوير النظم التعليمية العربية كان مقصورا على عدد محدود من البلاد العربية الا أنه ينبغى الكلام عنه • فقد استقدمت العراق بعض الخبراء لدراسة وتطوير أحوال التعليم فيها • واستقدمت الحكومة المصرية خبيرين لدراسة نظام التعليم وتطويره هما كلاباريد السويسرى ومان البريطانى وكانت خلاصة عملهما تقريرين مشهورين سنفصل الكلام عنهما فى السطور التالية :

(أ) **تقرير كلاباريد** : كان الدكتور كلاباريد أستاذ علم النفس ومدير معهد جان جاك روسو للبيداجوجيا فى جامعة جنيف بسويسرا • وقد استدعته وزارة المعارف المصرية لدراسة نظام التعليم بهدف اصلاحه وتطويره لاسيما نظام اعداد المعلمين • وقد حضر كلاباريد الى مصر فى أواخر شهر أكتوبر سنة ١٩٢٨ وأمضى نحو ثمانية أشهر أصدر فى نهايتها تقريرا مشهورا ضمنه خلاصة دراسته ومقترحاته وطبعته وزارة المعارف فيما بعد •

وقد اعتمد كلاباريد فى دراسته على ملاحظاته من خلال زيارته للمدارس والاختبارات السيكلوجية التى أجراها على التلاميذ فى مختلف مدارس المدن والأرياف كما استعان بملاحظات وآراء المعلمين والمفتشين وخبراء الامتحانات وكذلك طلاب مدرسة المعلمين العليا • وقد جانب كلاباريد التوفيق فى تطبيقه لاختبارات سيكلوجية مشبعة بالثقافة الأوروبية على التلاميذ المصريين ولم يكن غريبا اذن ماتوصل اليه من انخفاض مستوى ذكاء التلاميذ المصريين • وكانت أهم الموضوعات التى عهد الدكتور كلاباريد بدراستها

١ ـ دراسة نظام التعليم العام بجميع مراحله بهدف تطويره من حيث مواد الدراسة وعددها ومقدارها والتوحيد بين الدراسة فى مدارس البنين والبنات وعدد المدارس لكل مرحلة بالنسبة الى عدد السكان •

٢ — دراسة نظام التعليم الالزامى واحتمالات نجاح مشروع تعميم التعليم الالزامى من الوجهة التعليمية والاجتماعية •

٣ — دراسة ميزانية للتعليم بالنسبة للميزانية العامة •

٤ — علاقة المدارس العليا بالجامعة •

٥ — نظام مدارس المعلمين وهل يجمع فيها بين المواد العلمية والبيداجوجية وهل تنضم مدرسة المعلمين بقسميها العلمى والأدبى الى كليتى العلوم والآداب بالجامعة المصرية • وما الخطة التى تسير عليها الوزارة فى اعداد تخريج المعلمين •

وقد انتهى كلاباريد من دراسته الى تقديم المقترحات ومن أهمها :

١ — تخفيض عدد التلاميذ فى الفصل مع توزيع التلاميذ توزيعا متجانسا على أساس السن والمستوى العقلى •

٢ — تعيين معلمى فصل فى المدارس الأولية والابتدائية وجعل تعليم الأطفال حتى سن التاسعة فى أيدى المعلمات •

٣ — تخفيف حدة المركزية ومنح قدر معقول من الحرية للمعلمين ونظار المدارس •

٤ — تخفيف المناهج وتعديل نظام الامتحانات بحيث لاتعتمد على الحفظ ، والاستظهار وانما على العقل والتفكير •

٥ — التوسيع فى تعليم الفتاة بالمدارس الابتدائية والثانوية •

٦ — عدم التسرع فى نشر التعليم الالزامى حتى يتخرج الأعداد الكافية من المعلمين •

٧ — تعديل أسلوب اعداد المعلمين وانشاء فرق متنقلة لنشر الثقافة فى الريف والقاء محاضرات أسبوعية فى التربية ارفع مستوى أداء المعلمين وتعيين مفتشين سيكلوجيين لمواصلة البحث فى المدارس ولارشاد المعلمين •

(ب) تقرير مان :

كان المستر مان مفتشا للمدارس وكليات المعلمين بوزارة المعارف البريطانية وقد استدعته الحكومة المصرية لدراسة سياسة التعليم • وحضر الى مصر فى سبتمبر سنة ١٩٢٨ وبقى بها حتى أبريل سنة ١٩٢٩ •

وقد أعد فى نهاية اقامته تقريرا قدمه الى وزارة المعارف ضمنه نتائج دراسته وأهم مقترحاته • وكانت أهم الموضوعات التى طرحت عليها لدراستها نظام تخريج المعلمين ومناهج الدراسة فى التعليم العام والعلاقة بين مناهج مدارس البنين والبنات ونظام التعليم الالزامى وعدد المدارس اللازمة لكل مرحلة وميزانية التعليم بالنسبة لميزانية الدولة وهى موضوعات مشتركة قدمت أيضا الى كلاباريد الذى كان موجودا فى نفس الفترة تقريبا • وقد اقترح مان عدة اقتراحات تأثر فيها بنظام التعليم فى بلاده • كما اتفق مع كلاباريد فى كثير من الأمور وأهم الاقتراحات تخفيف قيود المركزية ومنح المعلمين والنظار مزيدا من الحريات فى ادارة مدارسهم وقيام السلطات المحلية بادارة التعليم الأولى وما يتبعه من مدارس للمعلمين والمعلمات وتطوير المناهج والامتحانات والغاء نظام الدور الثانى وعدم اعتبار الشهادات الرسمية أساس التعيين فى وظائف الحكومة •

٤ ــ الاهتمام باعداد المعلمين :

يعتبر على مبارك الرائد الأول لحركة اعداد المعلمين فى العالم العربى فى العصور الحديثة وكان من نتيجة جهوده انشاء دار العلوم سنة ١٨٧٢ لتخرج المعلمين اللازمين للمدارس • وفى سنة ١٨٨٠ انشئت مدرسة المعلمين المركزية على غرار مدارس النورمال الفرنسية البروسية •

وكان من أهم التطورات فى اعداد المعلمين فى العالم العربى انشاء معهد التربية للمعلمين بالقاهرة سنة ١٩٢٩ (كلية التربية جامعة عين شمس حاليا) الذى أنشىء بناء على اقتراح الخبير السويسرى كلاباريد الذى زار مصر فى تلك الفترة • وظل هذا المعهد منذ نشأته

حتى الآن يلعب الدور القيادى فى النظرية التربوية ، وتطبيقاتها فى العالم العربى وخرج أجيالا من التربويين تولت زمام القيادة الفكرية التربوية فى العالم العربى •

٥ ــ انشاء الجامعات الحديثة :

يعتبر انشاء الجامعة المصرية قمة ما وصلت اليه الحركة التربوية فى القرن العشرين • وكانت النشأة الأهلية الأولى للجامعة من أهم انتصارات اليقظة الوطنية وقد افتتحت الجامعة فى ديسمبر سنة ١٩٠٨ لدراسة العلوم والفنون والآداب وكانت أول جامعة أهلية ثم تحولت الى حكومية سنة ١٩٢٥ •

وعرفت باسم الجامعة المصرية التى تطورت الى جامعة القاهرة الآن •

وكانت أول جامعة حكومية عربية هى الجامعة السورية (جامعة دمشق حاليا) التى أنشئت سنة ١٩٢٣ • وتعتبر الجامعة المصرية بعد تحولها الى حكومية سنة ١٩٢٩ ثانى جامعة عربية حكومية • وتعتبر جامعة الاسكندرية (جامعة فاروق الأول) أسبق من غيرها من الجامعات العربية الأخرى لأنها أسست خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٤٢) • وجميع الجامعات العربية الأخرى أنشئت بعد هذه الحرب •

وتوالى انشاء الجامعات فى مصر نفسها وباقى الدول العربية فيما بعد • وانتشرت الجامعات وتعددت فى العالم العربى حتى وصل عددها حاليا الى ٤٤ جامعة عربية منها جامعة أنشئت سنة ١٩٦٨ فى الأرض المحتلة لتعليم الفلسطينيين تعرف بجامعة « بيرزيت » • كما أن هناك ثلاث جامعات غير عربية فى الوطن العربى هى الجامعة الأمريكية ببيروت ومثيلتها بالقاهرة والجامعة اليسوعية فى بيروت[1] •

---

(١) لمزيد من التفصيل :
انظر لنفس المؤلف : محمد منير رسى : التعليم الجامعى المعاصر قضاياه واتجاهاته ــ دار النهضة العربية ــ القاهرة .

٦ — ظهور الاتجاهات التعليمية المتميزة :

كان من أهم الاتجاهات التعليمية التى برزت فى الفترة الأخيرة فى مصر وأهمها الاتجاه الذى كان يمثله نجيب الهلالى وهو سياسة الأبعاد الثلاثة والاتجاه الثانى الذى كان يمثله طه حسين وعرف بسياسة الكم والاتجاه الثالث الذى كان يمثله اسماعيل القبانى وهو ما عرف بسياسة الكيف وسنفصل الكلام عنهم فى السطور التالية :

سياسة الأبعاد الثلاثة (نجيب الهلالى) :

لنجيب الهلالى تقريران مشهوران أحدهما كتبه سنة ١٩٣٥ وهو عن التعليم الثانوى عيوبه ووسائل اصلاحه وسنشير الى مزيد من الكلام عن التقرير فيما بعد • والتقرير الثانى عن اصلاح التعليم فى مصر (١٩٤٣) • وكان نجيب الهلالى فى كتابة هذا التقرير الأخير متأثرا بدرجة كبيرة بالاصلاحات التعليمية فى انجلترا بعد الحرب العالمية لا سيما قانون بتلر الذى صدر فى انجلترا سنة ١٩٤٤ وهو القانون الذى ينظم التعليم فى انجلترا حاليا • وقد سبق قانون بتلر خطوات كثيرة مهدت لصدوره كصدور الكتاب الأبيض • وهذا يفسر لنا كيف تأثر الهلالى بقانون بتلر مع أن تقريره صدر قبل هذا القانون بعام •

وفى حديثه عن الاصلاح التعليمى المقترح يشير الهلالى الى أن تطوير التعليم ينبغى أن يسير فى اتجاهات أو أبعاد ثلاثة ، الطول والعرض والعمق • أما بعد الطول فيشير الى مدة التعليم واطالتها لتشمل التعليم الالزامى للاطفال والتعليم العام للفتيان والبرنامج الأعلى للشباب • أما بعد العرض فيعنى التوسع فى التعليم بما يحقق تكافؤ الفرص التعليمية لكل الطبقات بدون أى تمييز • أما بعد العمق فيعنى جودة التعليم ونوعه وكيفه وحسن اختيار المادة الدراسية بما يتمشى مع قدرة واحتياجات التلاميذ •

وبعبارة أخرى فان الهلالى كان ينظر الى التربية على أنها عملية مستمرة وأنها من المهد الى اللحد وأن التعليم لا ينبغي أن يكون مقصورا على طبقة معينة وانما يجب أن يتاح لكل الطبقات بدون تمييز • وقد نادى بأن يكون التعليم الابتدائي والثانوى مجانا ومتاحا لكل المصريين . كما أن التعليم يجب أن يتنوع ليواجه الاحتياجات الفردية والاستعدادات الشخصية للتلاميذ على مستوى المدرسة الثانوية بتقسيمها الى أنواع منها الأكاديمى ومنها الفنى والزراعى والتجارى والصناعى •

وربما كان لطه حسين تأثير على أفكار وآراء الهلالى فقد كان طه حسين مستشاره الفنى فى الفترة من ١٩٤٢ — ١٩٤٤ وعمل معه فى انسجام تام • الا أنه يبدو واضحا تأثره فى المبادىء التى بنى عليها خطة اصلاح التعليم فى مصر بالمبادىء التى قام عليها قانون بتلر كما أشرنا فقد تبنى هذا القانون فكرة التربية على أنها عملية مستمرة وتبنى أيضا فكرة التعليم العام المجانى للجميع وكذلك تنوع التعليم الثانوى وهى نفس المبادىء التى نادى بها الهلالى لاصلاح التعليم • وعلى كل حال فان المفهوم الهلالى لتكافؤ الفرص التعليمية يعتمد على اتاحة فرص التعليم العام المجانى للجميع بدون تمييز وأن يتنوع التعليم ليواجه الاحتياجات والفروق الفردية بين التلاميذ •

اتجاه الكم أو سياسة الماء والهواء : (طه حسين) :

فى سنة ١٩٣٨ كتب طه حسين يقول أن التعليم ليس ترفا وانما هو ضرورة • وطالب بألا يكون التعليم مقصورا على طبقة معينة • وربما كان طه حسين وهو خريج السربون متأثرا فى ذلك بما حدث فى فرنسا سنة ١٩٣٠ عندما بدأ الغاء المصروفات الدراسية من المدرسة الثانوية ، وسمح بدخول أعداد كبيرة من التلاميذ غير الطبقات الاجتماعية التى كانت محظوظة بهذا النوع من التعليم • وطه حسين نفسه يذكر فرنسا كمثال على ديمقراطية تعميم التعليم المجانى •

ومع أن طه حسين كان يعتقد أن التعليم يتساوى فى الأهمية مع الدفاع القومى وهى فكرة ثاقبة سابقة لأوانها فانه كان يعتقد أن فكرة التعليم المجانى للجميع فيها تبذير وهى فوق ما تستطيع امكانيات الدولة أن تتحمله • بيد أن هذه الفكرة نفسها تطورت مع مرور الزمن فبعد ١٢ عاما أى فى سنة ١٩٥٠ عندما أصبح طه حسين وزيرا للمعارف نادى بأن التعليم كالماء والهواء حق لكل انسان ولا يصح أن يباع ويشترى انما يجب أن يكون مجانيا ومتاحا لكل من يريده • وقد طبق طه حسين هذا الكلام فى نفس السنة بالغاء المصروفات الدراسية من التعليم الثانوى وبهذا أصبح التعليم العام كله مجانيا • وقد ترتب على ذلك زيادة هائلة فى اعداد تلاميذ التعليم العام من ٩٠٨ر٥٩٨ تلميذا فى ٤٨—٤٩ الى ٠٥٦ر٠٥١ر١ تلميذا عام ١٩٥٠ ثم الى ٨١٧ر١٠٢ر١ تلميذا عام ١٩٥١ وفى التعليم الثانوى كله زاد عدد التلاميذ من ٧٠٤ر٩٨ الى ٠٦٤ر١٢٧ تلميذا ثم الى ٩٤١ر١٥٤ تلميذا فى السنوات نفسها • وزادت ميزانية التعليم زيادة كبيرة من حوالى ١٩ مليونا سنة ١٩٤٩ الى حوالى ٢٩ مليونا سنة ١٩٥١ •

وكان لهذا التوسع الكمى الهائل نسبيا فى أعداد التلاميذ فى التعليم العام أثر فى خفض مستواه ونوعيته • وربما كان هذا من الأمور العادية فمن المعروف أن من أهم المشكلات التى تواجهها النظم التعليمية التى تعول على توسع تعليمى كبير هى التوفيق بين الكم والكيف وغالبا مايكون الكم على حساب الكيف • وقد كان ذلك من أهم الأسباب التى هوجمت من أجلها سياسة طه حسين وروج لها على أنها سياسة الكم مع أنه هو نفسه لم يطلق عليها ذلك •

وكان القبانى أكثر نقاد طه حسين ونقده نقدا مرا فى عدة مقالات كتبها فى جريدة الأساس سنة ١٩٥٢ ثم فيما نشر له من كتب فيما بعد وكان من أهم الانتقادات التى وجهها الى سياسة طه حسين أنها أهملت

التعليم الابتدائى على حساب التعليم الثانوى وانها اهتمت بالكم على حساب الكيف فى التعليم •

لقد كان طه حسين على وعى بأهمية الكيف وأكد أنه فى الوقت الذى ينادى فيه بأن يكون اتاحة التعليم لكل المصريين فانه ينبغى أن يكون هذا التعليم بناء مفيدا ونافعا فلا يرضيه أن تضم المدرسة ألفا فى حين أنها لا تستطيع أن تعلم أكثر من نصف ألف •

ومظهر آخر لاهتمام طه حسين بنوعية التعليم تأكيده لأهمية نوعية المعلم وكان يعتقد أن معلم الثانوى الى جانب حصوله على الدرجة الجامعية ينبغى أن تعد له مقررات وامتحانات على غرار نظام شهادة « الأجرجاجسيون » الفرنسية •

اتجاه الكيف أو تعليم الصفوة : (اسماعيل القبانى) :

ويمثل هذا الاتجاه اسماعيل القبانى حتى قبل أن يصبح وزيرا للمعارف فى الفترة من ١٩٥٢ — ١٩٥٤ • وقد أكد القبانى أهمية الكيف وقال أنها تأتى قبل الكم • ونادى بضرورة تحسين الكم والتوسع التدريجى فى التعليم أما تعميمه فيأتى مؤخرا أو فيما بعد • بيد أن القبانى كان مهتما بصفة رئيسية بالتعليم الثانوى والعالى وفى ذلك يقول فى كل الشعوب المتحضرة يتفق المربون على أن الكيف يأتى قبل الكم فى هذين النوعين من التعليم وأن أى أمة تضحى بالكيف فى سبيل الكم هى أمة تنتحر وفى تبرير ذلك يقول القبانى أن التعليمين الثانوى والعالى يعدان الأفراد الذين يتولون قيادة الأمة فى الجيل التالى وأى انخفاض فى مستواهما يعنى اضعافا لحياتنا المستقبلة •

ومعنى هذا أن القبانى لا يقبل أى تنازل فى مستوى نوعية التعليم الثانوى والعالى أما فى التعليم الابتدائى ففى رأيه أن انخفاض مستواه يمكن أن يحتمل فى سبيل الاسراع بتعميمه • والمسألة اذن فى نظر

القبانى تتعلق بمفهومه عن التعليم الثانوى ودوره فى اعادة القادة والجمع بينه وبين التعليم العالى فى هذا الدور • واذا كان مفهوم التعليم الثانوى بهذا المعنى فهو اذن فى نظره ليس تعليما للجميع وانما هو تعليم « للصفوة » •

٧ ـ تطوير التعليم الدينى :

شهدت العصور الحديثة تطوير التعليم الدينى فى الأزهر • وقد جاء الاحساس بضرورة هذا التطوير استجابة لما دعا اليه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى صاحب أول دعوة لاصلاح الأزهر فى القرن التاسع عشر ورائد ترجمة العلوم العربية وقد تخرج نفسه من الأزهر وعاب على محمد على والى مصر أنه أهمل ادخال العلوم الحديثة الى الأزهر وقال لو تشبث خيار أهل العلم الأزهريين بالعلوم العصرية لفازوا بالكمال •

كما دعا الى الاصلاح أيضا الشيخ محمد عبده والشيخ العروسى والشيخ المراغى وغيرهم •

وقد تمثلت المطالبة باصلاح الأزهر فى ضرورة الأخذ بالعلوم الحديثة مثل الطبيعيات والرياضيات والتاريخ والفلسفة والاجتماع • كما تمثل أيضا فى العمل على ربط الأزهر بالمجتمع والحياة وتخليصه من البدع والخرافات والأوهام • ولم يكن من السهل ادخال هذه العلوم الحديثة الى الأزهر فقد كانت تلقى مقاومة شديدة من جانب شيوخ الأزهر أنفسهم •

ومن أبرز الشخصيات التى كانت تقاوم ادخال العلوم الحديثة الى الأزهر فى القرن التاسع عشر الشيخ محمد عليش وكان يعاونه فى ذلك الشيخ محمد العباسى المهدى شيخ الجامع الأزهر آنذاك •

ويجب أن نشير الى الاستفتاء الذى تقدم به أشهر علماء جامع الزيتونة فى تونس وهو الشيخ محمد بيرم الى شـيخ الأزهر الشيخ محمد الانبابى وكان ذلك سنة ١٣٠٥ هـ — ١٨٧٧ م يسأله رأيه عما اذا كان يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية والطبيعيات والهيئة والكيمياء • وقد أجابه الشيخ الانبابى بأنه يجوز تعلم العلوم الرياضية وعلم الطب والطبيعيات ولكنه أفتى بتحريم علم التنجيم كما أشار الغزالى •

وعلى الرغم من هذا حدثت محاولات لتطوير الأزهر فى أواخر القرن التاسع عشر •

وفى سنة ١٩١١ صدر قانون يتعلق بتنظيم الجامع الأزهر فبعد أن كان التعليم فيه مطلقا غير مقيد أو محدد قسم القانون المذكور الدراسة الى مراحل لكل منها نظام ومواد خاصة وأنشئت بموجبه هيئة للاشراف على شئون الأزهر تسمى مجلس الأزهر الأعلى وأنشئت هيئة كبار العلماء وأنشئت معاهد دينية جديدة فى بعض عواصم المديريات •

وأضاف هذا القانون الى مواد الدراسة مواد جديدة هى التاريخ والجغرافيا والرياضة ومبادىء الطبيعة والكيمياء • وصدر قانون آخر سنة ١٩٣٦ وهو متمم للقانون السابق •

وقد أصبحت دراسة الطب ممكنة بعد أن أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر فتوى تجيز فيها تشريح جسم الانسان الميت من أجل دراسة الطب أو من أجل التحقيق فى الجريمة •

وأهم قانون لتنظيم الأزهر هو القانون الذى صدر عام ١٩٦١ م بشأن اعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها هو الذى يسرى به العمل حاليا • وقد جاء فى صدر القانون تمجيد الدور المناط بالأزهر

كهيئة علمية اسلامية كبرى وأهمية الدور الذى يلعبه بالنسبة للعـالم الاسـلامى •

وبمقتضى هذا القانون أنشئت كليات حديثة فى جامعة الأزهر هى كلية الطب وطب الأسنان والزراعة والتجارة والمعاملات ومعهد اللغـات والترجمة كما أنشئت كلية خاصة بالبنات هى كلية البنات الاسلامية وتدرس فيها العلوم الطبيعية الى جانب العلوم الدينية • وبهذا القانون انتقل الأزهر من الجامع الى الجامعة • ومن نظام الحلقات فى سـاحة المسجد الى نظام المدرج المنشأ على الطراز الحديث • ومن شيخ العامود الى الاستاذ ومن صاحب الفضيلة الى فضيلة الدكتور •

المراجع (قائمة مختـــارة) :

١ ــ القرآن الكريم •
٢ ــ الأحاديث النبوية الشريفة •
٣ ــ المعاجم اللغــوية •
٤ ــ دائرة المعارف الاسلامية •
٥ ــ ابراهيم العبيدى التوزرى : تاريخ التربية بتونس ــ الشركة التونسية للتوزيع •
٦ ــ ابن الأثير : جامع الأصول من أحاديث الرسول ــ المطبعــة المحمدية القاهرة •
٧ ــ ابن الجزار القيروانى : سياسة الصبيان وتدبيرهم •
٨ ــ ابن حوقل : صورة الأرض • ليدن ١٩٣٨ •
٩ ــ ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون • كتاب الشعب ــ مطــابع الشعب • القاهرة •
١٠ ــ ابن سعد : الطبقات الكبرى •
١١ ــ ابن سحنون : آداب المعلمين : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ــ الجزائر ١٩٦٩ •
١٢ ــ ابن سينا : كتاب القانون •
١٣ ــ ابن سينا : كتاب السياسة •
١٤ ــ ابن عبد البر النمر القرطبى : جامع بيان العلم وفضله • المكتبة السلفية ١٩٦٨ ــ بيروت •
١٥ ــ ابن قيم الجوزية (الامام شمس الدين محمد بن أبى بكر) : تحفة المودود بأحكام المولود ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت •
١٦ ــ ابن المقفع : الأدب الصغير •
١٧ ــ ابن المقفع : الأدب الكبير •

١٨ — ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق — مطبعة صبيح — القاهرة١٩٥٩ .

١٩ — أبو اسحاق ابراهيم بن موسى اللخمى الغرناطى (الشاطبى) : الموافقات فى أصول الأحكام — مكتبة صبيح — القاهرة ١٩٦٩ .

٢٠ — أبو الأعلى المودودى : الحجاب .

٢١ — أبو الحسن الماوردى : أدب الدنيا والدين — مطبعة صبيح وأولاده .

٢٢ — أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — الطبعة العاشرة ١٩٧٤ .

٢٣ — أبو سعد السمعانى : أدب الاملاء والاستملاء — ليدن — مطبعة بريل ١٩٥٢ .

٢٤ — أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث — مطبعة مصر — القاهرة ١٩٤٨ .

٢٥ — أحمد بدوى : رفاعة رافع الطهطاوى . لجنة البيان العربى ١٩٥٩ .

٢٦ — أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية — مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٩ .

٢٧ — أحمد صبحى : الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الاسلامى — دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ .

٢٨ — أحمد فؤاد الأهوانى : التربية فى الاسلام — دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٥ .

٢٩ — أسماء حسن فهمى : مبادى التربية الاسلامية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٤٧ .

٣٠ — الامام أبو طاهر اسماعيل موسى الجيطالى : قناطر الخيرات — القاهرة مكتبة وهبة ١٩٦٥ .

٣١ — الامام القرطبى : الجامع لأحكام القرآن — دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة .

٣٢ ـ الامام القشيرى : الرسالة القشيرية ـ مطبعة صبيح ـ القاهرة ١٩٦٦ •
٣٣ ـ السيد محمد رشيد رضا : تاريخ الاستاذ الامام ـ مطبعة المنار ـ القاهرة ١٣٤٤ هـ •
٣٤ ـ السيد محمد رشيد رضا : مجلة المنار •
٣٥ ـ السخاوى : الضوء اللامع •
٣٦ ـ برهان الاسلام الزرنوجى : تعليم المتعلم طريق التعلم - القاهرة ١٩٤٨ •
٣٧ ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ـ النهضة المصرية ـ ١٩٧٣ •
٣٨ ـ حيدر بامات : من مجالى الاسلام ـ ترجمة عادل زعيتر ـ دار احياء الكتب العربية ـ عيسى البابى الحلبى وشركاه ـ القاهرة ١٩٥٦ •
٣٩ ـ الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ـ القاهرة ١٣٤٩ هـ •
٤٠ ـ خليل طواطح : التربية عند العرب •
٤١ ـ ديورانت : قصة الحضارة (مترجم) نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم •
٤٢ ـ رفاعة رافع الطهطاوى : مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية ـ مطبعة الرغائب ـ القاهرة ١٩١٢ •
٤٣ ـ رفاعة رافع الطهطاوى : المرشد الأمين للبنات والبنين - مطبعة المدارس الملكية ـ القاهرة ١٢٨١ هـ •
٤٤ ـ زكى نجيب محمود : نظرية المعرفة ـ القاهرة ١٩٥٦ •
٤٥ ـ زين الدين العاملى : منية المريد فى أدب المفيد والمستفيد ـ القاهرة ١٩٥٦ •
٤٦ ـ شمس الحق العظيم أبادى : عقود الجمان فى جواز تعليم الكتابة للنسوان ـ المكتب الاسلامى بدمشق ١٩٦١ •
٤٧ ـ صاعد الأندلسى : طبقات الأمم •

٤٨ ــ عباس محمود العقاد : المرأة فى الاسلام ــ دار الهلال •
: التفكير فريضة اسلامية •
: الفلسفة القرآنية •
٤٩ ــ عبد الباسط بن موسى العلموى : المعيد فى أدب المستفيد ــ المكتبة العربية بدمشق ١٣٤٩ هـ •
٥٠ ــ عبد العزيز صالح : التربية والتعليم فى مصر القديمة ــ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦ •
٥١ ــ عبد الكريم عثمان : الدراسات النفسية عند المسلمين ــ مكتبة وهبة القاهرة •
٥٢ ــ عبد اللطيف السبكى : الأزهر وتعليم المرأة •
٥٣ ــ عبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه ــ مطبعة النصر ــ القاهرة ١٩٦٥ •
٥٤ ــ عثمان أمين : رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده ــ الأنجلو المصرية ١٩٦٥ •
٥٥ ــ الغزالى (أبو حامد) : احياء علوم الدين ــ مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى القاهرة •
٥٦ ــ الغزالى (أبو حامد) : ميزان العمل ــ مطبعة صبيح ــ القاهرة ١٩٦٣ •
٥٧ ــ غادة الخرسا : الاسلام وتحرير المرأة ــ دار السياسة ــ بيروت •
٥٨ ــ فاضل الجمالى : تربية الانسان الجديد ــ مطبعة الاتحاد العام التونسى للتوزيع ــ تونس ١٩٦٧ •
٥٩ ــ فتحية سليمان : المذهب التربوى عند الغزالى ــ دار الهنا ــ القاهرة ١٩٥٦ •
٦٠ ــ فتحية سليمان : المذهب التربوى عند ابن خلدون ــ مكتبة نهضة مصر •

٦١ — فتحية سليمان : التربية فى المجتمعين اليونانى والرومانى — دار الهنا للطباعة والنشر — القاهرة .

٦٢ — القابسى : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين .

٦٣ — ليفى بروفنسال : حضارة العرب فى أسبانيا — القاهرة ١٩٣٨ .

٦٤ — محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية — دار الفكر العربى — القاهرة .

٦٥ — محمد بيصار : العقيدة والأخلاق — مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة ١٩٦٨ .

٦٦ — محمد عبد الرحمن غنيمة : الجامعات الاسلامية الكبرى — دار الطباعة المغربية تطوان ١٩٥٣ .

٦٧ — محمد عزة دروزة : المرأة فى السنة والقرآن — المكتبة العصرية — بيروت ١٩٦٧ .

٦٨ — محمد على أبو ريان : الفلسفة ومباحثها — دار الجامعات المصرية — ١٩٧٤ .

٦٩ — محمد عمارة : الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى — المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ١٩٧٣ .

٧٠ — محمد عمارة : الأعمال الكاملة للامام محمد عبده — المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ١٩٧٢ .

٧١ — محمد غلاب : المعرفة عند مفكرى المسلمين — الدار المصرية للتأليف والترجمة — القاهرة ١٩٦٦ .

٧٢ — محمد قطب : منهج التربية الاسلامية — دار الشروق — بيروت .

٧٣ — محمد منير مرسى : مع المخطوطات العربية — دار النهضة العربية — ١٩٦٩ .

٧٤ — محمد منير مرسى : التعليم العام فى البلاد العربية — عالم الكتب — القاهرة ١٩٧٥ .

٧٥ — محمد منير مرسى : تاريخ التربية فى الشرق والغرب — عالم الكتب — القاهرة ١٩٨٠ .
: فلسفة التربية : اتجاهاتها ومدارسها — عالم الكتب — القاهرة ١٩٨٢ .
٧٦ — محمد يوسف : القرآن والفلسفة — دار المعارف — ١٩٦٦ .
٧٧ — محمود قاسم : فى النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام — الأنجلو المصرية القاهرة .
٧٨ — مقداد يالجن : التربية الأخلاقية الاسلامية — مكتبة الخانكى — القاهرة ١٩٧٧ .
٧٩ — منيف الرزاز : معالم الحياة العربية الجديدة — دار العلم للملايين — بيروت ١٩٥٩ .
٨٠ — ميد (هنتر) : الفلسفة أنواعها ومشكلاتها — ترجمة فؤاد زكريا — دار نهضة مصر ١٩٧٥ .
٨١ — النواوى : تهذيب الأسماء .
٨٢ — وولف : فلسفة المحدثين والمعاصرين : ترجمة د. أبو العلا عفيفى . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٤ .

المراجع الأجنبية :

1 — Beck, R. : A Social History of Education.
Prentice - Hall. Inc. Englwood Cliffs, N.Y. 1965.

2 — Breasted, J : A History of Egypt.
Scriber — N.Y. 1913.

3 — Brubacher, J : A History of the Problems of Education.
McGraw — Hill Series N.Y. 1947.

4 — Batts, R. : A Cultural History of Education.
McGraw — Hill N.Y. 1947.

5 — Calhoun D. : The Educating of American : A documentarv History. U.S.A., 1969.

6 — Dent. H.C. : The Educational System of England and Wales. The University of London Press 1963.

7 — De young and other. American Education.
McGraw Hill Inc. U. S. A. 1964.

8 — Dienko, M. : Public Education in the USSR. Progress Publishers Moskow. N. d.

9 — Eby, F. and Arrowood : The History and Philosophy of Education. Prentice — Hill N. Y. 1952.

10 — Fraser, W. : Education and Society in Modern France, Roulledge & Kegan Paul. Ltd. London 1963.

11 — Full, H. : Controversy in American Education. The Macmillan Company. N.Y. 1967.

12 — Hurwitz, H., E. & Maidment, R (eds.) Criticism, Conflict & Chuage Readings in Americanè Education. Dodd Mead Company. N. Y. 1970.

13 — Institute Pedagogique National : The Organisation of Education in France. Cahier de Documentation. Jan. 1970.

14 — Mulhern, J. : A History of Education.
The Ronald Press Co. N.Y. 1946.

15 — Montessori, Maria : Spontaneous Activity in Education.
Robert Bently Enc. Cambridge-Mass. U.S.A., 1964.

16 — O'leaery. De Lacy : Arabic Thought and its place in History.
Dutton Co. Inc. N.Y. 1939.

17 — Reforms and Restraints in Modern french Education.
Routledge & Kegan Paul Ltd. London 1971.

18 — Reisner, E. : History Foundations of Modern Education. The Macmillan Co. N.Y. 1931.

19 — Rubenstein, D. & Simon, B The Evolution of the Compre-henive School (1926-1972). Routledge & Kegan Paul. London. 1973.

20 — Spencer, H. : Education Intellectual, Moral and Physical Watts and Co. London 1949.

21 — Ulich, R. : History of Education Thought. American Book Co. N. Y. 1950.